# علم الاجتماع ومدارسه


تأليف

الدكتور مصطفى الخشاب

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة


## الكتاب الثالث

## المدارس الاجتماعية المعاصرة

طبعة مزيدة ومنقحة

١٩٦٦






الناشر

الدار القومية للطباعة والنشر

القاهرة

# علم الاجتماع ومدارسه

تأليف
الدكتور مصطفى الخشاب
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة

## الكتاب الثالث
## المدارس الاجتماعية المعاصرة

طبعة مزيدة ومنقحة
١٩٦٦

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى أن أقدم لقراء الاجتماع والمختصين فى ميدانه الكتاب الثالث من مجموعتى « علم الاجتماع ومدارسه » وموضوعه «المدارس الاجتماعية المعاصرة» ويعتبر هذا الكتاب امتدادا للكتاب الأول الذى عالجت فيه تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره . فقد وقفت فيه عند الكلام عن علم الاجتماع بين أقطابه الثلاث : كونت ودوركايم وسبنسر.

بيد أن الدعوة التى أعلنها كونت بصدد انشاء علم مستقل لدراسة شئون المجتمع ، أحدثت حركة فكرية بعيدة المدى فى المجتمع الأوربى وانقسم المفكرون حيالها بين مؤيدين ومعارضين . ومن ثم ظهرت فى أواخر أيامه وبعد وفاته مدارس اجتماعية كثيرة ترمى الى دراسة شئون المجتمع وظواهره دراسة علمية ، ونظرت الى هذه الدراسة من زوايا خاصة ذهبت فى صددها مذاهب شتى .

والملاحظ بصفة عامة أن بعض هذه المدارس قد التزم الحدود التى رسمها كونت واقتنع بفكرة استقلال الظواهر استقلالا ذاتيا شأن غيرها من ظواهر الكون ، ولم يلتزم البعض الآخر المنهج الذى رسمه ولم يعترف بذاتية هذه الظواهر وانحرف فى فهم حقائق الاجتماع انحرافا ظاهرا . فمن العلماء من أنكر العلم كلية وألحقه بعلم النفس ، ومنهم من ألحقه بعلم الحياة ، ومنهم من اعتبره فرعا من الجغرافيا ، وآخرون عدوه مبحثا من الأنثروبولوجيا . ولذلك لم تكن هذه المدارس موفقة فى معظم ما انتهت اليه من نتائج وقوانين .

هذا ، الى أن الحركة العلمية الاجتماعية قد انتشرت منذ بدايه القرن العشرين ثم أخذت تشتد وتقوى ويتسع نطاقها وتتشعب ميادينها فى الثلاثين سنة الأخيرة وزادت ثروة العلم . وساعد على ذلك قيام الحربين العالميتين الأولى والثانية . فقد كان قيام هاتين الحربين نذيرا بيقظة موضوعات هامة فى شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع استأثرت بمزيد عناية العلماء ولايزال العلماء يجدون فى البحث ويقتحمون آفاقا جديدة فى ميدان الدراسات الاجتماعية . وقد وصلوا ولا يزال يصلون فى هذا الصدد الى نظريات جديرة بالدراسة ولها قيمتها العلمية . ووضعوا مصطلحات ومفاهيم لها مدلولاتها الخاصة، ورسموا مناهج بحث مبتكرة تعبر عن مبلغ التقدم العلمى الذى وصل اليه علم الاجتماع ومبلغ الدقة والعمق الذى أصاب قوانينه .

وغنى عن البيان أن المختصين والمثقفين من الفقراء فى مساس الحاجة للوقوف على مااستحدث من نظريات فى هذا الميدان .

ولذلك كان من واجبى ، وقد وقفت أوفر قسط من جهودى العلميه درسا وتدريسا على التأريخ لعلم الاجتماع ومعالجة مختلف فروعه ونظرياته ، أن أكتب فى موضوع المدارس الاجتماعية المعاصرة شارحا ومحللا وناقدا .

وقد صادفت فى وضع هذا الكتاب مشقة كبيرة وجهدا بالغا نظرا لدقة المصطلحات وعمق الأفكار وأصالة الرأى وجدة تكنولوجيا العلم . ولذلك حاولت فى كثير من المواقف تبسيط الأفكار وتقريبها للأذهان فى الحدود التى تسيغها مفاهيم المصطلحات .

والكتاب يعرض للقارىء أبرز المدارس الاجتماعية الحديثة والمعاصرة وأقواها شأنا فى مجموعة كبيرة من البلاد التى شقت طريقها فى التقدم العلمى .

وأملى أن يسد كتابى هذا بعض الفراغ فى المكتبة العربية .

وأسأل الله التوفيق والهداية ..

الدقى فى نوفمبر ١٩٦٥ — مصطفى الخشاب

# الفصـــل الاول

## المدارس الاجتماعية فى فرنسا

### أولا ــ أوجست كونت

ترجع نشأة المدارس الاجتماعية المعاصرة الى ذلك التاريخ الذى أعلن فيه « أوجست كونت » عن نشأة علم الاجتماع بوصفه علما مستقلا فى ذاته لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية أى دراســة علمية شأنه فى ذلك شأن علوم الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا التى تــدرس ظواهرها فى ضوء مناهج البحث العلمية . ولعل الضرورة التى حدت به الى انشاء هذا العلم هى رغبته فى اصــــلاح المجتمعات المعاصرة له وانقاذها من مظاهر الفوضى الضاربة أطنابها فى مختلف شئون الحياة الاجتماعية من سياسية واقتصادية وأخلاقية وتربوية . لأنه كان يؤمن بفكرة أساسية مؤداها أن الفلسفة ليست لها غاية مطلقة فى ذاتها ولكنها وسيلة للوصول الى غايات عملية تخدم أغراض الاصلاح الاجتمــاعى وتسهم فى الارتقاء بالمستويات الاجتماعية والأخلاقية والدينية . ولذلك نراه ينعى على رجال الاصلاح ويندد باتجاهاتهم ويصف أعمالهم بالتفه والعقم لأن المشروعات التى يضعونها والتنظيمات التى يلجأون اليها لن يقدر لها النجاح ولن تثمر فى تحقيق الغايات المرجوة الا اذا سبقها تنظيم عقلى لطرق التفكير والعمل واتحاد فى مناهج البحث وتوحد فى مواقف المجتمع ازاء حركة الاصلاح .

ولذلك لما ظهرت مشكلة اصلاح المجتمع الفرنسى واعادة تنظيمــه بعد ثورته الشهيرة ؛ اختلف كونت مع جمهــرة المصلــحين والمشرعين

المعاصرين له . لأن هؤلاء نظروا الى المسألة نظرة سطحية وحاولوا معالجة الأمور بسرعة وطفرة ارتجالية ، أما كونت فرأى أن المهمة شاقة وعسيرة وتتطلب مجهودا طويلا لابد أن يمهد له بوضع فلسفة جديدة للقضاء أولا على مظاهر الفوضى فى التفكير وعلى الاضطراب فى مناهج البحث المستخدمة فى دراسة ظواهر العلوم . أى أنه يمتاز عن معاصريه بأنه ألقى على المجتمع الذى عاش فيه نظرة أوسع نطاقا وأسبر غورا فاتضح له مدى الاضطراب العقلى الذى يتصوره واتضح له أيضا أن التيارات العنيفة التى تقذف بالمجتمع لايمكن أن نعزوها الى أسباب سياسية أو اقتصادية بسيطة ؛ بل هى ناشئة عن الاضطراب الخلقى وفساد معايير الرأى العام ؛ وهذا ناشىء بدوره عن الفوضى العقلية . اذ أن كل مايعتور التفكير من اضطراب وفساد لابد أن يتردد صداه فى مختلف مظاهر النشاط الاجتماعى . فكأن الجهاز الاجتماعى أو الحركةالاجتماعية ترتكز فى نهاية تحليلها على التفكير الذى يعتبر فى نظره المحور الأساسى الذى تدور حوله كل مظاهر الحياة الاجتماعية لأن المجتمع ليس فى حاجة الى انسجام المصالح المادية والمنافع المتبادلة فحسب بل هو فى حاجة كذلك الى اتفاق عقلى ووحدة فكرية وذلك لضمان استقراره وتقدمه .

ودرس كونت مظاهر الفوضى القائمة وكيف يمكن القضاء عليها .أولا داعى لعرض آرائه فى هذا الصدد فقد درستها بكل كفاية فى كتابى ( أوجست كونت وتاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ) . ويكفى أن نشير الى أنه انتهى بعد الدراسة والتحليل الى أن القضاء على الفوضى العقلية وتحقيق الاتفاق أو الوحدة المنهجية المنشودة انما يتوقف على انشاء علم جديد يدرس ظواهر المجتمع دراسة علمية وضعية لأن هذه الظواهر كما تصور لم تخضع حتى عهده للدراسة العلمية شأن ماعداها من ظواهر العلوم المعروفة . وهذا ماحدا به أن يضع فلسفة اجتماعية ترتكز على قواعد المنهج الوضعى وتحقق الوحدة الكلية فى هذا النوع من التفكير .

وطبق كونت منهجه الوضعي على معظم المشاكل التى حفل بها عصره. ففي ميدان المشكلات العامة ، اتضح له أن الوحدة العقلية متى تحققت، فانها ستؤدى الى اتفاق العقول على الحلول المنتظرة للمشاكل المتعلقة بالروابط والعلاقات الاجتماعية . وفى ميدان التربية ، فان هذه الوحدة ستساعد المسئولين على وضع تربية قومية ترتكز على مبادىء ومعتقدات ومعايير أخلاقية تتفق مع مستوى التفكير العام . وفى ميدان السياسة ستحقق الوضعية مبدأ هاما هو وجوب فصل السلطتين الدينية والزمنية وقيام نظم جديدة ثابتة تحقق فكرتى النظام والتقدم . لأنه يرى أن هاتين الفكرتين مرتبطتان أشد الارتباط وبدونهما لاتستقر النظم الاجتماعية. ومن الناحية الجمالية رأى كونت أن الحاجة ماسة الى ظهور فن جديد يرتبط بالعقائد والأفكار الوضعية ويتفق مع المرحلة التقدمية التى وصلت اليها الحياة الاجتماعية . وفى ميدان الاقتصاد رأى ضرورة تنظيم العلاقات بين رأس المال والعمل لأن عدم تنظيمهما سيؤدى الى تفتيت الوحدة الجمعية والقذف بالمجتمع الى مستقبل غامض . وانتهى الى حقيقة هامة وهى أن اصلاح الظروف الاقتصادية يرتكز فى آخر تحليله على اصلاح الأخلاق . فيجب اذن أن ننظم الأخلاق أولا ويجب أن نحدد بصفة اجتماعية حقوق وواجبات المواطنين ونقوى فيهم الشعور باحترامها حتى يكون المجتمع بمنأى عن الانحرافات . ومن الناحية الأخلاقية انتهى كونت الى ضرورة الاعتراف « بطغيان غرائز المشاركة الوجدانية على الدوافع الأنانية » لأن الكمال الأخلاقى هو عبارة عن الانسجام الذى يمكن تحقيقه بين جميع الأفراد وفقا للمبدأ القائل « عش لغيرك » وهذا الكمال لايمكن أن يتحقق الا اذا نشأ بينهم تضامن كلى من شأنه أن يخفف من حدة النزعات الفردية ويقوى الروابط الاجتماعية وهذا يتمثل فى ضغط المجتمع ضغطا خفيفا على حريات الأفراد . وفى الناحية الدينية انتهى كونت الى وضع نوع جديد من العبادة هو « عبادة الانسانية » وهى العبادة التى تتمشى مع مبادىء فلسفته وترتكز هذه العبادة على فكرة الانسانية التى ينبغى أن تحل فى العالم الوضعى محل « فكرة الله » التى كانت ولاتزال مسيطرة على العالم

فالانسانية فى نظره هى الحقيقة المجردة السامية التى يجب أن تتجه اليها بكل قلوبنا وعقولنا وتتوفر عليها بالعبادة والتقديس . ووظيفة هذه الديانة هى تحقيق وحدة دينية فى العالم بأسره . فكما أن المنهج الوضعى يؤدى الى الوحدة العقلية ، فكذلك الدين الوضعى يؤدى الى الوحدة الدينية . وبذلك نستطيع أن نقول ان كونت بعد أن انتهى من تحويل العلم الى فلسفة كرس أخريات حياته فى تحويل الفلسفة الى دين .

هذه هى أهم النظريات التى انتهى اليها كونت ولاداعى للافاضة فى شرحها لأنها عولجت بكل كفاية فى مؤلفات سابقة . وقد أحدثت هذه الفلسفة الوضعية حركة فكرية واسعة النطاق تعدت حدود فرنسا الى معظم أجزاء العالم الغربى لاسيما فيما يتعلق بدعوته الى انشاء « علم الاجتماع » فقد انقسم المفكرون حيال ذلك بين مؤيدين ومعارضين . ومن ثم قامت فى فرنسا مدرستان متعارضتان هما مدرستا «اميل دوركايم وجبرائيل تارد » . وتعرف المدرسة الأولى ، بالمدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع وقد تزعمها دور كايم وأتباعه أمثال دافى وليفى برول وهوبرت وموس وبوجليه (1) . وقد التزمت هذه المدرسة الأصول العلمية التى وضعها أوجست كونت وحملت من بعده لواء الدعوة الى انشاء علم مستقل لدراسة الاجتماع الانسانى . وتعرف المدرسة الثانية بالمدرسة النفسية ويتزعمها تارد وأتباعه وأشهرهم لاكومب ولوبون . وتعارض هذه المدرسة الدعوة الى قيام علم الاجتماع وتذهب الى دراسة ظواهر المجتمع فى ضوء مناهج علم النفس . وبين هاتين المدرستين توجد مدارس كثيرة تذهب مذاهب شتى فى دراسة الظواهر الاجتماعية وسنتكلم عن هذه المدارس بشىء من التفصيل فى الفقرات القادمة .

---

(1) Davy ; Levy Bruhl ; Hubert ; Mauss ; Bouglé.

## ثانيا ــ دور كايم ومدرسته

يعتبر « اميل دوركايم » أحد دعائم الحركة العلمية عامة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهو منشىء علم الاجتماع الحديث غير مدافع وزعيم المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع التى لاتزال قائمة حتى وقتنا الحاضر . ويرجع اليه والى أعوانه وتلاميذه المباشرين دعائم الفضل فى ارساء الدراسات الاجتماعية بمختلف فروعها ومظاهرها على أرسى ماتكون الأسس والقواعد ووصل هو وزملاؤه فى هذا الصدد الى نتائج وقوانين لاتزال موضع التقدير .

ودوركايم تلميذ مخلص الى حد كبير لأوجست كونت . فقد التزم هو ومدرسته الأسس والمبادىء التى نادى بها وأضفى عليها كثيرا من الدقة العلمية ونحا بالبحث الاجتماعى نحو الوضعية الصحيحة وبذل جهدا نظريا يكاد ينفرد به فى تحقيق استقلال علم الاجتماع وتحديد ميدانه ومناهجه والسير بالدراسات الاجتماعية نحو التكامل .

وبدأ دوركايم مجهوده النظرى بالبحث فى مبلغ توفر شروط العلم المستقل فى علم الاجتماع من حيث الموضوع والمنهج وتقنين القوانين.

فمن حيث الموضوع بذل دوركايم قصارى الجهد فى تشخيص الظاهرة الاجتماعية وابراز خصائصها النوعية وقرر أنها تمتاز بموضوعيتها وشيئيتها وأنها مزودة بصفة الجبر والالزام . وهى من نتاج العقل الجمعى تنشأ تلقائيا من اجتماع الأفراد وتبادل وجهات نظرهم واحتكاك مشاعرهم . وهى فى ضوء هذه الاعتبارات تمثل ناحية جديدة فى الانسان تخالف طبيعتيه النفسية والحيوية . فاذا كان الانسان بمقتضى طبيعته النفسية الفردية يشعر ويتألم ويفكر ويتخيل ، وبمقتضى طبيعته الحيوية يأكل ويشرب وينتقل فى المكان ، فكذلك تفرض عليه طبيعته الاجتماعية أن يعيش فى مجتمع ويتعامل مع بنى جنسه ويخضع لما يخضعون له من نظم وأوضاع يقررها المجتمع . وعلى هذا النحو يكون

للانسان ثلاث طبائع أساسية يجب ألا يختلط بعضها بالبعض الآخر ويجب أن يتعين لكل طبيعة منها علم مستقل يدرسها . ومن ثم قام علم النفس لدراسة الطبيعة الفردية ومايصدر عنها من ظواهر ، وقام علم الحياة لدراسة الطبيعة الحيوية وظواهرها ، وينبغى أن يقوم علم الاجتماع لدراسة الطبيعة الاجتماعية ومايصدر عنها من ظواهر ونظم اجتماعية .

ومن حيث المنهج رسم دوركايم منهجا علميا واضح الأسس والمعالم لدراسة شئون الاجتماع وصحح كثيرا من الأخطاء المنهجية التى وقع فيها أوجست كونت ونبه فى كتابه « قواعد المنهج الاجتماعى » الى الأسس التى ينبغى أن يلتزمها الباحث فى دراساته وأهمها :

١ ــ يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها « أشياء » خارجية منفصلة عن شعوره الذاتى .

٢ ــ يجب أن يتحرر الباحث من كل فكرة سابقة يحفظها عن الظاهرة حتى لايقع أسيرا لأفكاره الخاصة .

٣ ــ يجب على الباحث ألا يقيم وزنا لظروفه الذاتية فى بحث ظواهر الاجتماع .

٤ ــ ينبغى دراسة الظواهر والنظم للكشف عن طبيعتها ونشأتها وتطورها والعلاقات المتبادلة فيما بينها والوصول الى القوانين المنظمة لها . ويجب صياغة هذه القوانين بدقة لأنها هى التى تكون مادة العلم ، وبفضل دقتها وضبطها يتعين مركزه بين سائر العلوم . وقد تصاغ هذه القوانين فى صور كمية تعبر عن سير الظاهرة بالأرقام والرسوم البيانية أو فى صور كيفية تحدد الخواص والصفات العامة فى قضايا كلية .

والخطوات المشار اليها تدلنا على أن الدراسة فى علم الاجتماع يجب أن تكون دراسة تاريخية مقارنة . وتبدو أهمية التاريخ لأنه ميدان ملاحظة الظواهر وهو فوق ذلك حقل التجارب . ولذلك كانت الدراسة التاريخية لازمة وضرورية لفهم أصول النظم الحاضرة ووضع النظم

المستقبلة على أساس سليم . وهذه الضرورة هى التى تدعونا الى دراسة نتائج أو ثمرات الماضي كما نلاحظها فى عصورنا . بيد أن طبيعة الظواهر الاجتماعية التى نلاحظها تجعلنا لا تقتصر على الدراسة التاريخية بل من الواجب أن نلجأ الى طريقة جديدة فى البحث الاجتماعي وهى الطريقة الاحصائية . وقد طبق دوركايم هذه الطريقة فى دراسته لظواهر الانتحار. وهذا يدلنا على عناية دوركايم بقواعد المنهج ومحاولته تدعيم طـرق الدراسة والبحث .

ومن حيث تقنين القوانين فقد انتهى دوركايم من دراساته الى طائفة غير يسيرة من القوانين الاجتمـاعية : فى الانتحار ، وفى الدين ، وفى الأسرة ، وفى المعرفة الانسانية . ولم يترك أية ناحية من النواحى التى درسها الا وصل بصددها الى القوانين العامة المفسرة لنشأتها وطبيعتهـا وتطورها . وكان دائما يحاول الكشف عن الوظيفة الاجتمـاعية التى يحققها النظام أو الظاهرة موضوع الدراسة . وأحيل القارىء الى الفصل الذى عقدته عن « دوركايم » فى كتابى « تاريخ التفكير الاجتماعى » للوقوف على الموضوعات التى درسها والنظريات التى انتهى اليها . ومنها ندرك أنه يرجع اليه الفضل فى ارساء علم الاجتماع الحديث على أقوى ماتكون الدعائم فلا غرو اذا لقبه المؤرخون بأبى علم الاجتماع المعاصر.

هذا ، وقد حمل أتباع دوركايم وتلاميذه المباشرون رسالة أستاذهم وتابعوا دراساته وتأسوا خطاه ، ولم يتركوا أية ناحية من نواحى المجتمع الا عالجوها فى ضوء منهج أستاذهم مع قدر من الأصالة الشخصية . وهذه ميزة كبرى للمدرسة الفرنسية الاجتماعية . فقد حققت هــذه المدرسة كلية التفكير الاجتماعى وجعلت من علم الاجتماع علما تكامليا. اذ نلاحظ أن علماء المدرسة قد ربطوا بين مختلف الدراسات الانسانية وبين علم الاجتماع ، فعالجوا الظواهر المورفولوجية والانثروبولوجية والجغرافية والدينية والسياسية والاقتصادية والقـانونية واللغوية والنفسية والفنية وظواهر الحياة فى ضوء المنهج الاجتماعى .

وأشهر من درس المورفولوجيا الاجتماعية ثلاثة من أقطاب المدرسة هم : « بوجليه » (١) فى كتابه عن نظام الطوائف و « هلفاكس » (٢) فى كتبه المورفولوجيا الاجتماعية ، والطبقة العاملة ومستويات المعيشة، وتطور الحاجات عند طبقات العمال و «جورفتش » (٣) فى دراساته المورفولوجية التى ضمنها كتابه « دروس فى الاجتماع » .

وأشهر من كتب فى الاتنلوجى والانثروبولوجى سوسيال : « ليفى برول» (٤) وكان الأخير مديراللمعهد الاتنلوجى الملحق بجامعة باريس(٥) والعلامة « بول ريفت » الذى أنشأ متحف الانسان وهو متحف انثروبولوجى . وقد اتجه بعض أنصار هذه المدرسة الى دراسة الحالة الاجتماعية فى المستعمرات وحمل لواء هذه الدراسة العلامة « مونيه » وتخصص العلامة ـ جنب ـ فى دراسة العادات الشعبية الدارجة ومبلغ تأثيرها فى ظواهر الاجتماع .

ومن الذين ربطوا بين الجغرافية والاجتماع العلامة « سيون J. Sion » فى كتابة ( الفلاحون فى أقليم نورمانديا الشرقية ) والعلامة « ديون A. Dion » فى كتاب له عن « التكوين الزراعى فى فرنسا » ـ والعلامة « جورو P. Gourou » فى كثير من بحوثه المتصلة بهذا الموضوع .

وأهم من اشتغل بالاجتماع الدينى العلماء « هوبرت وموس

---

(1) Bouglé ; Essai Sur le Regime des castes.

(2) Halbwachs : Morphologie Sociale : La Classe ouvrière et les niveaux devie ; L'Evolution des besoins.

(3) G. Curvitch ; Essais de Sociologie.

(4) Mauss ; Les variations Saisonnêres dans les Sociétés Eskimo.

(5) Institut d'Ethnologie de l'Université de Paris.

(6) René Maunier ; Essai Sur les groupements Sociaux ; Sociologie Coloniale ; Melanges de Sociologie Nord Africaine.

(7) Van Gennep : Manuel de Folklore Fraçais ; Le Folklore de la Bourgogne ; Tabou et totemisme à Madagascar.

وباستيد وكالوا ومارسل جرانت » (١) ويعتبر المفكر الأخير تلميـذا مخلصا لأستاذه دوركايم . فنظرياته تعتبر فيضا من تعاليم الأستاذ .

ودرس العلامة « موريه (٢) » الناحية السياسية فى كتابه « من العشائر الى الامبـراطوريات » ودرس بوجليه وفرانسـوا سيميانـد وهلفاكس (٣) الناحية الاقتصـادية . ووجه لفيف من قادة الحـركة الاجتماعية مزيد عنايتهم الى دراسة الاجتماع القانونى وعلى رأس هذه الطائفة « فوكنيه ودافى وبابيه وراى وليفى وجـورفتش » . واهتم « فوكنيه » بدراسة الجريمة (٤) .

وأشهر من درس الجماعات البدائية العلامة «ليفى برول » (٥) الذى تحرر الى حد كبير من تعاليم أستاذه دوركايم وجمع حوله عصبة من أنصاره وسموا أنفسهم «أصحاب مذهب كونت الجديد Neo Comtisme وأهم بحوثه « الوظائف العقلية فى المجتمعات المتأخرة والعقلية البدائية والنفس البدائية ـ والقوى الطبيعية والخارقة فى نظـر البدائيين »

---

(1) Hubert ; Mauss-Melange d'Histoire des Religions.
Bastide ; Sociologie Religieuse.
B Caillois ; le mythe et l'homme ; L'Homme et le Sacré.
M. Granet ; La Pensée Chinoise.

(2) A. Moret ; Davy. Des Clans aux Empires.

(3) Bouglé ; La methodologie de F. Simiand et la Sociologie.
F. Simiand ; Cours d'Economie Politique — Le Salaire des ouvriers — La Methode Positive on Sc. economique.

(4) Fauconnet ; La Responsabilité
G. Davy ; La Foi Jurée — Le Droit, L'idéalisme et L'expereince
A. Bayet ; La Science des faits moraux.
Jean Ray ; Le Structure logique du code civil Français.
E. Levy, Le Fondement du droit ; la division Socialiste du droit
Gurvitch ; La Declaration des droits Sociaux — La Socioloige du Droit ; L'idée du droit Social.

(5) Levy Bruhl ; La Mentalité Primitive — Les Fonctions mentales— L'Experience mistique chez les Primitives — La morale et la Sc de moeurs.

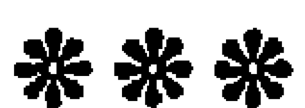
وبجانب اهتمامه بهذه الناحية عنى بدراسة الناحية الأخلاقية ووضع دعائم علم الاجتماع الأخلاقى وذلك فى كتابه « الأخلاق وعلم الطباع»

وفى ميدان الدراسات اللغوية وصل علماء المدرسة الفرنسية الى مكانة ممتازة لم يصل اليها بعد علماء آخرون . وكان على رأس المشتغلين بهذا الميدان العلماء « دى سوسير ومييه وكوهن » (١) .

ومن أنصار الدراسات النفسية العالمان « بلوندل وليفى برول » (٢) وفى ميدان الفن نخص بالذكر العلماء « لوكيه ولالووجيو » (٣) .

وعلى هذا النحو لم يترك علماء المدرسة الفرنسية الاجتماعية أية ناحية من النواحى الانسانية الا درسوها فى ضوء المنهج الاجتماعى وبذلك جعلوا من علم الاجتماع علما « تكامليا كما سبق الاشارة . وهذا مايدعونا الى تسمية هذه المدرسة بالمدرسة التكاملية فى الدراسات الاجتماعية .

وقد تعدت أعمال هذه المدرسة حدود فرنسا وكان لها أبعد الأثر فى الفلسفة الاجتماعية عند الانجليز والأمريكان . ويمكننا أن نقول ان علماء الرعيل الأول فى أمريكا تتلمذوا مباشرة على تعاليم كونت ودوركايم وأتباعهما . وكان تأثرهم بهؤلاء أكثر من تأثرهم بهر برت سبنسر .



(1) De Saussure : Cours de Linguistique General.
Meillet ; Comment Se Changent Les mots.

(2) Blondel ; Le Suicide.

(3) Luquel ; L'Art et la Religion — L'Art primitive — Lalo ; L'Art et Lavie Sociale — L'Expression de la vie dans l'art.
Guyau l'art au point de Vue Sociologique.

## ثالثا ــ المدرسة النفسية

ان التحمس الذى بدأ من دوركايم ومدرسته فى تدعيم الحركة الاجتماعية العلمية أثار حفيظة بعض العلماء المناهضين لقيام علم الاجتماع بوصفه علما مستقلا فى ذاته ، وأعطى الفرصة لاشتداد المنافسةواحتدام الجدل العلمى بين الفريقين . ومن ثم قامت فى فرنسا مدرسة معارضة لمدرسة دوركايم . وهى مدرسة قوية وعنيدة يتزعمها العالم النفسانى « جبرائيل تارد G. Tarde »

كان « تارد » (١٨٤٣ ــ ١٩٠٤ ) من كبار رجال القانون الفرنسيين شغل وظيفة مستشار مدة طويلة ثم انتقل مديرا لادارة الاحصائيات الجنائية وعندما أحيل الى المعاش عين أستاذا فى « كلية فرنسا » .وهذه الوظائف التى شغلها تفسر لنا مبلغ اهتمامه بالدراسات الجنائية والمباحث المتصلة بالجريمة ودوافعها . وكتب فى هذا الصدد بحوثا كثيرة أهمها كتابان هما : الجريمة (١٨٨٦) ، وفلسفة الجزاء (١٨٩٠) (١) .

ثم ساهم فى الحركة العلمية التى شغلت أذهان معاصريه . وكانت تدور حول تعيين مراكز العلوم بالنسبة لبعضها البعض وتحديد ميادينها وتقرير مناهج بحوثها . وكان من الطبيعى بحكم تخصصه أن ينصب نفسه مدافعا عن علم النفس . فنقد علم الحياة ونقد الداروينية وهاجم ماذهب اليه أوجست كونت ودوركايم بصدد استقلال علم الاجتماع واستقلال ظواهره . وذهب الى القول بأن علم الاجتماع لايصح أن يكون له وجود مستقل . وعلى افتراض تحقيق مثل هذا الوجود فانه يجب أن يكون فرعا من علم النفس « Une Inter psychologie »وأنكر طبيعة الظاهرة الاجتماعية ونادى بأن هذه الظاهرة ان هى الا ظاهرة

(1) Tarde: La Criminalite; La philosophie Penale. (1890).

فردية من صنع الأفراد لأن المجتمع الذى تنسب اليه هذه الظواهر هو فى حقيقة الأمر مؤلف من أفراد . ومن ثمة فلا داعى لقيام علم جديد لدراسة ظواهره . ودافع عن أرائه فى كتب كثيرة أجدرها بالذكر « قوانين التقليد (المحاكاة) ، والمنطق الاجتماعى ، والقوانين الاجتماعية، والرأى العام والشعب » [1] . وتعتبر هذه الكتب ردا مباشرا على القضايا العلمية التى قررها « دوركايم » فى مؤلفاته الاجتماعية وخاصة ماجاء فى كتابه ( قواعد المنهج الاجتماعى ) فيما يتعلق باستقلال الظاهرة الاجتماعية وخواصها الذاتية وضرورة دراستها بوصفها أشياء اجتماعية « Commedes Choses Sociales » فقد رد ( تارد ) على هذه القضية ومثيلاتها بأنه لايعترف بشخصية الظاهرة الاجتماعية ، ولا يقر لظواهر اللغة والدين والقانون وما اليها من النظم الاجتماعية وجودا ذاتيا ولا يعترف بموضوعيتها بل يراها جميعا مظاهر نفسيةتعتمد فى نشأتها وتطورها على التقليد والمحاكاة ومجهودات الأفراد .

ويبدأ تحليله السيكلوجى بقوله ان جميع أنواع السلوك انما ترجع الى الترديد والتكرار « Répétition » فهو من القوانين الأساسية التى تنتظم ظواهر الكون . ففى عالم المادة يتخذ صورة الذبذبات والتموجات ، وفى عالم الحياة يتخذ صورة الوراثة ، وفى عالم النفس يتخذ صورة التقليد والمحاكاة . فالفرد يحاكى نفسه أولا ثم يحاكى الآخرين . ويعبر عن هذه القضية بقوله « ان المحاكاة تنتقل من الداخل الى الخارج . أى أنها تبدأ فى المجال الفردى ثم تنتقل الى المجال الاجتماعى . وهى الحالة النفسية المعبرة عن العلاقة الاجتماعية التىتربط الأفراد بعضهم ببعض . وتتم المحاكاة عادة بطريقة لاشعورية ولذلك نراه يشبه الحياة الاجتماعية بحالة التنويم المغناطيسى فهى حياة ترديدية وتخديرية لايشعر بها الأفراد لأنهم يحاكون بعضهم بعضا بطريقة تلقائية غير شعورية .

---

(1) Tarde. Les Lois de l'Imitation ; La logique Sociale ; Les lois Sociales — L'Opinion et la foule. (1901).

وحياة هذا شأنها لابد أن تؤدى الى الثبات والجمود . بيد أن تارد يدخل عنصرا نفسيا جديدا لتصحيح نظريته . وهو عنصر التجديد والابتكار « Invention » فقد يستيقظ الفرد فجأة من هذا السبات العميق على فكرة جديدة . ومن ثم تنتقل هذه الفكرة من فرد الى آخر عن طريق المحاكاة والتقليد الذى بفضله تنتشر الظواهر والنظم الاجتماعية الجديدة التى يبتكرها الأفراد . لأن الأفراد عادة يحاكون من هم أسمى وأعلا شأنا فى السلم الاجتماعى .

ويخضع التقليد لنوعين من العوامل .

(أولا) عوامل منطقية تتلخص فى محاكاة الأفعال النافعة ومظاهر السلوك المستحدثة وذلك بعد التبصر . ويصادف الفرد فى هذا السبيل نوعا من المعارضة وعدم التأييد «Opposition» لكل ماهو جديد وسرعان ماينظم نفسه لقبوله ويتكيف لمحاكاته «Adaptation»

(ثانيا) عوامل غير منطقية وتتلخص فى اندفاع الفرد تلقائيا وبصفة غير شعورية الى المحاكاة والتقليد ولاسيما اذا كان يحاكى من هو أرقى منه فى المنزلة الاجتماعية .

ويذهب تارد وأتباعه فى تفسير القضايا التى أشرت اليها الى أن الحياة تستهدف من حين لآخر لظهور بعض النابهين وذوى الشأن يتمثلون فى الأنبياء والملوك والقادة والعظماء والنابهين وهؤلاء يأتون ابتكارات جديدة . فيأخذ الناس بها وينقلونها عنهم وينساقون فى تيارهم . وبترديدها وتكرارها ترسب هذه الأمور فى الحياة الاجتماعية وتصبح جزء من التراث الاجتماعى . ويستشهد أصحاب هذه النظرية على صحة مايذهبون اليه بما حدث فى تاريخ المجتمعات . فالناس يسيرون على دين ملوكهم : الأمراء والأشراف يقلدون الملوك ، وكبار الملاك وثراة القوم يقلدون الأمراء والنبلاء ، والفلاحون يقلدون طبقة الملاك ، والضباط يقلدون قادتهم ، والجنود يقلدون ضباطهم ، والعمال والأجراء يقلدون الطبقة البورجوازية . وفى ضوء هذا التحليل السيكلوجى

يمكن تفسير انتشار العادات والتقاليد وآداب السلوك وقوالب التفكير والعمل والأوضاع الاقتصادية والسياسية والأسرية وما اليهـا . فانها جميعا عبارة عن ابتكارات قام بها بعض الأفراد ثم تناقلها الآخـرون ورسبت بعد ذلك فى الحياة الاجتماعية بفضل الأتبـاع والمقلـدين وأصبحت سمة العصر وجزء من التراث الاجتماعى ويتناقلها الأفرادجيلا بعد جيل . ويضرب أصحاب هذه النظرية أمثلة بظهور رمسيس ملك مصر واسكندر الأكبر والسيد المسيح والرسول محمد ونابليون ومن اليهم ممن كان لهم دعائم الفضل فى التجديد والابتكار وتطوير الحياة الاجتماعية وتقليد الأفراد لهم ومحاكاتهم فى حركاتهم وأعمالهم .

وينتهى تارد من هذا التحليل السيكلوجى قائلا : ان الجهـاز الاجتماعى برمته يرتكز على التقليد « ذلك النهر الفياض الذى لاينقطع تيـاره » .

ويمكننا أن نلخص الدعائم التى ترتكز عليها النظرية النفسية فى القضايا الآتية :

١ ـ ان الحياة الاجتماعية تخضع لقانون المحاكاة العام .

٢ ـ ان العمليات والعلاقات والظـواهر الاجتمـاعية ان هى الا تقليد الأفراد للنابهين من ذوى الشأن . ومن ثم فان الجهاز الاجتماعى يتمثل فى حياة ترديدية ترتكز على التقليد والمحاكاة .

٣ ـ ان تجديد الفرد وابتكاراته هى القـوى الديناميكيـة فى الحياة الاجتماعية ومبعث نشاطها وتطورها .

٤ ـ لابد من تدخل جانب الارادة الفردية لأنها عنصر ضرورى فى الانتقال من حالة التعارض الى القبول والتكيف .

٥ ـ ان التراث الاجتماعى وما ينطـوى عليـه من ظواهر ونظم اجتماعية وأوضاع متعلقة بالعادات والعرف والتقاليد ومظاهر السلوك

والتفكير والعمل تنتهى فى آخر تحليلها الى ابتكارات فردية رسبت فى البنيان الاجتماعى بفضل التقليد والمحاكاة .

٦ ــ ان المجتمع ليس له وجود ، والموجود أفراده وما يظهر فى جوه من ظواهر وتيارات ونظم ان هى الا حالات نفسية متبادلة بين الأفراد Inter psychologie وبين عقولهم inter-cerebrale وتتخذ طريقها فى الحياة الاجتماعية عن طريق التقليد والتجديد والمعارضة ثم القبول التكيف .

نقد المدرسة النفسية

كانت هذه النظرية هدفا لانتقادات كثيرة بالرغم مما يبدو فى ظاهرها من بعض وجوه الصحة . واليك أهم هذه الانتقادات.

أولا : أثار تارد ومدرسته أن الظواهر الاجتماعية ترجع فى نهاية تحليلها الى ظواهر نفسية فردية وهى من صنع الأفراد وأن المجتمع ليس له وجود والموجود أفراده .

وقد صرفت هذه الشبهات الأفراد الى حد ما عن دراسة علم الاجتماع وظنوا أنه فرع من فروع الدراسات النفسية . بيد أن هذه الشبهات على قوتها التى تبدو فى الظاهر مردودة على أصحابها وتدل على تفكير فطير . فقد تحدث فى المجتمع أمور لا يصح أن ننسبها الى أفراد معينين وذلك لأنها تنشأ من علاقات الأفراد فى حالة الاجتماع وتبادل وجهات نظرهم وتفاعل أفكارهم واحتكاك مشاعرهم وتوحد مواقفهم . هذا بالاضافة الى ما يحيط بهم من ظروف طبيعية وبيئية وتاريخية تصهرهم جميعا فى بوتقة جمعية وتؤدى الى قيام عقل جديد للجماعة يوجهها ويرشدها الى ما ينبغى عمله . وهذا العقل مستقل عن الأفراد وله منطق خاص ومظاهر سلوك تختلف عن مظاهر السلوك الفردى . وهو ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميته « بالعقل الجمعى » . فكل ما يصدر عن هذا العقل لا يصح أن ننسبه الى الأفراد

ولو أنهم هم الذين خلقوا هذه الشخصية المعنوية أو القوة الروحية تحت ظروف خاصة وبشروط معينة .

وفى هذا الصدد يلجأ دور كايم الى أمثلة مادية ليزيد الموضوع وضوحا فى أذهان المبتدئين فى الدراسات الاجتماعية (١) .

فيقول : نحن نعلم أن الماء مكون من جزء من الأوكسجين مع جزأين من الايدروجين وذلك تحت درجة حرارة خاصة وضغط معين وشروط معروفة . ولكننا نجد أن خواص المركب الكيميائى الناتج من ذلك وهو الماء تختلف كل الاخلاف عن خواص كل من العنصرين اللذين كانا سببا فى وجوده . فمثلا الارواء والسيولة والتدفق وهى خواص الماء لا توجد فى أى عنصر من العنصرين وليست أيضا خاصة لعنصر منهما مضافة لخاصة فى العنصر الآخر . وانما هى خواص نشأت ذاتيا من اتحادهما كيميائيا وتفاعلهما تحت الظروف المعروفة . فكذلك الحال بصدد الظواهر الاجتماعية . فهى ليست من صنع فرد ولا صنع بضعة أفراد ولكنها نتيجة لتفاعل الأفراد جميعا فى حالة الاجتماع . فخواص هذه الظواهر لا يمكن أن تكون صفة أو خاصة فى فرد أو بضعة أفراد ولكنها خواص المركب الجمعى وعناصر العقل الجمعى « Conscience Collective »

ويضرب مثلا ماديا آخر بالبرونز الذى يتألف من القصدير والرصاص والنحاس بنسب خاصة وتحت ظروف كيميائية معينة . فخواص البرونز تختلف عن خواص المعادن التى دخلت فى تركيبه وهى خواص نشأت عن الاتحاد الكيميائى بينها جميعا . بحيث فقد كل معدن خواصه الذاتية وانصهر فى وحدة جديدة . فكذلك الحال بصدد الحياة الاجتماعية عندما تنشأ من اتحاد الأفراد وتفاعلهم . فالعناصر الثلاثة تشبه الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع ؛ والبرونز يشبه المجتمع ؛ وخواص البرونز تشبه خواص الظواهر الاجتماعية التى

---

(1) Durkheim ; Régles de la Methode Sociologique. p. 15 sqq.

تصدر عن المجتمع . فالحياة الاجتماعية اذن من طبيعة جديدة مغايرة للطبائع النفسية والفردية . وهي في ظهورها بهذه الصفة تشبه في بعض الوجوه نشأة الكائنات الحية من مواد معدنية وعضوية . وهذا ما دعا دور كايم الى القول بأن ظواهر هذه الحياة ( الظواهر الاجتماعية ) من خلق عقل جديد هو العقل الجمعي وثمرة من ثمراته .

ثانيا : حمل تارد حملة بليغة على دوركايم بصدد قضيته الشهيرة التي مؤداها أن الظواهر الاجتماعية تنطوي على صفة الجبر والالزام ؛ قائلا ان الالزام يجعل الأفراد أرقاء في المجتمع لا حول لهم ولا قوة . وبذلك يقضي المجتمع المزعـوم على شـخصيات الأفراد ويردهم الى مستوى العجماوات لأن موقف الفرد بالنسبة للمجتمع هو موقف المسود بالنسبة للسيد . وقضية هذا شأنها تنتهي في آخر تحليلهـا الى تأليـة المجتمع لأن دوركايم يجعل منه معبودا جبارا يفرض سننه وقوانينه على الأفراد ويحدد لهم قوالب السلوك والعمل . وهذه الحياة القائمة على الجبر والالزام تجعل الأفراد يعيشون تحت ضغط دائم وارهاب مستمر فيسيطر على حياتهم الكبت والخضوع وتنتابهم العقد وتصبح حياتهم مملة ثقيلة ومجردة عن السعادة .

والحق أن هذا النقد ينطوي على هجوم لا مبرر له وينطوي كذلك على مغالطة في تفسير قضية دوركايم على حقيقتها . لأن الالزام الجمعي الذي يقول به دوركايم مظهر من مظاهر الضـبط الاجتمـاعي ورقابة المجتمع على أفراده للحرص على قواعد البنيان الاجتماعي والبعد به عن الهزات والانحرافات التي قد تعصف بدعائمـه . فهـو الزام مفيـد اجتماعيا لأنه يستهدف مصالح الأفراد بوصفهم أفرادا ومصالح المركب الجمعي باعتباره الكل الحاصل من اتحاد الأفراد وتفـاعل علاقاتهم . فالنظم والقوانين لم توضع الا لتحقيق التوازن في الحيـاة الاجتماعية وتهذيب وردع كل من تحدثه نفسه بالخروج عن الأوضاع المرسـومة والحدود التي قرر المجتمع عدم تجاوزها . ويجب أن تعلو هذه النظم فوق ارادة الأفراد لأنها وضعت لتحقيق الصالح العام وليست لتحقيق

مصالح فردية ذاتية . هذا وخضوع الفرد للنظم الاجتماعية ليس خضوعا مطلقا يقضى على حريته وشخصيته ولكنه خضوع محبب للفرد الاجتماعى . فليس هناك عداء بين المجتمع والفرد ولكن هناك اتحادا وتجاوبا . وهذا هو السبب فى استقرار النظم فى نفسية الأفراد عن رضاء واطمئنان . هذا ويستطيع الفرد أن يجدد ويغير فى القوالب الاجتماعية . فالأفراد ليسوا آلات صماء بصدد ما يفرضه المجتمع ولكنهم عناصر ايجابية يستطيعون الى حد ما أن يشكلوا الظاهرات . بيد أن هذا التدخل لا يكون الا فى الحدود التى يسمح بها المجتمع . وهذه الحدود تختلف فى مرونتها باختلاف قوة الظواهر الاجتماعية ومبلغ أصالتها فى البنيان الاجتماعى . فهى ضيقة النطاق وعديمة المرونة بصدد الظواهر الدينية والأخلاقية والمسائل القومية ؛ وواسعة النطاق كثيرة مرونة فى بعض مظاهر الحياة العامة . ومن هنا استمدت النظم الاجتماعية وما تنطوى عليه من جبر والزام مشروعيتها . وتتأكد هذه المشروعية فى نفوس الأفراد لعمومية الالزام وخضوعهم له بنسب متكافئة . لأنه لا يقع على فرد أو بضعة أفراد بالذات ؛ وانما هو الزام عام بالنسبة للكل . ومع وجود الالزام وتحققه فى واقع الأمر ؛ غير أننا لا نكاد نشعر به أو نحسه . وذلك نظرا لعوامل التربية والوراثة والتكيف والتمثيل الاجتماعى التى خففت من وقعه وجعلته يرسب فى التكوين الاجتماعى للأفراد فى حالة كمون . بيد أن عدم شعور الأفراد بالقوى الكامنة فى الظاهرة الاجتماعية لا يجعلها خلوا منها . وقد شبه دوركايم الضغط الاجتماعى بالضغط الجوى فى عالم الطبيعة . فكما أن الأفراد لا يكاد يشعرون بقوة الظاهرة الطبيعية مع وجودها ؛ فكذلك لا يحسون الضغط الاجتماعى الا فى حالة خروجهم عما يرسمه المجتمع من قواعد وأوضاع .

ثالثا : يقرر تارد أن الظواهر الاجتماعية ان هى الا حالات نفسية ترديدية أساسها التقليد والمحاكاة وتجديد النابهين وذوى الشأن . وهذه قضايا فاسدة لا تنهض حقائق الأمور دليلا على صحتها . ويبدو فسادها من نواح كثيرة :

( ا ) لا تفسر لنا هذه النظرية نشأة الظواهر الاجتماعية تفسيرا يطمأن اليه ولا تكشف عن طبيعتها . وما تذهب اليه هو تفسير أحد العوامل المؤثرة فى انتقال بعض الأوضاع الاجتماعية ومظاهر السلوك الاجتماعى من جيل الى جيل . وذلك هو التقليد الاجتماعى وليس التقليد الفردى الذى يقول به تارد . لأن الفرد فى واقع الأمر يقلد المجتمع ولا يقلد حالة نفسية فردية . وذلك لسبب بسيط وهو أن الفرد لا يسمع ولا يبصر الا فى المجتمع ؛ ولا يشعر ولا يفكر بدون المجتمع . فكل ما يصل اليه عن طريق الايحاء أو يذهب اليه عن طريق التقليد والمحاكاة عبارة عن انعكاس لأضواء الحياة الاجتماعية على فكره وشعوره .

(ب) ان أصحاب هذه النظرية يضربون أمثلة بظهور بعض الأنبياء والملوك والقادة ويشرحون ما كان لهم من فضل فى الابتكار والتجديد. فهل كانت الانسانية فى فجر نشأتها خلوا من كل تنظيم اجتماعى وكانت بصدد انتظار النابهين وذوى الشأن حتى ينشئوا فيها النظم والأوضاع الاجتماعية ؟؟ لقد فات أصحاب هذه النظرية أن هؤلاء وغيرهم ظهروا فى مجتمعات متطورة وعاشوا فى ظل نظم وأوضاع اجتماعية وتاريخية. وما ينسب اليهم من فضل هو أنهم استحدثوا أمورا وأشياء تعبر عن الاتجاهات الجمعية السائدة ولا يمكن تفسيرها فى ضوء المفاهيم التى يقولون بها .

(حـ) ان منطق هذه النظرية يصور لنا حياة الأفراد كالقطيع الذى يقلد رائده تقليدا أعمى . مع أن التاريخ يدلنا على أن الأنبياء والزعماء كثيرا ما استهدفوا للسخرية والتهكم والايذاء . وكثيرا ما كانت حياة الملوك والقادة شاقة وعسيرة ومليئة بالفتن والمؤامرات والثورات . فكيف يستقيم كل ذلك مع ما تذهب اليه النظرية النفسية من أن الأفراد كانوا يقلدون هؤلاء تقليدا أعمى .

( د ) ان ابتكارات الفرد ترجع فى واقع الأمر الى مستوى ثقافته. والفرد مدين للمجتمع بهذه الثقافة . فالشخص النابه المبتكر هو تعبير

عن مبلغ ما وصلت اليه الحياة الاجتماعية من تحضر وارتقاء . وهو تلميذ المجتمع وصنيعته .

(هـ) ان التجديد لا يعتبر كذلك الا اذا كان معبرا عن ميول واتجاهات اجتماعية ، فقد يحدث أن تنتشر اتجاهات ورغبات جديدة في جو المجتمع وتكون وظيفة النابهين هي ترجمة هذه الرغبات والتعبير عنها . أى أن الفرد النابه انما يمتاز عن غيره بادراكه طبيعة الأمور فى الحياة الاجتماعية ، واستطاعته أن يقرأ ماينتجه اليه المجتمع ويريده ، أى أنه يمتاز بقوة الحساسية الاجتماعية . فليس الزعيم أو المبتكر الا مترجما عن رغبات مجتمعه ومعبرا عن مشيئته . وما يصادفه الزعيم من نجاح وتوفيق انما يرجع الى ارتياح الافراد له لأنهم يجدون فيه مرآة صادقة تعكس رغباتهم وميولهم وتصور آلامهم وآمالهم .

نهاية المدرسة النفسية :

لاشك أن الانتقادات التى عرضناها وهنت من شأن النظريةالنفسيه فأصابها الذبول وانصرف كثير من أتباعها ومريديها عن جوهر النظرية واتجهوا الى دراسة نفسية الشعوب والجماعات كما فعل « جوستاف لوبون » . أما المخلصون من تلاميذ المدرسة فقد عملوا على نشر مذهبهم فى فرنسا وخارجها وأصبحت لهم مدارس قوية فى انجلترا وأمريكا سنعرض لها فى حينها ؛ ودافعوا عن دعائم النظرية وحملوا لواءها الى آفاق بعيدة . وأشهر هؤلاء اثنان من رجال العصر البارزين هما :

١ ــ الفردفوييه A. Fouillée ( ١٨٣٨ ــ ١٩١٢ ) صاحب نظرية « قوى الأفكار Idées Forces » . فالفكرة فى نظره قوة تنزع الى فرض نفسها والخروج الى حيز التنفيذ . فهى ليست مفاهيم غامضة لا حياة فيها ؛ ولكنها قوة ديناميكية حية تدفع الى العمل والتطور . والمجتمع فى نظره وحده نفسية متطورة أساسها الأفكار النفسيةالمتبادلة بين الأفراد . فان هذه الأفكار عبارة عن قوى مختزنة خرجت الىالفعل.

أى أن المجتمع خلق نفسه بدافع من العوامل النفسية الداخلية وقوى الأفكار الكامنة فى نفوس أفراده . ويحمل هذا المفكر على نظـريات دوركايم حملات قوية مبرهنا على فسادها فى ضوء تعاليم أستاذه تارد ومبادئه . وأشهر مؤلفاته فى هذا الصدد : العلم الاجتماعى المعـاصر ؛ العناصر الاجتماعية للأخلاق (١) .

٢ ـ لاكـومب « P. Lacombe » ( ١٨٣٩ ـ ١٩١٩ ) . نقـد دوركايم نقدا عنيفا فى سلسلة من كتبه أهمها : المنهج الاجتماعى عند دوركايم ، والتاريخ بوصفه علما (٢) . وفى هذا الكتاب الأخير اعتبر التاريخ علما موضوعيا وليس مجرد وصف الحوادث والتعليق عليها . ووصل الى تحديد موضوع علم الاجتماع وميزه عن موضوع التاريخ بأن قرر أن موضوع الاجتماع هو كل مايتعلق بقيام النظم ووظائفها « Institutionnel » أما موضوع التاريخ فهو دراسـة كل ما يتعـلق بالحوادث « de l'événementiel » وبالرغم من هذا الاتجاه العلمى فى تقرير طبيعة الحقائق الاجتماعية ، غير أنه انحرف انحرافا ظاهرا عند دراسة وتحليل ظواهر الاجتماع . فقد أرجعها كما أرجعها أستاذه الى التقليد والمحاكاة . فهى فى نظره مجرد حالات نفسية ناشئة عن حاجات الانسان وعلاقاته . وهى فى قيامها وانتشارها تعتمـد على المقـدمات والدوافع السيكلوجية التى نادى بها تارد . وقد أسرف ( لاكومب ) فى هذا الاتجاه اسرافا أدى به الى مهاجمة دور كايم هجـوما عنيفـا لا سيما فى بحوثه المتأخرة محاولا هدم فلسفته وتفنيد ما تنطوى عليه من قضايا علمية .

والملاحظ أن المتأخرين من أنصار هذه المدرسـة وهم كثـيرون اشتغلوا بالدراسات القانونية وخاصة الناحية الجنائية . وتتجه بحوثهم الى الكشف عن الأصول الاجتماعية والنفسية لفكرة القـانون ومدى

---

(1) A. Fouillée : La Science Sociale Contemporaine. (1910).
: Elements sociologique de la morale. (1905)

(2) P. Lacombe ; La Methode Sociologique de Durkheim
; L'Histoire Considerée Comme Science.

عموميته ومبلغ تأثيره فى نفسية الجماهير ومدى خضوع الأفراد لفكرة الالزام والجزاء . ويبحث بعض أنصار هذه المدرسة فى الجريمة ومقوماتها وعلاقتها بالشخصية والعوامل النفسية المهيئة لارتكابها والظروف الاجتماعية التى تبررها . ويعلق هؤلاء أهمية كبرى على الدوافع النفسية وسيكلوجيا الفرد لأنهم لا يؤمنون بقيمة العوامل الاجتماعية ويعتبرونها عوامل ثانوية أو مضافة لاتبلغ فى تأثيرها مبلغ الدوافع النفسية . والملاحظ أن التشريعات الفرنسية المتعلقة بتقرير الجزاءات والعقوبات قد تأثرت الى حد كبير بالبحوث النظرية التى قدمها رجال هذه المدرسة فى ميدان الجريمة . فقد خفت وطأة هذه الجزاءات وزالت الوحشية التى كانت تسيطر على فكرة الجزاء والتشريعات الجنائية عند الفرنسيين . هذا ، وقد نادى بعض أنصار هذه المدرسة بضرورة اصلاح السجون كما نادوا بضرورة تعزيز الحرية القضائية وناشدوا رجال القضاء أن يرجعوا فى دراسة القضايا الجنائية الى ضمائرهم باعتبارهم اجتماعيين ونفسيين أكثر من رجوعهم الى نصوص القانون باعتبارهم موظفين رسميين .

### رابعا ــ المدرسة الميكانيكية « الآلية »
### فى تفسير الظواهر الاجتماعية

مدرسة طريفة فى اتجاهها ، يحاول أنصارها تفسير الظواهر الاجتماعية بعوامل آلية محضة (mechanique) شأن ما كان سائدا فى غضون القرنين ١٧ و ١٨ بصدد تفسير الظواهر الانسانية عامة بالمؤثرات التى تفسر فى ضوئها ظواهر العالم المادى . ويدخل فى نطاق هذا الاتجاه كل النظريات والفروض التى تفسر الظاهرات الاجتماعيةفى ضوء مفاهيمومصطلحات علوم الرياضة والميكانيكا والطبيعة والكيمياء. ومع اختلاف وجهات نظر أصحاب هذه المدرسة،فانها تندرج كلها تحت اسم واحد وهو المدرسة الآلية (mechanique) أو مدرسة « الميكانيكا الاجتماعية » وقدم أنصارها مجموعة من الدراسات تعتبر محاولة علمية لانشاء ما يمكن تسميته « بعلم الاجتماع الميكانيكى »

وقد حاول هؤلاء الاستفادة من تقدم الميكانيكا والفيزياء فى دراسة المجتمع وتحليل الظاهرات الاجتماعية بالطريقة ذاتها التى تحلل بها عناصر المادة . واستعاروا المصطلحات والقوانين الميكانيكية لتفسير وتحليل مبادىء الحياة الاجتماعية والدعائم التى يرتكز عليها قيام المجتمع الانسانى . وذلك مثل قوانين التجاذب والتنافر والثقل والضغط والحركة وما اليها .

وتتلخص آراؤهم بصفة عامة فى أن المجتمع مملكة آلية داخل نطاق الطبيعة الكلية . والأفراد الذين يكونون المجتمع عبارة عن أجسام مادية وينطوون على قوى آلية معينة . ولما كانت قوانين الرياضة والميكانيكا والفيزياء وقضاياها هى التى تفسر خصائص الحركة والقوى والمادة ، أمكن تطبيق تلك القوانين والقضايا على دراسة الانسان والمجتمع . ويكفى عندئذ نقل المصطلحات والقوانين العلمية المعروفة فى مجال العلوم المشار اليها الى مجال الظواهر الانسانية ؛ اجتماعية وفردية .

وفى ضوء هذه الاعتبارات المجتمع فى نظر أصحاب هذه المدرسة نظام جرمى عناصره كائنات بشرية . وترتبط هذه الكائنات فيما بينها بجاذبية متبادلة ؛ وقد تنشأ بين بعضها عوامل التنافر كما يحدث ذلك بين ذرات المادة فى الطبيعة الكلية . والفرد فى الكون (أو فى المجتمع) حدث آلى يعمل ويتحرك وفق نظام آلى شأن أية حركة ميكانيكية .واذا حللنا حياة هذا الفرد نجد أنها سلسلة من مظاهر حركية : حركة الدم وحركة الأفكار وحركة الميول . وحيث تقف الحركة يحدث الموت الذى يشبه تماما توقف ماكينة الساعة أو أية آلة صناعية . واذا حللنا المجتمع الانسانى العام نجده ينطوى على ثلاث حقائق (١) :

١ ــ الكائن البشرى وهو نظام جرمى أساسه التجاذب والتنافر بين قوى وأفكار وجهود .

---

(1) Sorokin ; Les Theories Sociologiques Contemporaines p. 21. sqq.

٢ ـــ المجتمع وهو نظام جرمى أساسه التجاذب والتنافر بين الأفراد .

٣ ـــ الجنس الانسانى وهو نظام جرمى أساسه التجاذب والتنافر بين الجماعات (أى بين الشعوب والدول) .

ويفسر بعض أصحاب هذه المدرسة العلاقات الاجتماعية تفسيرا رياضيا . فاجتماع الأفراد عملية « جمع » ؛ وتفاعل علاقاتهم وتبادل مشاعرهم عملية « ضرب » ؛ وظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى وتنوع الوظائف وتفرع التخصصات عملية « قسمة » ؛ ومظاهر الصراع بينهم وقيام الحروب والثورات عملية « طرح » لأن مثل هذه المظاهر تنطوى على استنفاد وضياع لجزء كبير من الطاقة المزود بها الأفراد والمجتمعات .

وتفسر هذه المدرسة التنظيم السياسى والاجتماعى وظاهرة الزعامة والسيادة فى المجتمع بأنها نتائج حتمية لضبط « الذرات والخلايا الاجتماعية » أى « ضبط الأفراد والجماعات وتنسيق العمل الاجتماعى وممارسة قوة الضبط والقهر الاجتماعى . والنظم السياسية والادارية داخل المجتمع تشبه فى سيرها ودقتها نظام الموازين الحاسبة ( العادة ) « Counter balances »

وقد اجتهد بعض أنصار هذه المدرسة فى محاولة الوصول الى علم كمى عام يطبق على مختلف ظواهر العلوم لقياسها . لأن قياس الظواهر واستخدام الطرق الرياضية والهندسية هو أفضل المناهج التى توصلنا الى الحقائق الصائبة . فكل علم يجب أن يكون رياضيا . وبدون التطبيقات الرياضية ؛ فان الكائنات البشرية تعيش كالبهائم والحيوانات المفترسة التى لاتدرى من أمر حياتها شيئا (كما يقرر العلامة Weigel ). وهذا الاتجاه يفسر لنا المحاولات العلمية التى بذلت للوصول الى مقاييس أو وحدات للعد والقياس والاحصاء فى علوم الاجتماع والنفس والاخلاق .

« Sociometrica ; psychometrica ; Ethicometrica »

وكان هذا الاتجاه واضحا فى معظم النظريات الفلسفية التى نادى بها كبار فلاسفة القرن ١٧ ( ديكارت ليبنتز واسبينوزا ومالبرانش ) .

ولم تكن هذه المدرسة فرنسية النشأة كما يبدو من عرضها فى هذا الجزء من الكتاب ؛ ولكنها كانت منتشرة انتشارا واسع النطاق بين مفكرين كثيرين فى مختلف بلاد أوربا وأمريكا . وبعض هؤلاءفلاسفة والبعض علماء ومهندسون مارسوا الرياضيات والميكانيكا والطبيعة ؛ والبعض الآخر باحثون معجبون بطرائق هذه العلوم ومبلغ تقدمها وامكان تطبيق مضامينها ومفاهيمها وقوانينها على الانسان والمجتمع .

ومن الرواد الأول لهذه المدرسة « جورج باركلى G. Berkeley ( ١٦٨٥ — ١٧٥٣ ) كما هو واضح فى نظريته عن الجاذبية الاخلاقية والثبات الاجتماعى « ان القوى الدافعة الى الميل عن مراكز التجمع انما تبدو بوضوح فى النزعات الانانية التى تدفع بالأفراد الى التوحد والعزلة . بينما تتطابق الغرائز الاجتماعية مع القوى الدافعة الى الميل نحو المركز . لأنها تدفع الأفراد الى أن يعيشوا مجتمعين . ويبقى المجتمع فى حالة ثبات اذا كانت القوى الدافعة الى الميل عن المركز أقوى من القوى الدافعة الى الميل نحوه » ويشبه باركلى « السكان » فى الميكانيكا الاجتماعية « بالكتلة » فى علم الطبيعة « والتجانس واللاتجانس » بين الأفراد فى الميكانيكا الاجتماعية بنظرية الأبعاد فى الطبيعة . (١)

وساد هذا الاتجاه فى الفكر الاجتماعى فى القرن الثامن عشر وطلائع القرن ١٩ وتأثر به بعض الفلاسفة المعروفين باسم « الانسكلوبيديين » فقد حاول سان سيمون تفسير الظاهرة الاجتماعية

---

(1) Berkeley — The Principles of Moral Attraction.
Sorokin — Contemporary Sociological Theories (1956) p. 1.

في ضوء قانون « نيوتن » فى الجاذبية . ومن بعـــده حاول « شـــارل فورييه » تفسير « التاريخ » تفسيرا ميكانيكيا .

وكان اوجيست كونت في أول عهده متأثرا بهذا الاتجاه حتى وهو بصدد انشاء علم الاجتماع . فقد قسمه الى شعبتين : مباحث الستاتيكا ( أى مباحث الاستقرار والسكون والتوازن الاجتماعى ) ومبـاحث الديناميكا ( أى مباحث الحركة والتطور والتقدم الاجتماعى ) واللفظان مستعاران من علم الميكانيكا . كما أنه سمى علم الاجتماع فى أول الأمر بعلم الطبيعة الاجتماعية على غرار العالم البلجيكى «كتليه Quélélét » الذى سمى احد مؤلفاته بهذا الاسم .

ومنذ النصف الأخير من القرن ١٩ زاد عدد المفكرين المتأثرين بهذا الاتجاه : منهم فلاسفة ومنهم علماء ومهندســـون مارســـوا الرياضيات والطبيعيات ؛ ومنهم باحثون معجبون بطرائق هـــذه العـــلوم ومبـــلغ تقدمها وامكان تطبيق مضـــامينها ومفـــاهيمها وقوانينها على الظواهر الانسانية والاجتماعية . وأمكن تصنيف بحوث هؤلاء فى أربع مجموعات يغلب على كل مجموعة التأثر بعـــلم معين . فالمجمـــوعة الأولى تأثرت بالطبيعيات وعلى رأســـها العـــلامة « كارى Carey » وتأثرت المجمـــوعة الثانية بالميكانيكا ويمثـــلها « بارســـــيلو وهارت Barcelo-Haret » وتأثرت الثـــالثة بمبـــاحث الطـــاقة ويمثلها « سلفاى وازوالد وكارفر (Solvay — Ostwald — Carver) وتأثرت المجموعة الرابعة بالرياضـــيات وخير من يمثـــلها بارتو وكارلى «Pareto — Carli»

ولا بأس من أن نعرض نماذج لأفكار هذه المدرسة بصفة عامة .

من أول رواد هذه المدرسة العـــالم الامريكى « هنـــــرى كارى Henry Carey » ( ١٧٩٣ — ١٨٧٩ ) وهـــو من علمـــــاء الرعيـــل الأول فى علم الاجتماع الامريكى . ظهر اتجاهه الفيـــزيقى فى كتـــابه

« مبادىء العلم الاجتماعى Principles of Social Science »
وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب عام ١٨٥٨ قبل أن ينشر هربرت سبنسر كتبه ( المبادىء الأولى عام ١٨٦٢ ، ومبادىء البيولوجيا عام ١٨٦٤ ؛ ومبادىء علم الاجتماع ١٨٧٦ ؛ ومبادىء الاخلاق عام ١٨٧٩ ) وبالرغم من اتجاهه الفيزيقى فهو يعتبر من الدعائم الأولى للمدرسة الاجتماعية الوضيعة على غرار اوجيست كونت لاسيما فيما ذهب اليه من تفسير الظاهرات بعوامل اجتماعية واعتبار علم النفس قائما على أسس علم الاجتماع ؛ وظواهره انما تفسر فى ضوء الحقائق الاجتماعية وليس العكس (١) .

يقول « كارى » ان المجتمع انما يتألف من أفراد كما تتألف الاجسام من ذرات ؛ فالفرد هو ذرة المجتمع . والتعاون بين الأفراد شكل من أشكال قانون التجاذب العام بين الذرات . والفرد ينجذب بالضرورة نحو أشباهه تطبيقا لقانون الجذب العام الحاصل فى العالم المادى .

وتوزيع الافراد على المدن وزيادة سلطة الدولة أو ضعفها رهين بالقوى الجاذبة والقوى الطاردة على غرار ما يحدث فى الميكانيكا . ويفهم من هذا الكلام أن ( كارى ) يقرر مبلغ تأثر الافراد فى اتجاهاتهم بقوة المجموع وبالقوى الاجتماعية الكامنة فى الوجود الجمعى . والضغوط التى تمارسها هذه القوى على مظاهر سلوك الأفراد .

ويقول كارى فى الطبيعة ... « تزداد سرعة انتقال الحرارة بين جسمين كلما زاد الاختلاف فى حرارتهما » هذا القانون يطبق بوضوح فى الحياة الاجتماعية « فكلما زادت الفروق بين الأفراد والجماعات زادت معها درجات الرغبة فى التعاون والترابط والتجارة » ففى المجتمعات الزراعية البسيطة نجد الترابط ضعيفا ؛ ولكنه يشتد ويقوى حيثما يشتمل المجتمع على الفلاحين والعمال والتجار وأصحاب المهن الحرة والموظفين ويأخذ كل منهم نصيبه فى النشاط الاجتماعى . وهذه

---

(1) Sorokin ; Contemporary Sociological Theories p. 13.

هي المضامين التى ألمع اليها دور كايم فيما بعد بصدد كلامه عن قانون التضامن الاجتماعي وتقسيم العمل .

والتقدم في نظره « حركة » والحركة تحدث حرارة ؛ والحرارةتنتج من قوة الترابط والتجمع .

ويطبق كارى قانون « المـادة لا تفنى » فى المجـال الاجتمـاعى فالانتاج والاستهلاك في نظره مجرد تحويل أو تشكيل المادة من شكل لآخر . اذ يتحول الفحم المستخرج من باطن الأرض الى حرارة والى دخان ورماد . ويتحول القمح واللحم والفواكه والخضروات الى عضلات بشرية وأعصاب وهذا كله في نطاق عملية رتيبة واحدة وهى التغير الكيفى للمادة دون زيادة أو نقص كمى . وكلما تحولت المادة من شكل لآخر استخدمنا قوة أو كما تقول استهلكنا طاقة وفى هذا السبيل لابد أن ننشيء طاقة أخرى (١) والقيمة الاقتصادية في نظره مظهر من مظاهر الكون ( inertia ) والمنفعة الاقتصادية تشبه تماما « كمية التحرك » (M. Momemtum) والانتاج تغيير فى أشكال المادة ؛ والتجارة تغيير فى مكانها وعلى هذا النحو يسير العلامة « كارى » فى المماثلة بين الظاهرات الاجتماعية وظواهر الطبيعيات والميكانيكا محاولا تطبيق القوانين الطبيعية والميكانيكية على ظواهر الانسان والمجتمع وقد نقل العلامة ( سوروكن ) عن ( كارى ) بعض القوانين والقضايا التى تدل على هذه المماثلة وتقربها لذهن القاريء . وعرضها بطريقة علمية طريفة (٢) .

ومن أبرز مفكرى أوربا الذين تأثروا بهـذا الاتجـاه « فورونوف وهـاريت وبارسـيلو (٣) Voronoff ; Haret ; Barcelo » وهؤلاء جميعا متفقون فى أسس الدراسة ومنهج البحث : المجتمع مكون من أفراد ؛ والفرد هو العنصر الأول فى تركيب المجتمع ؛ وهو شبيه

---

(1, 2) Sorokin (Ibid) p. 14, 15.

(2) Vonoroff ; Foundations of Sociology (Russ. 1909).
Haret ; Mechanique Sociale (1910).
Barcelo ; Essais de méchanique sociale (Paris 1925).

بالنقطة التى لا تقبل التجزئة . والبيئة الاجتماعية هى بمثابة « حقل قوى أو ساحة قوى Champ de Force » وتخضع هذه البيئة لكل التصورات والقوانين الميكانيكية . وما يقال عن قوانين اجتماعية لا يتعدى أن يكون مظهرا من هذه القوانين الكلية .

ومن أمثلة القوانين الاجتماعية المستمدة من النظريات الميكانيكية التى وصل اليها ( هاريت وبارسيلو ) « ان زيادة الطاقة الحركية فى الفرد تعادل نقص الطاقة الكامنة» و «مجموع الطاقة عند فئة اجتماعية معينة وفى زمن معين يساوى مجموع طاقتها منذ بدايتها مضافا اليه مقدار العمل الذى قامت به هذه الفئة وكل المؤثرات والقوى الخارجية التى أثرت فى الأفراد أو عناصر الجماعة فى غضون المدة الفاصلة بين الزمنين » .

ومن أعلام هذه المدرسة المهندس البلجيكى ( سلفاى Solvay ) وهو الذى أنشأ معهد علم الاجتماع ببروكسل ، يقول : ان الظاهرة الاجتماعية ليست الا تفاعلا من ثلاثة عناصر : عضوى ونفسى ولاعضوى (Organic, psychic ; inorganic) **وأهمها جميعا** العنصر الأخير الذى يقوم فيها بوظيفة ودور رئيسى والحياة كلها ليست الا تحولا فى الطاقة . والحياة الاجتماعية ليست سوى منشطا من مناشط الطاقة . وعلم الاجتماع هو علم الطاقة الاجتماعية او طبيعة ( فيزياء ) اجتماعية . ووظيفة هذا العلم هو أن يرد مجموع الظواهر البيولوجية والاجتماعية الى المبادىء الجوهرية فى علمى الطبيعة والكيمياء .

والانسان والمجتمع كلاهما « جهاز طاقة » وتاريخ الانسان أو المجتمع هو تاريخ تحولات الطاقة . ويخضع هذا التاريخ للقوانين الميكانيكية للطاقة ولاسيما قانون « تحقيق أقصى قدر من الطاقة بأقل مجهود » ، وفى ضوء هذه الاعتبارات يفسر ظواهر الانتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك ، وكذلك الظواهر السياسية (١) .

---

(1) Solvay ; Formules d'introduction à l'énergetique physio et psycho-sociologique.
Solvay : Scientific Positive Politics of Energetics.

ونجد تحليلا طريفا لهذا الاتجاه عند المفكر الألمانى ( ولهلم ازوالد W. Ostwald ١٨٥٣ ـــ ١٩٣٢ ) . يقــول : أن مبــاحث الطــــاقة تقدم للعلوم الاجتماعية عدة مبادىء اساسية ولكنها لا تستطيع أن تقدم كل المبادىء والقوانين التى تحتاج اليها هذه العلوم . ويعرض العــلامة سوروكن لطائفة من هذه المبادىء (١) التى يمكن فى ضوئها تفســير ما يمكن تفسيره من ظواهر الاجتماع .

١ ـــ كل حادثة اجتماعية أو كل تغيير اجتماعى أو تاريخى ليس فى نهاية تحليله سوى تحويل طاقة .

٢ ـــ ليس خلق الحضارة من وجهة نظر مباحث الطاقة سوى تحويل الطاقة الخام الى طاقة نافعة . وكلما كان مقدار الطاقة النافعة الناتج من هذا التحويل كبيرا ، زاد تقدم الحضارة ويسوق سوروكن المثل الآتى : اذا كان القنديل البدائى يحول الطاقة الكيميائية الى طاقة ضوئية بنسبة ٣٪ ؛ والمصباح الأكمل أو الأكثر تقدما يســتطيع أن يعطى ١٥ ٪ أو أكثر ؛ فان استبدال هذا الأخير بالقنديل البدائى يعتبر نوعا من التقدم.

٣ ـــ الانسان جهاز تحويل لجميع أنواع الطاقة .

٤ ـــ ان ظاهرة « المطابقة للبيئة adaptation » ليست سوى مبلغ الاستفادة الممكنة من الطاقة الخام وتحويلها الى طاقة نافعة .

٥ ـــ المجتمع ؛ بوصفه مجموع الأفراد الذين يعملون معــا لتحقيق غايات مشتركة ؛ يعتبر نظاما يهدف الى أفضل وأحسن الاستفادة بصدد استغلال وتحويل الطاقة الخام الى طاقة نافعة وحيث تحل الفوضى ومظاهر الانحلال فى العلاقات المتبادلة بين الأفراد محل الترتيب والتنظيم تتشتت الطاقة وتضيع سدى ويستحيل على المجتمع استغلالها استغلالا كاملا ؛ وليس هناك مبرر لوجود المجتمع سوى تحقيق هذه الغــاية ؛ فاذا حال المجتمع دون ذلك ووقف عقبة كأداة أصبح وجوده عبثا .

---

(1) Sorokin ; Contemporary Sociological Theories p. 21. sqq.

٦ ــ تقوم اللغة والقانون والاقتصاد والتجارة والعقوبات وأجهزة الدولة والحكومة ومختلف الأجهزة الثقافية وما اليها بوظائف يمكن التعبير عنها بمفاهيم الطاقة . لأن غاية هذه النظم جميعا العمل على الاستفادة من الطاقة الخام وتقليل الضائع فى عمليات التحويل . ولم تحقق الحضارة فى مراحلها البدائية بلوغ هذه الغاية على نحو مرض ؛ لأن وسائلها كانت مرذولة وخشنة فقد كانت وسائل اقرار النظام الاجتماعى قائمة على العنف والقهر والارهاب . وهذه الوسائل لا تحقق تقدما وتنطوى على افناء نصيب كبير من الطاقة . وعندما تقدمت الحضارة ؛ أصبحت وسائل الضبط الاجتماعى أقل عنتا .

فان السبب الذى يسيغ قياة أية دولة ؛ ويجعل لها قيمة ويكسبها المشروعية هو العمل على تحويل الطاقة لمصلحة كل رعاياها على أحسن وجه وبأفضل الوسائل الممكنة . وبدون تحقيق هذه الغاية ليس ثمة مسوغ لقيامها .

وفى ضوء هذا التحليل تعتبر مظاهر الثروة والنفوذ تركيزا للطاقة النافعة ؛ وادخارها يحقق هذا الغرض . كما أن مشروعية الملكية الفردية مرتبطة بكونها وسيلة لاستغلال الطاقة الخام على أحسن وجه . فاذا لم تحقق هذا العرض لمصلحة المجتمع بطلت مشروعية وجودها .

ان العلم فى نظره هو أفضل الأشكال الجوهرية لاستغلال الطاقة والانتفاع بها . ولهذا السبب فهو ركيزة الحضارة « انه الدماء الزكية والجذور العميقة لكل ثقافة » والعظماء من العلماء والمخترعين انما يكرسون جهودهم لتحقيق هذه الغاية . وكذلك فان الفائدة العظمى للتربية والمدارس وكل المؤسسات التعليمية ومراكز البحث العلمى ، هى تجويد تحويل الطاقة الفكرية الخام وزيادة رأس مال العلم ؛ والعمل على سعة انتشاره . ولذلك من الضرورى أن ينعم هؤلاء بالحرية الفكرية وحرية البحث اذ بدونها لا يمكن تحقيق الغرض الفذ المشار اليه .

وفى ضوء القضايا التى أشرنا اليها يحلل المفكر «كارفر Carver »

الحضارة والعمليات والعلاقات الاجتماعية (١) وكذلك المفكر Winiarsky في تحليله للتجمعات البشرية والظواهر السيكلوجية والعلاقات الجنسية ( بين الذكر والانثى ) (٢) .

ومن علماء فرنسا المحدثين المتأثرين بهذا الاتجاه عالم الاجتماع المعروف « جورفتش » لاسيما في دراساته للاشكال الاجتماعية فقدأطلق على التجمعات الانسانية الصغيرة لفظ Microphysique Sociale تشبيها لها بالعناصر الطبيعية البسيطة والميكانيكية الأولى كالكهارب والبرتونات ، وأطلق على التجمعات الانسانية الكبيرة لفظ Macrophysique Sociale تشبيها بالعناصر والطاقات المعقدة .

ومن أبرز المتأثرين بهذه المدرسة « ريمون أرون Raymond Aron ولاسيما في دراساته عن ظواهر الحرب . فقد عقد مماثلة بين تعاقب الحروب وتسلسلها وبين التفاعلات المتسلسلة التي تحدث في عناصر المعادن وخاصة عنصر الاورانيوم وذلك في بحثه « Les guerres en Chaine »

وقد جاوز بعض الباحثين المحدثين طريقة التشبيه والمماثلة الى محاولة وضع علم اجتماع يرتكز على الطبيعة والميكانيكا . فقد ألمع الباحث « جون ستيوارت » في مقال له عن «أسس الطبيعة الاجتماعية» الى ماتمارسه هذه المباحث من آثار هامة في الحياة الاجتماعية وخاصة التحولات والتغيرات التي ترتبت على التقدم الصناعي والتغير التكنولوجي والمخترعات الحديثة . ولاشك أن زيادة المعرفة العلمية لطبيعة الكون لابد أن تؤثر بعمق في التصورات الانسانية والمفاهيم المتصلة بظواهر الانسان والمجتمع وكذلك في الفلسفة الشعبية لدرجة أن أصبحت الدراسات الانسانية والديموجرافية والسياسية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية مرتبطة أشد الارتباط بمفاهيم الطبيعة والميكانيكا

(1) Carver ; The Economy of Human Energy (1924).

(2) Winiarsky ; La Methode mathématique dans la Sociologie et dans L'Economie. (La Revue Socialiste 1894).

فعدد السكان يقابل عدد الذرات ، ودرجة النشاط الأجتماعى تقابل درجة الحرارة ، والرغبات والميول تقابل الشحنات الكهربائية ،والانتاج وعناصره يقابل الكتلة . وما الى ذلك .

وبعد هذا العرض والتحليل ، ماهو نصيب هذه الآراء من الصحة؟؟ حقا أن المجتمع فى نهايه تحليله يتركب من افراد والافراد مزودون بطاقات ويخضعون للزمان والمكان . وهذه الظواهر خاضعه بصفة أساسيه للقضايا والقوانين التى تدرس فى علوم الرياضه والطبيعة والكيمياء والميكانيكا . ولاشك ان معرفه هذه القوانين والقضايا هامه وضرورية . ولكن هل تستطيع مثل هذه المباحث ان تكشف وتبرز خصائص الحقائق الاجتماعيه وتفسرها تفسيرا علميا بدون تعسف .حقا ان المجتمع مملكة صغيرة داخل مملكه الطبيعة بالاجمال ويمثل كونا من الأكوان . وهذه الأكوان والممالك يتداخل بعضها فى بعض وقد تتحد مراكزها ، وقد تنفرد وتتباعد محيطاتها ونطاقاتها . فبجانب الطبيعة اللاعضوية وهى ميدان العلوم المشار اليها ، توجد طبيعة تشاركها فى بعض الخصائص وتنفرد عنها ببعض المميزات وهى الطبيعة العضوية وفوق هذه وتلك توجد الطبيعة فوق العضوية التى تشارك مع الطبيعتين المشار اليهما وتنفرد عنهما بما يميزها .

اننا لاننكر أهمية الدراسات الرياضية والميكانيكية ولا ننكر النتائج الهامة التى وصلت اليها ومبلغ انعكاس هذه النتائج فى حياة الانسان والمجتمع . فقد أصبحت هذه المباحث هى عماد الحضارة والمدنية الحديثة ، والتقدم الصناعى والتكنولوجى مدين لها . وبالتالى فاننا لا نستطيع أن نعزل التحولات والتغيرات الاجتماعية الجذرية التى صاحبت التقدم التكنولوجى عن التقدم العلمى فى مباحث الرياضيات والميكانيكا والطبيعة والكيمياء وغيرها من العلوم التجريبية . فأساليب الانتاج وسبل المواصلات ونظم الاسكان ومستويات المعيشة وأنماط الحياة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والأسرية ونظم الحكم والادارة واتجاهات الفن وأساليب الأدب والمصطلحات اللغوية وطرق التفكير

كل ذلك تأثر تأثيرا واضحا بتقدم العلوم المشار اليها . ولاشك أن المرحلة التى تصل اليها هذه العلوم فى تقدمها تؤثر تأثيرا بالغا فى مقـــومات الفلسفة المسيطرة على العقول ، والنظريات والاتجـاهات الفـــكرية السائدة ، والتطبيقات الاجتماعية المرتكزة على الكم النظرى .

ولكن مهما يكن من شأن وقدر هذه المباحث ، فانها لاتقوى على تفسير الحقائق الاجتماعية تفسيرا متكاملا يطمئن اليه . وعلى حد تعبير العلامة « سوروكن » اذا قلنا ان الانسان حيوان ذو عينين ، فان هذا التعريف ينطوى على نصيب من الصحة ، ولكنه لايعتبر تعريفا جامعا مانعا : اذ لا يفرق بين الانسان ، وبين غيره من الحيوانات التى لها عيون أيضا . وكذلك حين ندعى أن الظواهر الاجتماعية خاضعة للقضـــايا الميكانيكية والطبيعية تنطوى دعوانا على نصيب من الصحة دون أن يكون هذا التقرير معبرا عن الحقيقة فى كليتها وشمولها .

هذا الى أن أصحاب هذا الاتجاه وقعوا فى مغالطات لا تخفى ، فمثلا اذا كان من الممكن تفسير سرعة التجمع السكانى بقانون الجاذبية ، فان مثل هذا القانون لا يفسر لنا انحلال المدن ونهايتها . واذا كانوا يفسرون الجريمة بأنها طاقة ضائعة ، فليست كل طاقة مشتتة جريمة . واذا كانوا يعتبرون اللغة والقانون والثقافة والحكومة هو تحويل الطاقة الخـــام الى طاقة نافعة ؛ فهل هذا يعنى أن كل تحويل من هذا القبيل يتضمن ظواهر اللغة والقانون والحكومة وما اليها ؟ ويتساءل سوروكن أليس ثمة فرق بين تحويل الطاقة بصدد حرارة الشمس أو حركة الرياح ، وبين تلك بصدد الظواهر الثقافية والنظم الاجتمـــاعية ؟؟ وكذلك : انهم يعتبرون الثروة والنقود تكثيف للطاقة النافعة ، فهل يستتبع ذلك أن كل تكثيف للطاقة ( كما فى طاقة البراكين ) هو ثروة ونقود ؟ (١) .

وعلى هذا النحو فان قوانين الميكانيكا وما اليها من العلوم الطبيعية لايمكنها أن تفسر ببساطة حقائق الاجتماع وظواهره .بيد أن ما يقال

---

(1) Sorokin ; Contemporary Sociological Theories p. 33.

فى هذا الصدد هو أنه من الممكن الاستفادة من المباحث الميكانيكية والطبيعية فى تقريب الحقائق الاجتماعية الى الأذهان ، والانتفاع بمناهج هذه العلوم فى طرق التفكير الاجتماعى وتهذيب القوانين الاجتماعية .

## خامسا ـ مدرسة الاجتماع البيولوجى

ذهب بعض الباحثين الى أنهم يستطيعون فهم الظواهر الاجتماعية وتحليلها بوصفها ظواهر منبثقة عن كائنات حية . ومن ثم فهى فصيلة من ظواهر البيولوجيا . لاسيما وأن علم الحياة وان اعتمد على مباحث الميكانيكا والطبيعة والكيمياء واستفاد منها فموضوعه أشد تعقيدا وقضاياه أكثر تركيبا ومباحثة أقوى لحمة بالظواهر الانسانية . ومن ثم اجتذب علم البيولوجيا طائفة من المفكرين للاستفادة من نظرياته عند دراسة المجتمعات الانسانية وتفهم ظواهرها . ويشكل هؤلاء بمختلف اتجاهاتهم الخاصة مايمكن أن نسميه بمدرسة الاجتماع البيولوجى أو المدرسة العضوية الاجتماعية . وهذه المدرسة فى مجموعها تفسر المجتمع وطبيعته بالرجوع الى القضايا والقوانين البيولوجية ومبادىء علم الحياة . فالمجتمع كائن عضوى أو مركب عضوى « Organism » يشبه جسم الكائن الحى ويمثل مظهرا من مظاهر الحياة العامة ويسير وفق القوانين التى تسير عليها ظواهر الحياة . ويعقد أنصار هذه المدرسة مماثلة بين المجتمع وبين الجسم الحى من ناحية التركيب الداخلى . فكما أن الكائن الحى يتكون من أعضاء ولكل عضو وظيفة ، فكذلك المجتمع يتكون من عناصر ( طبقات ) وأفراد ولكل عنصر وظيفة يؤديها . والفرد فى المجتمع يشبه الخلية فى الجسم الحى ، والطبقات الاجتماعية تشبه الأعضاء ، والوظائف الاجتماعية تشبه الوظائف الحيوية . بمعنى أن وظيفة الحكومة تشبه وظيفة المخ والرأس ، ووظيفة الجهاز الاقتصادى تشبه وظيفة الدورة الدموية ، والثروة هى القلب الذى يوزع الحياة ويدفع الدم فى الشرايين ، والطبقات العاملة والأجيرة

تقوم بالأعمال التى تقوم بها الأحشاء الداخلية والجهاز الاخـراجى ويرى أصحاب هذه النظرية كذلك أن المجتمعات تخضع للقوانين نفسها التى تخضع لها الأجسام الحية مثل قوانين النمو والوراثة وتنازع البقاء والبقاء للأصـلح .

فكأن هذه النظرية فى مجموعها ترتكز على الدعائم الآتية :

١ ـ المجتمع كائن حى عضوى بالمعنى البيولوجى .

٢ ـ لما كان المجتمع على هذا النحو ، فان بناءه وتركيبه ووظائفه الأساسية تشبه بناء وتركيب ووظائف الكائن الحى .

٣ ـ ويترتب على ذلك أن المجتمع يخضع للقوانين البيولوجية التى تخضع لها ظواهر الحيـاة والـكائنات الحيـة ؛ فى نشأتها وتطورها وعلاقاتها وتأديتها لوظائفها .

٤ ـ ومن ثم ، فان علم الاجتماع اذا جاز قيامه ، فانه لا يعتبـر علما مستقلا فى ذاته وانما شعبة من علم الحياة العام .

وبالرغم من أن هذه المدرسة نمت وتطورت فى ظل تطـور الفكر الاجتماعى الحديث ، غير أنها ظهرت فى صور متعددة عند مفـكرين كثيرين باعد بينهم الزمن . فنجد تشبيهات كثيرة ومماثلات بين المجتمع والكائن الحى فى فلسفة أفلاطون وأرسطو والمفكر الرومانى « اجريبا Agrippa » ونجد لمحات لهذا التمثيل عند مفكرى العرب ، فقد ورد فى الحديث الشريف « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثـل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » وكان الفارابى من أنصار هذا الاتجاه لا سيما فى نظريته عن رئيس المدينة ومنزلة هذا الرئيس فيها كمنزلة القلب من سائر أعضاء جسم الانسان . وكان ابن خلدون بالرغم من وضعيته العلمية ، أكثر تورطا فى تشبيهات حيوية . ولذلك أطلق عليه بعض المؤرخين « Vitalist » فقد ذكر أن

المجتمع يولد كما يولد الفرد ويمر كما يمر الكائن الحى بأدوار الطفولة والشباب والكهولة ، والمجتمع جسم مركب والنظم والمؤسسات الموجودة فيه هى بمثابة أعضاء هذا الجسم . ومنها قوله : العاصمة هى قلب الدولة ومنها تتوزع الحياة على باقى الأقاليم ومثلها كمثل القلب الذى يدفع الدم الى جميع أجزاء الجسم . ومنها نظريته فى تحديد أعمار الدولة ومقارنتها بأعمار الأفراد وغيرذلك من التشبيهات التى ساقها ابن خلدون فى ثنايا دراساته الاجتماعية .

وفى العصر الحديث قويت هذه المدرسة ولا سيما منذ أن نشر داروين فلسفته ولذلك فان معظم أنصار هذه المدرسة هم تلاميذداروين واتباع فلسفته والمعجبون بنظرياته وتحليلاته : نجد فى روسيا باكونين وكروبتكين ونوفيكوف ، وفى ألمانيا شافل وليلنفلد ، وفى فرنسا سبينياس وورمس ، وفى انجلترا هربرت سبنسر ومدرسته .

ويهمنا فى هذه الفقرة أن نشير الى أن هذا المذهب الحيوى اقتحم فرنسا معقل علم الاجتماع الوضعى وسيطر على طائفة غير يسيرة من المفكرين المشتغلين بالدراسات الاجتماعية . وأهم من حمل لواءه ( كما سبق الاشارة ) عالمان هما « الفرد سبيناس A. Espinas ١٨٤٤ — ١٩٢٢» و « رينيه ورمس R. Wornis ١٨٦٧ — ١٩٢٦ »

آمن ( سبيناس ) بصحة القضايا التى أشرنا اليها جملة وتفصيلا ودافع عنها واعتبر نفسه ممثلا للنظرية الحيوية فى فرنسا . ودرس فى كتابه « المجتمعات الحيوانية » (١) الكائن الحى واعتبره فى ذاته مجتمعا باعتبار أنه مكون من مجموعة من الخلايا والنسج والأعضاء . وفى ضوء الاعتبار ذاته نسمى المجتمع مركبا حيويا . وحلل الأشكال المختلفة للتجمعات التى يصادفها الانسان فى عالم الحياة مبتدئا من الطفيليات حتى التجمعات الانسانية الراقية .

---

(1) A. Espinas ; Les Sociétés Animales.

ومن الطبيعى أن يصل فى مطاف هذا التـــدرج الى التمييز بين التجمعات التى لاترتبط فيها الظواهر الصادرة عنها بشعور أفرادها ، وبين التجمعات التى تصدر ظواهرها عن شعور أفرادها وبصفة نهائية . وقرر أنه فى مثل هده التجمعات يوجد ارتباط غائى بين الأفراد والظواهر الصادرة عنهم . وأكثر من ذلك توجد فى هـــذه التجمعـــات ذاتية بين شخصية التجمع وبين الظواهر الصـــادرة عن أفراده « Identité des representations » وهذا التقرير من جانبه يكفى لتأييد وجود مانسميه بالشعور المشترك أو الشعور الجمعى ( عقل الجماعة ) وبذلك يـــكون ( سبيناس ) قد انتهى عن طريق تحليله هو ، الى تقرير ذاتيه الحيـــاة الاجتماعية من حيث أنكر قبلا هذه الذاتية واعتبرها مجـــرد مظهر من مظاهر حياة المركب العضوى .

ولذلك نراه فى كتابه الثانى « كائن أو لا كائن » (١) يقرر بوضوح أن علم الاجتماع لابد أن يقوم على مبدأ جوهرى ينبغى التســليم به وهو أن المجتمعات البشرية عبارة عن حقائق طبيعية كائنة بالفعل ويخضع لقوانين خاصة كغيرها من موضوعات الطبيعة الأخرى . وهذا الاتجاه يدل على تطور مذهبه . اذ يبدو أن تعمقـــه فى تحليـــل الحقـــائق الاجتماعية اضطره الى أن يتخلى عن تعصبه للمذهب الحيوى ، وقـــد وضح هذا التطور بصورة لايرقى اليها الشك فى كتابه الثالث «أصول التكنولوجيا » (٢) فقد درس بعض مظاهر الحياة الاجتماعية وبرهن على أهميـــة العادات والعرف والتقاليد واعتبرها من أهم مقومات التراث الاجتماعى وهى التى يتم بفضلها نقل أفكارنا وأفعالنا وتراثنا فى قوالب محددة عبر الأجيال . فهى فى نظره وسائل المواصلات الاجتمـــاعية . وانتهى فى هذا الكتاب وهو بصدد تحليل طبيعة الحياة الاجتماعية . . الى تقرير نوعية ظواهر الاجتماع ، وأن هذا الاجتماع يرتكز فى نهاية تحليله الى أساس عقلى ، فهو عقل حى كبير . ومن العجيب أن ينتهى

---

(1) A. Espinas ; Etre ou n'est pas être.

(3) A. Espinas ; Origines de la Technologie.

( سبيناس ) الى هذه النتائج التى تقترب الى حـــد كبير من فلسفة أوجيست كونت ودوركايم . وفى ضوء هذه الاعتبارات نستطيع أن نقرر أن ( سبيناس ) بدأ بيولوجيا وانتهى الى مايقربه من أنصارالمدرسة الاجتماعية .

وهذا التطور الذى لاحظناه على أفكار (سبيناس ) نلاحظه بصورة واضحة عند دراسة نظريات العلامة ( رنيه ورمس ) فقد أيد بحـرارة النظرية العضوية فى كتابه « المركب العضوى والمجتمع » [1] حيثقرر أن حالة الاجتماع ليست سوى مظهـــرا من مظـــاهر الحياة العامة « Le Social est un aspect de vivant »

غير أنه فى كتابيه «فلسفة العلوم الاجتماعية [2] وعلم الاجتماع» [3] قرر أن الروابط العضوية فى المجتمــع ، وهى الروابط التى تنشأ بين الأفراد فى حالة الاجتماع تمتاز بعناصر جديدة من طبيعة نفسية لدرجة تجعلنا نؤمن بأن علم الاجتماع لايمكن أن يكون امتدادا بسيطا لعلم الحياة أو فرعا من هذا العلم ، بل ينبغى التسليم بأنه من الممكن أنتكون له شخصية مميزة فى ذاتها تجعل منه علما مستقلا عن علم الحياة .

وبجانب ( اسبيناس وورمس ) نخص بالذكر بحوث المفكر ( سدوا كجلون « Suedois R. Kjellon » الذى تأثر بهذا الاتجاه البيولوجى فى بحوثه السياسية . ففى كتابه « الدولة بوصفها شكلا حيا [4] درس الدولة كما يدرس الفرد فى أعضائه ووظائفه واعتبرها فردا كبيرا .وهى فى نظره قوة ذاتية تحيى لنفسها وتسعى لأغراض مستقلة عن أغراض أفرادها . ويعيد هذا الكتاب للاذهان الأفكار التى أثارها الفيلسوف الانجليزى « هوبز » فى كتابه « Leviathan »الذىكان يرمىمن ورائه الى تألية الدولة وتأييد الاستبداد . وتعتبر بحوث « كجلون » دراسات ممهدة فى الجغرافية السياسية « Geopolitique » وفى دراسة نظريات القوة والقومية التى ظهرت بوضوح فى الفلسفة الألمانية .

---

(1) R. Worms ; Organisme et Société.
(2) R. Worms ; Philosophie des Sciences Sociales.
(3) R. Worms ; Sociologie.
(4) S. Kjellon ; L'Etat Comme forme vitale.

هذا ملخص لأبرز آراء الشعبة الفرنسيــة من أنصـــار المدرسة البيولوجية . ولنا عود لمناقشة هذه المدرسة ونقدها عنـد الكلام عن « هربرت سبنسر » حيث يعتبر رائدها الأول .

***

## سادسا ـ مدرسة علم الاجتماع الحيوانى

تفرعت عن المدرسة البيولوجية مدرسة تابعة هى مدرســة علم الاجتماع الحيوانى « Zoosociologie » وهى تنظر الى المجتمـع البشرى نظرتها الى المجتمع الحيوانى . فما دام المجتمع هو جسم حى كبير ويخضع لقوانين الحياة العامة ، فان هذا الوصف ينطبق على عالم الحيوان مثلما ينطبق على مجتمعات البشر .

وأخذت هذه المدرسة تدرس المشابهات والمقارنات بين المجتمعين وتحاول التقـريب بين الدعائم التى يقـــومان عليها والوظائف التى يؤديانها والترابطات المتبادلة بينهما .

وقد وضح هذا الاتجاه فى كتاب العـــلامة «ادمــوند بريبه » Edmond Perrier المستعمرات الحيوانية Les colonies animales وفى كتاب العلامة « جيرود Girod » المجتمعات الحيوانية Les Sociétés animales

وقد تعرضت هذه المدرسة لهجوم شديد من جانب علماء الاجتماع والدراسات الانسانية لأن التجمعات الحيوانية انما تقوم على مجـرد الارتباط الفزيولوجى والدوافع الغريزية والفطرية الأولى والالتصاق المادى وتنعدم فيها المشـاعر والأحاسيس الراقية والتقدير الغائى ولا يحكم أفعالها وتصرفاتها فكر أو منطق وهذه الأمور من أخص خصائص مجتمعات البشر .

ويبدو أن بعض النزعات الفطرية التى تأصلت فى مجتمعى الحيوان والانسان هى التى أغرت بعض الباحثين ودفعتهم الى تحليل الكثير من

ظواهر الاجتماع البشرى فى ضوء النزعات والفطر الملحوظة فى عـالم الحيوان ومملكة الحشرات الراقية . وأهم هذه النزعات مايأتى :

١ ــ نزعة التجمع أو التكتل أو الحياة فى جماعة . وهذه النزعة ملحوظة عند فصائل حيوانية كثيرة وفى ممالك النمل والنحل .وتشتد هذه النزعة فى فصول خاصة من السنة أو فى مناسبات معينة ولا سيما فى دورات التجاذب الزواجى والهجرة الجماعية من مكان لآخر . وقد نجم عن هذه النزعة واتصلت بها نزعات أخرى تمارس اراديا . ومن ذلك نزعة توزيع العمل بين أفراد المجتمع الحيوانى ، وتقسيمه الى طوائف تقوم كل طائفة فيها بعمل خاص تتوقف عليه حياة الجماعة أو بقاء نوعها أو استقرار نظامها كما هو الشأن فى حياة طوائف النحل والنمل وما اليهما . ومن ذلك ايضا النزعة الى قيام سلطة مركزية ( نظام حكومى ) والخضوع لرائد أو رئيس كما نجد ذلك فى قطعـان الظبى والأوعال والدجاج . ومن ذلك أيضا الاصلاح فطريا على أداة للتفـاهم بها بين أفراد المجتمع الحيوانى . فقد ثبت أن كثيرا من الفصائل تســتخدم بعض اشارات جسمية للتعبير بها عن بعض شئونها كما هو ملحوظ فى الأوامر التى يصدرها قائد القطيع وعند الفصائل العليا من القردة .

٢ ــ نزعة الاسترقاق أو الاستعباد أو تسخير الغير . فبعض فصائل النمل تسترق فصائل أخرى وتعتمد عليها فى معاشها بحيث اذا انقرضت طبقة الشغالة ( المسترقة ) لم تستطع طبقة الاسياد أن تطعم نفسها وتهلك جــوعا .

٣ ــ نزعة الخضوع للغير . وقد رسخت جذور هذه النزعة عنـد معظم الحيوانات التى استأنسها الانسان وسخرها فى قضاء حاجاته .

٤ ــ نزعة ايواء الغير واستضافته . وشبيه بها نزعة التطفل والاعتماد على الغير . فكثير من الطيور تضع بيضها فى أعشاش غيرها وتتحـرر من عبء حضانته وتربية صغارها . وهذه النزعة مرتبطة بظواهر حيوية

أخرى . فقد ثبت أن مثل هذه الفصائل تهاجر بعد وضع بيضها . فلو مكثت لاحتضان البيض لعاقها ذلك عن الهجرة . وترتبط هذه النزعة كذلك بظاهرة التدافع الملحوظة عند بعض فصائل الحشرات والطيور .

٥ ــ توجد نزعات فطرية راقية عند بعض الفصائل مثل التعايش والتكافل والتنادم ( التآخى ) المساكنة وتكوين الحشود وما الى ذلك من الظواهر المألوفة فى عالم الانسان .

٦ ــ النزعة الجنسية وهى تتمثل فى ميل فطرى الى التزاوج فى فصول معينة من السنة أوتحت تأثير حالات جسمية وفسيولوجية كامنة فى طبيعة تكوين الكائن الحى . وتتلخص النزعة الجنسية فى عمليتى التلقيح والاخصاب . وما يتصل بهما من أمور تكفل تناسل النوع وتحفظ بقاءه . وتختلف الوسائل الفطرية التى تلجأ اليها فصائل الحيوانات فى هذا السبيل اختلافا كبيرا ولكنها ترجع جميعا الى طريقتين :

الأولى : هى التلقيح داخل الجسم كما هو الشأن عند الانسان والفصائل الحيوانية العليا ، والثانية : وهى طريقة التلقيح خارج الجسم وهى ملحوظة عند معظم الحيوانات المائية ( حيث تلقى الانثى ببيضها ويلقى الذكر بسائله المنوى ويتولى تيار الماء عملية الايصال الجنسى )

٧ ــ نزعة تعهد البيض وحضانته . وتبدو هذه النزعة قوية عند الاناث . فهى التى تقوم بأعباء هذه الحضانة . وقد لوحظ فى بعض الفصائل أن الذكور قد تقوم بهذه الظاهرة ( كما هو عند النعام ) وعند فصائل أخرى يتقاسم الذكور والأناث هذه العملية . وترتبط بهذه النزعة ، تربية الصغار وتعهدها وتنشئتها والقيام على شئونها حتى يصلب عودها وتستطيع الاعتماد على نفسها . ويقوم الأب والأم بأعباء هذه الوظائف . وقد لوحظ فى بعض الفصائل ( من الحشرات والطيور ) أن العقيمات يقمن بذلك بينما ينصرف المنتجون الى التزاوج من جديد .

٨ ـ وترتبط بالنزعات الجنسية وحضانة الصغار ؛ نزعات أخرى كالغزل والاغواء والاعزاء والحب وما الى ذلك من النزعات الجديرة بالدراسة والتى تصلح لتكون مادة لمباحث فى « علم النفس الحيوانى » .

٩ ـ نزعة الادخار والتوفير اما لظروف طبيعية أو اقتصادية فقد لوحظ فى معظم فصائل الحشرات التى تبنى خلايا منظمة انها تحتجز فيها خلية تملؤها بالمواد الغذائية وما تحتاج اليه وتسد عليها ولاتثقبها الا فى أقسى ظروفها الطبيعية أو المعيشية . وهذا يدل على أن مثل هذه الفصائل مزودة ( شأن الانسان ) بنزعات تنظيمية واقتصادية وأن تصرفاتها تنطوى على التدبير والتخطيط والتطلع .

هذه هى أهم الظواهر الاجتماعية الفطرية التى تلاحظها فى عالم الحيوان والطيور والحشرات والتى أغرت بعض علماء البيولوجيا ( وخاصة علماء علم الحيوان والنبات ) فتقدوا مقارنات ومشابهات كثيرة ولجأوا فى تعسف الى التقريب بين الفطر الحيوانية والظواهر البشرية ؛ وقاموا بتحليل كثير من ظواهر الاجتماع محاولين الرجوع بها الى أصولها الفطرية والغريزية فى عالم الحيوان . ولكن شتان بين العالمين . فقد انفرد الانسان بالعقل والارادة الواعية ، واختص بالتفكير والروية والتدبير والمشاعر وما ينسب الى الانسان من فطرة ووراثة حيوانية فقد قطع شوطا بعيد المدى فى التطور والتهذيب والاعلاء فضلا عن أن نطاق هذا القدر قد ضاق وضؤل . فلا سبيل الى تجاهل الفروق الجوهرية والكيفية بين عالم الانسان وعالم الحيوان ولا نستطيع أن تتخطى بسهولة السببية والغائية والحرية والارادية حتى نقرب بكل بساطة بين العالمين .

حقا ان دراسة الاجتماع الحيوانى تقدم لنا معلومات وحقائق تفيدنا فى دراسة الاجتماع الانسانى ؛ ولكن ينبغى التسليم قبلا

بأنهما من طبيعتين مختلفتين جوهريا ولكل طبيعة منهما خصائصها ومقوماتها (١) .

## سابعا ـ مدارس اجتماعية تطبيقية

أدركت طائفة كبيرة من علماء الاجتماع فى فرنسا ضرورةالانتفاع بحقائق علم الاجتماع فى اصلاح شئون المجتمع ومحاولة الارتقاء بنظمه ومستوياته وقد أدى ذلك الى قيام مدارس تطبيقية كثيرة أهمها :

مدرسة العلامة لبلاى Le Play

يعتبر « لا بلاى » من المفكرين الأوائل الذين أدركوا قيمةالبحث الاجتماعى العلمى ومبلغ الاستفادة من نتائجه فى ميدان الاصلاح الاجتماعى . فلم يشأ أن يدخل فى الخصومات أو المساجلات المتعلقة بالدراسات النظرية والمقومات الفلسفية لعلم الاجتماع . ولكنه آثر أن يتجه الى العمل المباشر فى الميدان الاجتماعى ليدرس ويبحث ويكشف عن علل المجتمع ويصف ما يراه محققا للقضاء عليها . لا سيما وأنحالة المجتمع الفرنسى فى زمانه ما كانت لتحتمل التأخير والتسويف ؛ وما كانت لتحتمل الاغراق فى المناقشات الفلسفية . فما أن أعلن العلماء وخاصة أوجست كونت عن ضرورة دراسة حقائق الاجتماع دراسة علمية كمقدمة طبيعية لأية حركة اصلاحية ؛ حتى آثر أن يخدم الناحية التطبيقية مستعينا فى ذلك بالحقائق التى يصل اليها العلماء النظريون. ولذلك فان مدرسته تمثل اتجاها مغايرا للاتجاهات المعروفة فى زمانه فهى مدرسة علمية تطبيقية ترتكز على البحوث والتجارب والتحقيقات

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع : النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان للاستاذ الدكتور على عبد الواحد .

الحياة الاجتماعية عند الحيوان للاستاذ الدكتور عز الدين فراج .

Buehner : La Vie Psychique des Bêtes.
Espinas ; Des Sociétés Animales.

الاجتماعية أكثر من قيامها على الآراء والأفكار النظرية . وتعتبر هذه المدرسة أول مدرسة وضعت فى فرنسا دعائم الاجتماع التطبيقى والتجريبى .

نشر « لابلاى » عام ١٨٥٥ كتابا سماه « العمال فى أوربا » درس فيه أحوال معيشتهم ومستويات دخولهم الفردية ومظاهر البؤس والفاقة التى تهددهم . وقام فى هذا الصدد بتحقيقات مبنية على الطريقة الاحصائية العلمية . فبحث ٣٦ حالة تمثل مختلف طوائف العمال فى القارة الأوربية وتناول فى بحثه موضوعات كثيرة أهمها : تاريخ الأسرة ؛ العادات والتقاليد والدين ؛ العمل الذى تزاوله ؛ الدخل ومظاهره ( ملكية ، أجور ، مرتبات ، مساعدات ) ؛ نظام السكن وأثاث المنزل ؛ مستويات المعيشة ؛ الناحية الترفيهية ، الديون . وجاءت هذه التحقيقات صورة واضحة عن ميزانية الأسرة العمالية فى أوربا وقد قسم هذه الميزانية الى بابين : باب الايرادات ويشمل ريع الأملاك ودخل رأس المال والأجور والمساعدات الأهلية والحكومية . وباب المصروفات ويشمل الغذاء والمسكن والملبس والشئون الصحية والترفيهية ثم بند الضرائب والتأمينات والديون .

ونجح « لبلاى » فى تصوير بعض جوانب الموضوع الذى درسه . وانتهى من تحقيقاته الاجتماعية الى تقرير الوسائل التى ينبغى الالتجاء اليها لتحسين حالة العمال واقترح فى هذا الصدد بعض المشروعات التى تتسم بالصفة الاشتراكية مثل تنظيم الاتحادات والنقابات وجمعيات المنتجين والمستهلكين والجمعيات والمصارف التعاونية والعمل على تقوية روح التضامن بين مختلف طوائف العمال وتعزيز الوسائل التى بفضلها يتم القضاء على البطالة .

وقد توسع « لبلاى » فى دراسة هذه المشروعات الاصلاحية فى كتاب آخر نشره فى عام ١٨٨٧ فى ثلاثة أجزاء عنوانه « الاصلاح الاجتماعى فى فرنسا « La Réforme Sociale en France » » وفى هذا الكتاب اتجه لابلاى الى تأييد المذهب الفردى ولم يسرف فى الاتجاه

نحو المعسكر الاشتراكى . وضغط فى دراساته على نظام الأسرة واعتبرها الوحدة الاجتماعية الجديرة بالدراسة والبحث . وقسم نظم الأسرة الى ثلاثة أقسام :

١ ــ العائلة الكبيرة (Patriarcale) وهى التى تتكون من الأب والأم والأولاد المباشرين وذريتهم . وتنحصر السلطة فى رئيس الأسرة وحده وتؤول من بعد وفاته الى أكبر أولاده . وينتشر هذا النظام الأسرى فى بلاد الشرق وفى الشعوب السلافية الضاربة فى أواسط أوربا وروسيا .

٢ ــ العائلة الثابتة المستقرة (Souche) وهى الأسرة الزوجية ضيقة النطاق التى تختار أحد أولادها ليكون رئيسا لها بعد وفاة الأب. وهذا النظام كثير الانتشار فى انجلترا وفرنسا .

٣ ــ العائلة غير المستقرة ( غير الثابتة Instable ) وهى الأسرة التى يهجرها أولادها متى أمكنهم كسب معاشهم ، ويغلب وجود هذا النظام فى المجتمعات الصناعية وبين الشعوب الراغبة فى الهجرة الخارجية .

وفضل « لابلاى » النظام الثانى : الأسرة المستقرة الثابتة ؛ لأنه يضمن تحقيق سعادة الأفراد ويساعد على النظام والاستقرار ويساعد كذلك على تقوية السلطة المركزية . ومما دعاه الى تفضيل هذا النظام أنه كان شديد الرغبة فى أن يسترد الآباء ما كان لهم قديما من مظاهر الاحترام والنفوذ والسلطة على جميع أفراد العائلة . وقد فقد الآباء هذه الامتيازات الخاصة بعد الثورة الفرنسية ، وأجهزت عليها التيارات الفردية والاتجاهات الانتهازية والنزعات الشكية والأفكار التقديرية . مما كان له أسوأ الأثر فى تفكك الروابط العائلية وتحللها . ويرى « لابلاى » أنه لا يمكن لآباء الأسر استرداد ما فقدوه من امتيازات الا اذا تغيرت القوانين القائمة المنظمة للوراثة فى الأسرة . لأن الذى يحدث الآن بعد وفاة عميد الأسرة ، هو حصول كل فرد فيها على نصيبه فى الميراث ومحاولة الاستقلال بشئونه . فيهجر الواحد منهم بعد

الآخر منزل العائلة تاركين وراءهم الأرامل واليتـامى وذوى الأرحام بدون عناية تستحق الذكر . وعن هـذا الطـريق تتحـلل الروابط والعلاقات الأسرية وتتفكك عرى الاتحاد بين عناصرها ويضعف التضامن وتجف المشاركات الوجدانية والعواطف المتبـادلة بينهم اذ ينـدر أن يجتمعوا أو يتلاقوا الا فى أدق المناسبات . ويرى « لبـلاى » علاجا لهذه لظاهرة الخطيرة أن يسترد آباء الأسرة ما كان لهم قديما من حق حرية التصرف المطلق فى الثروات الخاصة . فيصبح من حقه تقسـيمها بالطـريقة التى يراها مناسـبة لتوثيق الروابط التى تجمع بين أفراد العائلة . وبذلك يضمن بقاء جميع الفروع فى حظيرة الأسرة . وضغط « لابلاى » فى نتائجه على وظيفة الأسرة التربوية فهى من أدق الأمور التى تؤدى الى تدعيم الهيئة الاجتماعية وارسـاء النظـام فى الأسرة والدولة على أسس قويمة . وكان يردد دائما قوله : ان كل جيل شبيه بجيش من صغار البرابرة . فاذا أهمل الآباء تربية ابنـائهم وفلت من أيديهم قيادة زمامهم انحط المجتمع وتخلف عن ركب التقدم والتحضر» وألمع « لبلاى » الى ضرورة تدخل الحكومة ودعا الى الثقة بها وتعزيز احترامها والخضوع لأوامرها لأنها مركز الضبط الاجتماعى وبفضـلها تصل الخدمات الاجتماعية العامة لأكبر عدد ممـكن من الشـعب . غير أنه كان حذرا فى الدعوة الى تدخلها . وهذا الحذر نتيجة طبيعية لاتجاهاته الاشتراكية التى وضحت فى مؤلفاته الأولى .

ويمكننا أن نقـول ان بحـوث « لبـلاى » تدور حول فكرتين أساسيتين ركز فيهما مجهوداته وهما :

١ ـ ضرورة البدء باصلاح نظم الأسرة لأنها المجتمع الصـغير والوحدة الاجتماعية التى لا يمكن أن تتجزأ وهى التى تعـكس لنـا مستويات الدولة : المستويات المعيشية ، والمعايير الأخلاقيـة ومبـلغ التضامن والوحدة القومية . ووضع « لبلاى » بصـدد دراسة نظم الأسرة طرقا علمية وعملية تؤدى الى كشف النقاب عن المشـاكل التى تعانيها . واستطاع فى ضوء مناهجه الوصول الى قضـايا عامة أفادت

ميدان البحث الاجتماعي ونبهت المسئولين الى ما ينبغي عمله في الوقت المناسب . وقد ارتفع « لبلاى » بفضل ذلك الى « رائد حركة الاصلاح في فرنسا » وصاحب مدرسة جديدة لها اتجاه خاص في ميدان الدراسات الاجتماعية .

٢ ـ ضرورة تدخل الحكومة للقيام بالاصلاحات الاجتماعية والاشراف على توجيهها سواء في الأسرة أو في المصنع . وكان يرى أن النهوض بالأسرة يساعد الحكومة على أداء مهمتها لأن تقوية روح التضامن وايقاظ الشعور الجمعي وتعزيز المشاركات الوجدانية يزيد من احترام الأفراد للحكومة ويقوى ثقتهم فيها .

وبالرغم من الجدة والطرافة التى تمتاز بها بحوث لابلاى ، غير أنها لا تخلو من ضعف وقصور نظرا لأنه لم يتحر الدقة في العينات التى اتخذها أساسا لدراساته . وظن أنها ممثلة لحالة العمال وانتهى منها الى أحكام عامة . وغني عن البيان أن هذه الأحكام مصابة بالطفرةالى التعميم ولا يمكن تطبيقها الا على الحالات التى استنبطت منها . ثم ان اقتصاره على دراسة بعض طوائف العمال ضيق من نطاق استقراءاته لأن طبقة العمال ليست الا طبقة واحدة من طبقات المجتمع . فبحوثه على هذا النحو لا تخدم الا مصلحة طبقية .

هذا ، وقد صادفت منهج لبلاى وطرق بحثه تقديرا واسع النطاق من جانب الهيئات العلمية المشتغلة بالشئون الاجتماعية في داخل فرنسا وخارجها وتأثرت بها مدارس كثيرة في مختلف البلاد سنشير اليها في موضعها . وكان لهذه المدرسة دعائم الفضل في تنبيه الأذهان الى أهمية دراسة الاجتماع التطبيقي وضرورة ابتكار مناهج بحث تتفق والمطالب العملية في الميدان الاجتماعي .

أتباع لابلاى : ويجدر بنا أن نشير الى أن أتباع « لابلاى » انقسموا بعد وفاته الى فريقين . أطلق الفريق الأول على نفسه « أصحاب مذهب الاصلاح الاجتماعي » وكان من أكبر أنصاره

« كيوديو جانيه Ciaud.o Jannet » و « دى رب De Ribbe) » ولم يخرج هذا الفريق عن تعاليم أستاذه . وأما الفريق الثـــانى فأطلق على نفسه « مدرسة العلم الاجتمــاعى » وكان على رأســه « دى مولان De Moulins » و « دى تروفيل De Trouville) » ويختلف هذا الفريق عن السابق فى أنه لم يقبل الاسراف فى الاتجاه العملى وخدمة المطالب التطبيقيـــة . وعاب على أســتاذه « لابلاى » عدم التعمق فى الدراسة النظريةوالوصول الىعلم اجتماعوضعى « Science Positive » على غرار أوجست كونت . وعابوا عليـــه آراءه فى « اعادة الوحدة الأسرية القديمة » لأن تحلل هذه الروابط القبلية انما هو نتيجةطبيعية لروح الحضارة المعاصرة التى تتطـــلب الجهـــاد ومصـــارعة الظروف الاجتماعية حبا فى الحياة.فكأن هذا الفريق أيد المذهب الفردى ونظرية تنازع البقاء « Lutte pour la vie » وانحـــرف انحرافا ظاهرا عن تعاليم الأستاذ .

***

## سابعا ــ مدرسة الاجتماع الوصفى

تعنى هذه المدرسة بجمع الحقائق الاجتماعية المادية للاستفادة منها فى استخلاص قوانين عامة للنظم والظواهر الاجتمــاعية . وتكاد هذه المدرسة تشبه المدرسة الانتروبولوجية فى المنهج العام . ولكنها تختلف عنها فى طرق البحث الخاصة ؛ وفى الغايات التى ترمى اليها . فان كلا المدرستين يلجأ الى جمع الحقـــائق والبيـــانات الاجتمـــاعية . غير أن دراسات المدرسة الانتروبولوجية مقصورة على الشعوب المتأخرةالممثلة للحالة البدائية منذ فجر الانسانية وغرضـــها كشـــف أصـــول النظم الاجتماعية ورفع النقاب عن الطرق التى سلكتها فى تطورها . أما هذه المدرسة فانها تدرس المجتمعات المعـــاصرة وتصف ظواهرها ونظمـــها الاجتماعية للاستفادة من ذلك فى عمل المقارنات الاجتماعيةواستخلاص قوانين اجتماعية تمتاز بالعمومية . وقام كثير من أنصارها بتحقيقـــات ومسوح اجتماعية Social Surveys ترمى من ورائهـــا الى اصـــلاح

ومعالجة بعض الظواهر الاجتماعية غير السوية . وقد أفادت دراساتهم ميدان البحث الاجتماعى فضلا عن أنها نبهت ذوى الشأن الى ما ينبغى اتخاذه بصدد الانحرافات القائمة والاتجاهات السائدة . وآشهر علماء هذه المدرسة :

١ ـ أندريه فيليب (André Philip) وقام ببحوث عن المشكلة العمالية فى الولايات المتحدة (١) .

٢ ـ أندريه سيجفرد (André Siegfried) قام ببحوث عن الحالة الاجتماعية فى الولايات المتحدة فى العصر الحديث (٢) .

٣ ـ أساتذة كلية فرنسا « Collège de France » فى دراساتهم للآراء السياسية السائدة وتوزيعها المورفولوجى ومبلغ تأثيرها فى الرأى العام الفرنسى (٣) . وأشهرهم ( كالوا Roger Callois وباتاى Georges Bataille وليريس Michel Leiris ) .

٤ ـ دراسات المفكر « لبراس Le Bras » فى كتابه « التجربة الدينية فى فرنسا » (٤) فقد أولى مزيد اهتمامه لدراسة الميول الدينية ومدى انتشارها ومبلغ تأثيرها على سلوك الأفراد ودرس اتجاهات الرأى العام وقياس العلاقة بين الدين والآراء السياسية ومبلغ التفاعل بينهما . وقد أعطت بحوثه الفرصة لقيام مبحث اجتماعى جديد هو علم الاجتماع الانتخابى La Sociologie Electorale

* * *

## ثامنا ـ هيئات علمية

وبجانب المدارس التى ذكرناها يجدر بنا أن نشير الى البحوث والدراسات التى تقوم بها الهيئات العلمية الاجتماعية فى فرنسا وأهمها :

---

(1) A. Philip ; Le Problème Ouvrier aux Etats-Unis.
(2) A. Siegfried : Les Etats-Unis d'aujourd'hui.
(3) Tableau Politique de la France de l'Ouest.
(4) Le bras : La Pratique Religieuse en France.

١ ــ المجتمع الفرنسي La Communauté Française وهى جمعية أسسها العالم الفرنسي . « فرنسوا برو François Perroux وقد قدم أعضاء هذه الجمعية بحوثا كثيرة تعالج موضــوعات اجتمــاعية واقتصادية ودينية ونشروها فى كتيبات صغيرة أطلقــوا عليهــا اسم « كراسات Cahiers » . وهذه المجموعات تعرف باسم كراســات أو كتيبات حول بحوث اجتماعية « Les Cahiers des Etudes Communautaires »

٢ ــ مركز أو جمعية دراسة مشكلات الانسان « Centre d'Etudes des Problèmes humains » أنشأت حكومة فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية هذه الجمعية ؛ وضمت اليها طائفة غير يســيرة من المتخصصين وأصحاب الكفايات الممتازة وذلك للرقى بالعلوم الانسانية ولا سيما المسائل المتعلقة بشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع . وسار أنصار هذه الجمعية فى دراساتهم على الطريقة الأمريكية فى دراسة المجتمــع المحلى والوقوف على احتياجات البيئة وبحث الحــالات التى تتطلب المعونة الفنيــة العــاجلة . وكان أبرز رجال هذه الجمــاعة « كوترو Jean Coutrot و « دى شارنى De Charnay

٣ ــ كلية الاجتماع Collège de Sociologie ويعمل أعضاؤها فى مجموعات أو شعب لدراسة موضوع معين Travail en equipe واهتم هؤلاء بمعالجة النزعات الفردية والانتهــازية التى أخذت فى النمــو والازدياد ابان الحرب العالمية الثانية ؛ واتجهوا فى بحوثهم الى الكشف عن دوافع الحرب والأسباب العميقــة التى ترجع اليهـــا الثــورات السياسية والاجتماعية ؛ ودعوا الى تعــزيز المشــاركات الوجدانيــة والناحية الروحية فى المجتمع ؛ ورسموا برامج واسعة النطاق لأعمال الانعاش والرعاية الاجتماعية فى ضوء مايقومون به من مسوح وتحقيقات اجتماعية .

## تاسعا ــ مدرسة جورفتش

ولا يمكننا ونحن فى معرض الحديث عن المدارس الاجتماعية الفرنسية أن نغفل دراسات العالم الكبير جورج جورفتش G. Gurvitch الذى يسيطر الآن على علم الاجتماع النظرى فى فرنسا ويوجه الحركة الاجتماعية العلمية فيها وفى الولايات المتحدة ويسهم فى كثير من المؤتمرات والحلقات الاجتماعية العالمية .

اهتم هذا المفكر بالاجتماع العام والاجتماع القانونى وكتب فى هذين الموضوعين مراجع ضخمة تمتاز بالدقة وعمق التحليل وحسن العرض ولا تخلو من بعض وجوه الأصالة فى التفكير وأهمها :

1 — Essais de Sociologie.

2 — Eléments de Sociologie Juridique.

3 — La Déclaration des Droits Sociaux.

4 — Sociologie du Vingtième Siècle (+ Moore).

والعلامة جورفتش روسى الأصل والنشأة والتكوين العلمى . حصل على درجاته الجامعية فى روسيا وشغل فى جامعاتها وظيفة أستاذ الاجتماع المساعد . واشتغل بالتدريس فى جامعات تشيكوسلوفاكيا . ثم هاجر الى فرنسا حيث منح الدكتوراه من السوربون ومنح الجنسية الفرنسية كذلك . وعين أستاذا بجامعات السوربون وبوردو واستراسبورج . وفى أثناء الحرب العالمية الأخيرة فر الى أمريكا حيث درس فى كثير من جامعاتها وأشرف على تحرير بعض المجلات العلمية الأكاديمية ولاسيما صحيفة الاجتماع القانونى والسياسى .

وغنى عن البيان أن وقوفه على هذه الثقافات المختلفة وتأثره بهذه الأجواء العلمية المتباينة ، قد رسب فى تفكيره فجاءت بحوثه تمثل مختلف الاتجاهات فى علم الاجتماع.فنجد أنه تأثر ببحوث الفوضويين والاشتراكيين أمثال بردهون وباكونين . وهذا التأثير صدى مباشر

لثقافته ونشأته العلمية الأولى . ونجد مبلغ تأثره بفلسفة الظواهر « phénoménologie » التى كانت منتشرة فى ألمانيا وروسيا . وهى فلسفة واقعية تقوم على دراسة الظواهر كما تبدو فى الشعور وفى الواقع فهى تجمع بين الموضوعية والادراك الذاتى . ونجد فوق ذلك نزعته نحو تحقيق التكامل فى ميدان الدراسات الاجتماعية وكلية البحث الاجتماعى « pluralisme sociologique » وهذه النزعة هى الصفة المميزة للمدرسة الاجتماعية الفرنسية المعاصرة (١) .

(1) Cuvillier : Manuel de Sociologie, Tome I, 1950.

# الفصـــل الثـــانى

## المدارس الاجتماعية فى المانيـا

لم يحفل علماء الألمان فى صدر القرن التاســع عشر بالدعوة الى انشاء علم الاجتماع ولو أنهم أجمعوا على ضرورة دراســة شـئون وظاهرات الحياة الاجتماعية دراسة علمية . ويرجع ذلك الى أنهم اهتموا بدراسة فلسفة التاريخ وفلسفة السياسة والاقتصاد واعتبــروا حقائق الاجتماع داخلة فى نطاق هذه الفلسفات . فما عالجوه من دراســات وبحوث اجتماعية جاء مختلطا بهذه الفلسفات وخاصة فلسفة التاريخ . وهذا ما يجعلنا نقرر عدم قيام علم الاجتماع بالمعنى الدقيق فى المانيــا حتى بداية القرن العشرين .

وكانت أهم التيارات الفكرية السائدة فى ألمانيــا تتبــلور حول دراسة نظريات هيجل وماركس وتفنيد ما تنطوى عليه من آراء .

بيد أن العناية بدراسة ظواهر الاجتماع أخذت تقوى وتشتد على أيدى الرعيل الأول من علماء الاجتماع الألمان لاسيما بعد أن تحققت الوحدة الألمانية وظهرت الحاجة ماسة الى التنظيم والتخطيط القــومى وتعبئة الجهود لاصلاح المعتل من شئون البــلاد فى مختلف الميــادين الاجتماعية . فنادى كثيرون منهم بضروورة قيــام علم الاجتماع مستقلا عن فلسفة التاريخ . غير أن معظمهم لم يدرسوا حقائق العــلم دراســة وصفية تحليلية شأن المدرسة الاجتماعية الفرنسية ؛ ولــكنهم خلطوا دراساتهم بالتطورات الفلسفية . ولا عجب فى ذلك فقــد درسوا فى صباهم على أصحاب فلسفة القوة وفلسفة التاريخ والمثالية المطلقة فجاءت بحوثهم متأثرة بكثير من الأفكار الميتافيزيكية والنظريات المجردة .

وسأعرض فى الفقرات القادمة أهم المدارس الألمانية وأبعدها أثرا فى تاريخ الحركة العلمية الاجتماعية .

### أولا ـ مدرسة القوة

اعتنق أصحاب هذه النظرية منذ عهد « هجل وفخت » نظرية الارتقاء وبقاء الأصلح وطبقوها على ظواهر الحياة الاجتماعية فى ميدان السياسة وفى الاقتصاد والأخلاق . فالسياسة هى سيادة الأقوى والدولة لا تقوم الا على القوة وبفضل القوة ؛ والاقتصاد هو صراع الأقوى وقهر الأضعف وحرمانه ؛ والأخلاق الفاضلة ليست أخلاق العبيد أو الأخلاق المسيحية أو أخلاق الديمقراطية ولكنها ارادة القوة؛ وقوة النزوع . وأرادوا أن يطبعوا المجتمع بهذه النزعات العنيفة وروجوا لها فحولوه من أقصاه لأقصاه الى ثكنة حربية واعتبروا شعبهم هو الشعب المختار الجدير بالخلود والبقاء والجدير بحمل مشعل الحضارة ولواء التقدم ولو بالعنف والقوة « فالشعب الألمانى هو ربيب العظمة السياسية وهو الشعب الأمثل » ولذلك برروا الحروب وذهب بعضهم الى أن وصفها بأنها عامل من العوامل المقدسة فى سبيل تقدم الانسانية . وقد استجاب الشعب الجرمانى لهذه المبادىء ووجد فيها ضالته المنشودة وتحقيق ما يصبو اليه . ولذلك صادفت المدرسة أنصارا كثيرين ومؤيدين يجلون عن الحصر . اندفعوا يمجدون القوة والعظمة ؛ وينادون بأن القوة هى الفضيلة السياسية التى تقوم عليها العلاقات الدولية ؛ وأنه من الخير للدول ألا تتبع فى علاقاتها نظاما سياسيا أو خلقيا بصدد التنازع على البقاء فى معترك الحياة .

فلا غرابة أن تذهب هذه المدرسة وأنصارها الى أن الحرب وظيفة اجتماعية وهى سلاح السلم وأنها يجب أن تشن بدون رحمة ولا هوادة لا تراعى فيها العهود ولا يقام فيها وزن للفضائل الانسانية والعواطف البشرية . ويرى هؤلاء كذلك أن الدول الصغيرة أو القوميات الناشئة ليست جديرة بالاستقلال وليس لها الحق فى أن تتخذ مكانا بين الدول

التى تفوقها حضارة ومدنية . فالغاية الحقة التى تنشدها هذه المدرسة هى تحقيق السيطرة الألمانية .

وأشهر من وضع دعائم هذه المدرسه هيجل وفخت ونيتشه ؛ وكان هذا الأخير أشدهم تحمسا . فالدولة فى نظره تقوم على القوة وبفضل القوة وما التعاقد الاجتماعى الا حديث خرافة ؛ والسياسة هى سيادة القوة والعنف لأن الديمقراطية مرادفه تماما لمعنى الانحلال والفساد . ان معناها أن يسمح لكل جزء من الكائن العضوى أن يفعل كما يشاء . وهذا هو التدهور وانحلال التماسك وزوال التعاون والتضامن بين أجزاء المجموع وانتشار الفوضى . ثم ان الديمقراطية تنطوى على تقديس الكفاءات المتوسطة وترد التفوق والنبوغ الى مستوى عادى وهى التى تتيح قيام الاشتراكية والفوضوية فكأنها تقتل نفسها بنفسها. وبعد أن ينعى على الديمقراطية يشيد بفضل القوة والحزم والسيطرة التى تتمثل فى الارستقراطية السياسية . وغنى عن البيان أن نظرياته فى القوة وفى السوبرمان ( الانسان الكامل ) تعتبر صدى للافكار التى أشرت اليها . ومن أنصار هذه المدرسة أيضا المؤرخ السياسى « هنرى فون تريتشك H.V. Trieischke » ومنهم كذلك العالم السياسى والاجتماعى « جللنك Jellineck » الذى كان يرى أن الحروب هى مصدر النظام القانونى وأهم وسيلة للتقدم . ويعتبر الفيلسوف الثائر « ازولد شبنجلر Oswald Spengler » من أبلغ دعاة هذه النظرية وأقوى رسلها ، فقد نادى بأن الأمة التى تستطيع أن تملى ارادتها عن طريق القوة والقهر تكون أعظم شأنا وأعز سلطانا من تلك التى تسير على مبادىء الحق والعدل . وكان يذيع دائما أن السلام العالمى حلم من أحلام اليوتوبيا السياسية ؛ وأن هذه الفكرة يجب أن تستبعد من معجم المعاملات الدولية شأنها فى ذلك شأن العدالة والمساواة المطلقة والحق المطلق .

وقد أثرت هذه الأفكار تأثيرا كبيرا فى تفكير الشعب الألمانى وفى اتجاهاته العملية ومظاهر نشاطه الاجتماعى وفى العلاقات الاجتماعية

المتبادلة بين الأفراد . وكان لها أثر يذكر فى الشعوب الموالية للألمان . فمجد كثير من الكتاب النمسويين الحرب واعتبروها أنجع الطرق للقضاء على المشاكل التى تنشأ فى جو السياسة العالمية . وغنى عن البيان أن أنصار هذه المدرسة هم الذين رسموا بل حددوا الخطوط الرئيسبة للسياسة الألمانية منذ بدايةالقرن التاسع عشر حتى قيامالحرب العالمية الثانية . ولا تزال لهذه الأفكار بقايا ورواسب موروثة فىعقول الكتاب الألمان المعاصرين .

### ثانيا ـ مدرسة المادية التاريخية

تذهب هذه المدرسة التى يتزعمها كارل ماركس وأتباعه الى أن كل ما يحدث فى جو المجتمع من ظواهر ونظم انما يرجع الى العوامل الاقتصادية . فالمادية الاقتصادية هى أساس التطورات السياسية والاجتماعية والأخلاقية . فالتطور الفكرى مثلا انما هو انعكاس للمحركات الاقتصادية التى يرتكز عليها البنيان الاقتصادى . وما يقال عن التطور الفكرى يقال عن جميع الانقلابات والتطورات الاجتماعية فلا سبيل اذن لفهم طبيعة المجتمع قبل تحليل الدعائم الاقتصادية التى يقوم عليها . لأن الحياة الاجتماعية فى نظره من نتاج الجهاز الاقتصادى .

ويذهب ماركس الى أن الأفراد فى المجتمع ليسوا سوى آلات يسخرها الجهاز الاقتصادى القائم . ويتحكم فى هذا الجهاز عامل قوى هام نشأ تلقائيا منذ أقدم العصور وهو كفاح الطبقات الاجتماعية من أجل تحسين حالتها المادية . وحوادث التاريخ المادية تحدثنا بأن هذا الكفاح ينتهى دائما على صورة واحدة هى انتصار الطبقة الأوفر عددا والأسوأ حالا . وهذا ما يعبر عنه ماركس «بقانون التطور الاجتماعى». ولما كان هذا هو حال الهيئة الاجتماعية فى الماضى ؛ فانه سيكون كذلك فى الحاضر وفى المستقبل . وقد بدأ نضال الطبقات فى العصر الحاضر

منذ أن تركزت الثورة الصناعية فى مختلف فروع الانتاج . فقد أصبح التفاوت الطبقى على أشده وأصبح السواد الأعظم يعانى عيشةالكفاف ومحروما من طيبات عمله .

ويعتمد ماركس فى شرح فلسفته المادية التـاريخية على نوعين من التحليل : تحليل ديالكتيكى ( جدلى ) وتحليل مادى . وسنقول كلمة موجزة عنهما .

التحليل الجدلى : Dialectics

أخذ كارل ماركس هذا التحليل عن « هيجل » فلولا هذا الأخير لما ظهرت الاشتراكية الألمانية وذلك باعتراف ( انجلز ) زميل ماركس فى الدعوة الاشتراكية وفى الجهاد . ومن ثم لا يمكن فهم نظرية ماركس الا اذا عرضنا بايجاز نظرية « هيجل » فى هذا الصدد .

أراد هيجل أن يفسر التغير أو الصـيرورة من النـاحية الصورية المجردة وأراد أن يستخدم فى هذا التفسير المنهج الجدلى أو التحـليل الديالكتيكى . وفى هذا الصدد يقول ان كل « فكرة thesis » تحمل فى طياتها عناصر نقيضها antithesis ويطبق هـذه الفـكرة « الوجود being » فاذا جردنا هذا الوجود من كل صفةموضوعية بحيث يصبح وجودا مطلقا من الناحية الصورية فانه يصـبح وجودا خاليا من الصـفات والخـواص وبذلك يسـتحيل « الوجود » الى « لا وجود » أى أن الوجود المطلق واللاوجود شىء واحد.فكأن كل فكرة تحمل فى طياتها عناصر نقيضها . واجتماع النقيضين على هـذا النحو هو الذى يفسر ظاهرة التغير فلو لم تكن عناصر النقيض موجودة فى الشىء على حالته الأصلية لما تصورنا تغيره من حالة لأخرى .

ويمكن تقريب فكرة هيجل الى الأذهان بالمثـال الآتى : البـذرة شىء ، والشجرة شىء آخر . وبمعنى آخر الشجرة غير البذرة أو انتفاء لصفات البذرة . والبذرة لا يمكن أن تصير شجرة الا اذا كانت تحمل

عناصر نقيضها أى تحمـل صفات الشجرة . وعن هذا الطريق يمكن تفسير صيرورة الأشياء بتقابل الأضداد .

استفاد ماركس من هذا التحليل الجدلى ونقله من عالم الأفكارالى العالم المادى . وأراد أن يطبقه على النظم الاقتصادية ويفسر به تطور كفاح الطبقات منذ أقدم العصور . فالنظم الاقطـاعية والرأســمالية والاشتراكية في تطورها كانت تسير وفق المبدأ الأساسى وهو أن كل نظام يحمل فى طياته عناصر نقيضــه . والرأســمالية الآن تحمـل فى طياتها مقومات نقيضها حيث أنها تقوم على رأس المال والعمل وهمـا متناقضان ولابد من وجودهما معا.وفى هذا الصدد يقول ان الرأسمالى الذى لا يعمل هو نقيض العـامل دون رأس مال . والسـير الطبيعى للرأسمالية سيؤدى بصفة تلقائية الى نمو نقيض الرأسمالية وهوالعمل. ومادامت الرأسمالية متجهة بسرعة فائقة نحو غايتها وأسـمى مراحل تطورها فان ذلك ينطوى أيضا على نمو النقيض بنسبة متـكافئة حتى يبلغ أقصى مراحل تطوره وحينئذ يسود النقيض أى تتحققالاشتراكية لأن النصر دائما حليف الطبقة الأوفر عددا والأسوأ حالا . فالرأسمالية باتجاهها نحو اشباع حاجاتها تخلق فى الوقت ذاته الظروف التى تقوى جهود العمال فى اعداد أنفسهم للقيام بالعمل المباشر فى سبيل تقويض دعائم المجتمع الرأسمالى واقامة مجتمع اشتراكى . وهذا ما يقصد اليه ماركس حينما يقول عباراته الشهيرة : الرأسمالية تنمى بذور فنائها ؛ والحياة الاقتصادية الحاضرة تحمل فى ذاتها بذور الحياة المسـتقبلة ؛ وهى معرضة للزوال بفعل القوانين الاقتصادية التى تخضع لها ؛ وأن الاشتراكية هى آخر مراحل التطور التاريخى ونهاية المطاف فى الصراع الطبقى » (١) .

التحليل الاقتصادى المادى :

يحلل ماركس اقتصاديات الرأسمالية ويحاول كشف ما تنطـوى عليه من متناقضات تهىء الظروف الحسنة لتحقيق النظرية الاشتراكية

(1) Coker : Recent Political Thought.

فيقول ... ان الغرض من الانتاج الرأسمالى هو خلق القيمة الفائضة وتحويل جزء منها الى رأس مال جديد . وهذه العملية تتوقف بصفة أساسية على حجم الطبقة العاملة وعلى مبلغ ما يمكن تحقيقه من أرباح. وقد ينجح الرأسمالى فى خلق القيمة الفائضة بيد أنه قد يفشل فى تحقيقها فى صورة دخل أى قد لا ينجح فى استغلالها . لأن هذا النجاح مرهون بالقدر الذى يصرفه من المنتجات بالسعر المجزى . فقد يحدث أن يبيع منتجاته بسعر منخفض أو بسعر يقل عن نفقة الانتاج وفى هذه الحالة تعود عملية الانتاج على الرأسمالى بضياع جزء من رأس ماله .

وفى ضوء هذه الاعتبارات فان انتاج القيمة الفائضة تختلف عن مبلغ تحققها لأن انتاجها يتوقف على قوة المجتمع الانتاجية ، أما تحققها فيتوقف على قدرة المجتمع الاستهلاكية . وهذه القدرة الاستهلاكيه انما تتحدد فى ضوء العلاقات الاجتماعية المتنافرة التى هى أساس الانتاج الرأسمالى . ولما كان هذا الانتاج الأخير مدفوعا نحو تعزيز أوضاعه وزيادة رؤوس أمواله طبقا لسياسة المنافسة الحرة ورغبة فى الانتفاع بقوة طرق الانتاج الأكثر كفاية ، كانت النتيجة هى النمو المتزايد فى قوة المجتمع الانتاجية مما يترتب عليه اشتداد التعارض بين تيار الانتاج وتيار الاستهلاك .

وينتهى ماركس من هذا التحليل الى تقرير القضايا الآتية :

ان التعارض انما يقوم فى أن الانتاج الرأسمالى يؤدى من جهة الى زيادة مطلقة فى القوة الانتاجية دون اعتبار للقيمة والقيمة الفائضة التى تشتمل عليها المنتجات ودون اعتبار للعلاقات الاجتماعية التى يتم الانتاج فى ظلها . ولكن من جهة أخرى يضع الانتاج الرأسمالى نصب عينيه المحافظة على قيمة رأس المال والعمل على زيادته باطراد . فهدف الانتاج الرأسمالى هو خلق وجمع القيمة الفائضة والحرص على استغلالها بكل كفاية . والسبيل الى ذلك هو النمو المتواصل فى قوى المجتمع الانتاجية . بيد أن الوسيلة والغاية متعارضتان . ومن ثم فان

النظام الرأسمالي لا يسلم من هذا التعارض وهو باتجاهه الى اشباع حاجاته ينمي في ذاته الظروف التي تعمل على تقويض دعائمه .

هذه هي الدعائم التي ترتكز عليها فلسفة المادية التاريخية التي نادى بها ماركس واعتنقها عدد كبير من العلماء في ألمانيا وفرنسا وانجلترا . بيد أنها كانت أوسع انتشارا في ألمانيا وروسيا . وقد تطورت هذه الفلسفة وظهر أثرها في المحيط السياسي والاقتصادي واتخذت أساسا لبرنامج سياسي منظم قوامه تقويض دعائم الاقتصاد الرأسمالي واحلال نظم اشتراكية محله . لأن وظيفة الفيلسوف الاجتماعي ليست مقصورة على شرح عيوب المجتمع الانساني فحسب ؛ بل تتعدى ذلك الى شرح أفضل الوسائل التي ينبغي الالتجاء اليها لمعالجة هذه العيوب . وبالرغم من أن الرأسمالية تتجه نحو غايتها طبقا لقانون التطور الاجتماعي غير أنها في اتجاهها هذا لا تخلق الاشتراكية . حقا انها تمهد الطريق الى الاشتراكية في ضوء التحليل الذي ذكرناه ولكنها لا تخلقها خلقا . ومن ثم لابد من الالتجاء الى العمل المنظم لتحقيق المثل الاشتراكية (١) .

وكانت هذه النظرية هدفا لانتقادات كثيرة . أهمها أنها تغفل الناحية الروحية في المجتمع وتقرر سيادة العوامل الاقتصادية فحسب ومبلغ تحكمها في البنيان الاجتماعي وتطوره .

حقا ان ماركس تعرض في بعض نقاط بحثه الى ضرورة التفاعل بين الناحية الروحية والفكرية باعتبار أنها تمثل الجزء الأسمى في البنيان الاجتماعي Supra struktur وبين الناحية المادية وهي الدعائم السفلى لهذا البنيان Infra struktur ؛ غير أن تحليله المادي وطريقته الجدلية طغت على عظمة أفكاره . فهو لا ينكر على الاطلاق أثر العوامل الروحية ؛ ولكنه لم يدرسها بكل كفاية.والمجتمع كما نعلم بقدر حاجته الى المقومات المادية فانه في أشد الحاجة الى وحدة الأفكار وقوة العقائد وتبادل المشاركات الوجدانية التي من شأنها أن تعزز الروابط والعلاقات الاجتماعية . فليس بصحيح ما تذهب اليه هذه المدرسة من أن العامل الاقتصادي هو المحرك الوحيد للتطور الاجتماعي وهو

---

(1) Chang : The Marxian theory of the State.

العامل الفعال الذى يضفى من طبيعته على كل مظاهر النشاط الاجتماعى ويشكلها وفق أوضاعه . اذ لا يمكننا أن تتجاهل أثر البيئة والجنس والخلق القومى والتراث الاجتماعى ومقومات الحضارة.فهذه كلها من الدعائم الأساسية التى تعين طبيعة الحياة الاجتماعية وتحدد مظاهر تطورها . هذا ، الى أن ماركس أسرف فى حملة التشهير على النظام الرأسمالى وأسرف كذلك فى وصف حالة العمال بالبؤس . وقدأساءت هذه الحملة الى الوحدات القومية اذ أصابها التفتيت والانقسام الطبقى وأخذ الحسد يدب فى نفوس المواطنين مما كان له أبعد الأثر فى قيام الحركات الثورية والانقلابات العنيفة فى كثير من أجزاء العالم . وقد حمل لواء هذا النقد طائفة كبيرة من تلاميذ ماركس أشهرهم «برنشتين وكاوتسكى ولورنزوشتين » .

***

### ثالثا ــ مدرسة الاجتماع الصورى ((مدرسة العلاقات))

أشرنا فيما سبق الى أن علماء الألمان تحت تأثير تكوينهم الفلسفى والثقافات المنتشرة وبحكم ظروف العصر خلطوا بحوثهم ودراساتهم الاجتماعية بالتصورات الفلسفية والميتافيزيكية التى كانت تسيطر على أفكارهم فى فلسفة التاريخ والسياسة والاقتصاد .

ونجد أن معظمهم قصر وظيفة علم الاجتماع على دراسة العلاقات الاجتماعية . فعلم الاجتماع فى نظر معظمهم هو « علم العلاقات الاجتماعية » ونظرا لهذه الصفة الغالبة ، تعرف المدرسة الألمانية فى تاريخ البحث الاجتماعى باسم « مدرسة العلاقات الصورية
« L'Ecole des Formes Sociales »

ويعرف العلماء الألمان بأصحاب مدرسة العلاقات . غير أن هؤلاء اذ يدرسون العلاقات الاجتماعية لا يدرسونها دراسة وصفية تحليلية مستمدة من طبيعة الحقائق الاجتماعية ومادة العلاقات فى المجتمع ، ولكنهم تحت تأثير نزعتهم الفلسفية المجردة ، يهتمون بدراسة هذه

العلاقات من الناحية الصورية المتعلقة بطبيعة العلاقات فى ذاتها بدون النظر الى مادتها والى ظواهرها المختلفة وصورها المتعددة والقوالب التى تتشكل فيها . بيد أن أنصار هذا الاتجاه لم يكونوا جميعا على درجة واحدة فى الأخذ بهذا المبدأ العام ؛ ولكنهم يمثلون اتجاهات خاصة ووجهات نظر متباينة فى حدود الاطار العام للمدرسة .

وأشهر دعائم الحركة الاجتماعية فى ألمانيا :

**١ ــ جورج سيمل** G. Simmel ( ١٨٥٨ ــ ١٩١٨ )

هو زعيم علماء الاجتماع الألمان والمؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع الصورى أو المدرسة الشكلية فى علم الاجتماع . وكان ( سيمل ) فى فجر حياته العلمية فيلسوفا . ولذلك فان بحوثه الاجتماعية لاتمثل الا ناحية من نواحى انتاجه العلمى الضخم . وقدمه راسخ فى التاريخ والآداب والفنون الجميلة بجانب اهتمامه بالاقتصاد والاجتماع . ولذلك فهو يمثل بحق فلسفة وثقافة عصره خير تمثيل (١) . ولما نشر بحوثه الاجتماعية بصفة خاصة ذاع صيته فى المجتمع الأوربى ثم ما وراء البحار وترجمت مؤلفاته الى لغات كثيرة وأشهرها : بحوث فى أشكال الاجتماع ؛ الموضوعات الرئيسية فى علم الاجتماع ؛ فلسفة النقود .

بدأ حياته النظرية بنقد فلسفة ماركس وتفنيد ماديته التاريخية وتحليله الاقتصادى الذى يرجع اليه كل مايدور فى المجتمع من حركة ونشاط . وقرر فى هذا الصدد أن الظاهرة الاقتصادية لايمكن أن تفهم فهما صحيحا بدون دراسة القوى النفسية والروحية والأخلاقية والسياسية التى تؤثر فى السلوك الاقتصادى للمجتمعات . ويسمى ( سيمل ) مجموعة الآثار والعلاقات المتبادلة بين مختلف هذه الظواهر بالطريقة أو المنهج الاجتماعى . وطبق نظريته هذه فى دراسته لنظم النقود ومحاولة الكشف عن وظائفها الاجتماعية والاقتصادية (٢) فقد قرر فى هذا الصدد أن النقود تقوم بوظائف اجتماعية هامة تتلخص فى :

(1) N. Spykmen: The Social Theory of G. Simmel (Chig. 1925).
(2) Gurvitch: Moore: Twentieth Century Sociology, p. 605 (1945).

١ ـ تعمل على توحد مواقف الأفراد في الحياة الاجتماعية وتدعوهم الى الاشتراك في مشروعات وأغراض جماعية واحدة .

٢ ـ تؤكد في نفوس الأفراد قوة الثقة الاجتماعية والضمان الجماعي .

٣ ـ تقوم مقام العلاقات الاجتماعية . اذ أنها تترجم عن هذه العلاقات وعن السلع والخدمات الاقتصادية . وتعتبر وسيطا قوميا وفى ظلها تختفى شخصيات المتعاملين .

٤ ـ ان تعامل الأفراد بالنقود من شأنه أن يحول العلاقات الشخصية الى علاقات غير شخصية أساسها الحرية والثقة . وزوال العنصر الشخصى فى العلاقات الاجتماعية من شأنه أن يؤدى الى تحويل هذه العلاقات من الصفة الجماعية القائمة على التقارب الشخصى والجمعى الى علاقات اجتماعية « Socie:al » قائمة على التقدير والحساب والتخصص .

ولذلك يعتبر ( سيمل ) من المدرسة الاقتصادية التى كانت ترمى الى تدعيم النقد القومى لأن لفظ نقد فى نظرها مرادف تماما لكلمة قومية وامبراطورية . وكانت تعارض كل اتجاه يرمى الى سيادة نقد أوربى أو مصرفى عام لأن مثل هذا النقد على فرض قيامه يوهن من الوحدة الجمعية ويفتت الشعور القومى فضلا عن أنه يضعف الثقة فى الحكومات المحلية والمركزية .

أما نظريات ( سيمل ) فى الاجتماع فتتلخص فيما يأتى :

يعرف المجتمع بأنه عملية معقدة Process وليس شيئا ماديا حقيقيا، انه مجموعة من العلاقات أو الحوادث (happening ; Ceschehen) يخلقها الأفراد ويعيشون فيها وتعبر عن تفاعل تجاربهم . وكذلك ينقد ( سيمل ) العلماء الذين يستعملون كلمة (Society) ويفضل استعمال لفظ (association) فان هذا المفهوم الأخير أدق فى التعبير عن طبيعة الحياة الاجتماعية (١) .

(1) H.E. Barnes : An Introduction to the History of Sociology, p. 255.

وينتقل الى دراسة موضوع علم الاجتماع ويعيب على هؤلاء الذين يعتبرون علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس كل الحقائق الاجتماعيه أو هو العلم الذى يدرس كل ماهو انسانى . لأن علما هذا شأنه يصبح عاما وواسعا كل السعة ولايمكن للباحثين فيه الاحاطه بكل الأمور التى تدخل فى نطاقه . ومن الواضح أن هذه السعة وهذه العمومية تسيىء الى كرامة العلم وتفقده شخصيته . ولا يمكن لعلم ناشىء مثل علم الاجتماع أن يشق طريقه فى الارتقاء النظرى ولا يستطيع أن يحقق لنفسه زعامه العلوم الانسانية اذا آقحم نفسه فى كل الموضوعات الانسانية . هــذا الى أن اتساع نطاق العلم واستيلاءه على كل الموضوعات التى تتصل بالحقائق الاجتماعية ينطوى على عملية ابادة أو افناء للعلوم الأخرى التى تعالج موضوعات تتصل بالدراسات الاجتماعية وصهرها فى بوتقة واحدة كبيرة . وهذا التجنى أو الاستعداء على موضـــوعات العلوم لايقوى شخصية العلم بل بالعكس يرده الى طريقة أو منهج للبحث والاستقصاء يطبق على كل الدراسات الانسانية بدون أن يتيح الفرصة لقيام علم مستقل فى ذاته (١) .

ولذلك فان مفهوم العلم يحتاج الى تحديد ، واطاره العام لابد من تعيينه . كما حدث بصدد العلوم الانسانية الأخرى . فمثلا علم النفس لايعالج كل الموضوعات التى تدخل فى نطاق الشعور وهو فى الوقت نفسه منفصل عن العلوم الخاصة التى تعالج موضوعات نفسية ، فكذلك علم الاجتماع لايعالج كل الحقائق التى تتصل بالاجتماع الانســانى وهو فى الوقت ذاته يجب أن يكون منفصلا عن العلوم الخاصة التى تدرس موضوعات اجتماعية .

ويرى ( سيمل ) أن العلوم الجديدة التى تنشأ حديثا ينبغى أن تقوم على التجريد ، بمعنى أن تكون وظيفتها الأساسـية تجريد حقـــائق موضوعاتها مما تنطوى عليه من مادة . أى تجريد مضمونها (Contents) للوصول الى مبـادئها الجـــوهرية المجردة (Formal Principles) ويطبق هذه النظرية على علم الاجتماع فهو فى نظره علم نظـرى مجرد

(Pure science) وموضوعه دراسة العـــلاقات الاجتمـــاعية فى صورها الخالصة ، أى دراسة أشكال التفاعلات الاجتماعية المتبادلة التى تحدث فى كل ميادين الحياة الاجتماعية (Formal Sociology) ولا يدرس هذا العلم الحقائق الاجتماعية المادية التى تنطوى عليها الظواهر (Contents) فان هذه الناحية متروكة للعلوم الاجتماعية الخاصة التى تعالج مختلف ميادين النشاط الاجتماعى . أما وظيفة علم الاجتماع فهى وظيفة تجريدية مقصورة على الوصول الى أشكال (Forms) العلاقات الاجتماعية

ويمكننا فى هذا الصدد أن نعقد مشابهة بين علم الإجتماع وغيره من العلوم . فكما أن الرياضة تعالج المظاهر الشكلية ( الصـــورية ) والعددية للأجسام الطبيعية ، وكما أن الكيمياء والطبيعة تعالج المظاهر الكيفية لمواد هذه الأجسام ، فكذلك علم الاجتماع يبحث فى الصور المجردة للعلاقات الاجتماعية ويدرس التفاعلات الاجتماعية فى ذاتها وجوهرها بعيدا عن تجسداتها الاجتماعية ، فى حين أن علوم الاقتصاد والسياسة والقانون وما اليها تعالج مضمون (Content) أو مادة هذه العـــــلاقات .

وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكننا أن نقـــــرر أن علم الاجتماع الصورى فى نظر سيمل هو « هندسة العلاقات الاجتماعية » (١) .

وترتكز نظرية ( سيمل ) على التمييز بين طبيعة العلاقات الاجتماعية من الناحية الصورية المجردة (Form) ؛ وبين ما تنطوى عليه أو تتضمنه من مادة اجتماعية (Content) . لأن العلاقات التى تنشأ بين الأفراد فى حالة الاجتماع مثل الصراع والتنافس والخضوع وتقسيم العمل والتنظيم الطبقى ... هـــذه الظواهر موجودة فى مختلف ميادين الحياة الاجتماعية . فهنـــاك صراع فى شئون الســـياسة وبين المذاهب الاقتصادية وبين المعتقدات الدينية والمعايير الأخلاقية والفنية . وهناك خضوع فى الأسرة وفى المدرسة وفى بيوت العبادة وفى دور القضاء .

---

(1) Barnes: Ibid, p. 251 (Simmel; Soziologie 9-11), pp.

وهناك تنافس بين الأشقاء فى نطاق الأسرة ، وبين الزملاء فى المدرسة وفى حلقات اللعب وفرق الرياضة وبين المجموعات فى الهيئات والمؤسسات والمعسكرات وما اليها ، وبين التجار والعمال والموظفين . ووظيفة علم الاجتماع هى تحليل هذه المظاهر المختلفة للعلاقات الاجتماعية حتى نصل الى مقوماتها الأساسية وخصائصها الذاتية ثم محاولة تفسيرها فى صورها المجردة بعيدة عن تجسداتها الاجتماعية أى مادتها فى المجتمع.

هذه هى أهم المبادىء التى تقوم عليها نظرية ( سيمل ) فى الاجتماع الصورى . وقد أخذ بها لفيف من علماء الاجتماع فى ألمانيا . غير أنهم اجتهدوا فى التفاصيل ولم يقيدوا أنفسهم بجوهر النظرية كما سنشرح ذلك عند ما نعرض لطائفة من هؤلاء العلماء . بيد أن هناك انتقادات كثيرة وجهت الى ( سيمل ) بصفة خاصة والى أنصار مدرسة العلاقات بصفة عامة . وأهم هذه الانتقادات ما يأتى :

١ ـــ لا يمكن دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة مجردة . اذ أن تجريد هذه العلاقات وردها الى عناصرها الأولية يخرجها عن طبيعتها ويجردها من معانيها الاجتماعية . فتبقى عقيمة غير ذات دلالة مادية وشيئية .

٢ ـــ ان تجريد العلاقات الاجتماعية والرجوع بها الى عناصر أولية مجردة يقطع صلتها ويمزق وحدتها . لأن هذه العلاقات متداخلة ومتشابكة وسريعة التغير ودائمة التفاعل . ومن طبيعتها ألا تفهم جيدا الا فى صلاتها المستمرة وتفاعلها السريع وتطوراتها التى لا تقف عند حد . والملاحظ أن كل تغيير يصيب ناحية من نواحيها لابد أن يتردد صداه فى باقى العلاقات . فلا يمكن اذن دراسة هذه العلاقات منعزلة أو مجردة لأن مثل هذه الدراسة تصبح عقيمة وعديمة الجدوى . ومن ثم ، يجب دراسة المجتمع ككل ويجب دراسة العلاقات دراسة موضوعية كما هى موجودة فى مختلف وجوه النشاط الاجتماعى .

٣ ـــ ان دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة مجردة تتنافى مع فكرة القانون الاجتماعى . اذ كيف نستطيع الوصول الى قانون اجتماعى

يحكم ظاهرة « المنافسة فى ذاتها » مالم تكن هــذه المنافســة مرتبطة بالحوادث الاجتماعية ومقيدة بشروط زمنية وموضوعية . ان رجــل الاجتماع لايفهم المنافسة الا فى ضوء مادتها الاجتماعية ومن الحــالات التى تقوم فى وسط جمعى كالمنافسة الاقتصادية والسياسية والرياضية والعلمية . أما المنافسة فى ذاتها أو الصورة المجردة لظاهرة المنافسةفانها أفكار فلسفية متيافيريــكية يمكن أن تــكون مادة لقوانين من طبيعة فلسفية ونفسية وليست من طبيعة اجتماعية .

وقد وهنت هذه الانتقادات وما اليها من قيمة نظرية « ســيمل » على وجه الخصوص ، ومدرسة العلاقات الصورية على وجه العموم وأشاعت الفرقة والانقسام فى صفوف المتأخرين من أنصارها فأصبحوا الآن يمثلون ثلاثة اتجاهات .

الفريق الأول ، التزم المبادىء الأساسية للنظرية فلا زال يدرس العلاقات الاجتماعية فى صورها المجردة ويحــاول ردها الى عناصرها الأولية . والفريق الثانى آثر دراسة العلاقات الاجتماعية كما تنشأ بين الأفراد فى حالة الاجتماع . غير أنهم قسموا هذه العلاقات قســمين : علاقات ثابتة ومنظمة وهى فى نظرهم موضوع علم الاجتماع ، وعلاقات غير ثابتة وغير مستقرة وهذه تخرج بطبيعتها عن موضوع العلم . أمــا الفريق الثالث ، فيرى أن موضوع العلم هو دراسة جميع العــلاقات الاجتماعية الثابت منها وغير الثابت ، المنظم وغير المنظم ، المباشر وغير المباشر . لأن مثل هذه الروابط غير المستقرة ستأخذ سبيلها الى الثبات والاستقرار والتنظيم . وذلك بفضل تقدم المجتمع وارتقاء نظمه وتطور علاقات أفراده . وكثيرا مايدلنا تحليل الحوادث الاجتمــاعية على أن بعض العلاقات غير المستقرة أو غير المنظمــة قد ينمو نمــوا خطيرا فى الخفاء ويؤدى الى تصدع مفاجىء فى البنيان الاجتماعى . ولذلك فانه من الضرورى دراسة مثل هذه العلاقات بنفس الدقة التى تدرس بهــا العلاقات المستقرة المنظمة مهما عانى الباحث من أمر هذه الدراسة .

### (٢) ماكس فبر Max Weber ١٨٦٤ — ١٩٢٠

يعتبر « فبر » من مشاهير علماء الاجتماع الألمان . ويرجع نسبه الى أسرة عريقة . فقد كان أبوه من أبرز رجال السياسة في زمانه وكان عضوا في الريخستاغ ( البرلمان Reichstag ) . وقد ورث « ماكس وبر » عن والده هده النزعة فقد شب متحمسا ومعروفا فى الوسط السياسى لأنه تعرف على الكثيرين من الزعماء الذين كانوا يتزاورون مع والده . وكان من الطبيعى أن يتجه الى دراسة القانون . وقد تتلمذ على المدرسة التاريخية القانونية التى كان يتزعمها « تيودور ممسن» Theodor « Mommsen » وأدولف جولد شمت Adolf Goldschmidt وأظهر « فبر » نبوغا وألمعية فى شبابه ابلكر وكان قديرا فى التحصيل وبعد أن وصل فى دراسة القانون الى ما أراد ، اتجه الى الاقتصاد والسياسة وساهم فى كثير من الحركات السياسية وكان من أنبهالزعماء القوميين واختير عضوا فى اللجنة التى وضعت دستور عام ١٩١٩ المعروف بدستور فيمار . وتوفى فجأة عام ١٩٢٠ وهو يرسى الثمار الناضجة للأعمال الجليلة التى قام بها طوال حياته (١) .

وشغل « وبر » مناصب جامعية فى برلين وانتهى به المطاف الى أن شغل كرسى الاقتصاد فى جامعة « هيدلبرج Heidelberg » وهو الكرسى الذى كان يشغله العالم الاقتصادى الشهير « كارل نيس Karl Knies » وترك « وبر » مؤلفات علمية كثيرة تتناول الموضوعات الآتية : علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية ، مقالات فى الاجتماع الدينى ،التاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى ، الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية . وقد ترجمت معظم مؤلفاته الى اللغات الأجنبية « غير الألمانية » (٢) .

وأولى « فبر » مزيد عنايته الى مناهج البحث « Methodology » فى العلوم الاجتماعية وكان يرى أنه من الصعب وضع منهج عام يخدم أغراض الدراسة الاجتماعية ويصلح أساسا للنظرية الاجتماعية فى

---

(1) Barnes: An Introduction to the History of Sociology, p. 289, (1954).

(٢) ترجم العالمان (H. H. Gerth ; w. Mills) كتابه مقالات فى الاجتماع ونشر فى نيويورك عام ١٩٤٦ — وترجم العلامة F. H. Knight كتابه التاريخ الاقتصادى العام ونشر فى لندن ١٩٢٧ — وترجم العلامة Parson كتابه أخلاق البروتستانت وروح الرأسمالية ونشر فى لندن عام ١٩٣٠ .

مختلف الميادين . وذلك لأن العلوم الانسانية تبرأ من الدقة التى تتوفر بكل كفاية فى العلوم الطبيعية . والسبب فى ذلك أنها عرضة لتدخل ارادة الانسان وخاضعة لمشاعره . ولذلك فانه من الأفضل أن يقتصر علم الاجتماع على الوصول الى نظريات ومبادىء عامة مجردة مستخلصة من دراسة التطور التاريخى للحقائق الاجتماعية . وقد استخدم هو نفسه هذه الطريقة فى دراساته المقارنة للبحث فى نشأة وقيام التنظيمات السياسية والاقتصادية . ولا شك أنه تأثر فى هذا الاتجاه بتكوينه وثقافته العلمية الأولى حيث بدأ بدراسة القانون وفلسفة التاريخ والتاريخ الاجتماعى .

ودرس الأشكال الاجتماعية وردها الى شكلين أساسيين : المجتمع العام والمجتمع المحلى . غير أنه انتهى الى ماقرره أستاذه « سيمل » من أن هذين الشكلين ليس لهما وجود واقعى قائم بذاته ولكنهما يعبران عن اتجاهين أو تيارين يسودان الحياة الاجتماعية وهما :

٢ ــ اتجاه جماعى (Community, Vergemeinschaftung) تسوده أفعال عاطفية ومظاهر سلوك لاشعورية .

٢ ــ اتجاه اجتماعى (Society ; Vergesell) تسوده أفعال ذات غائية عاقلة ومظاهر السلوك التقديرى .

وحلل ( فبر ) هذه الأشكال وناقش الدعائم التى تقوم عليها والظواهر التى تسودها . ودرس كذلك موضوعات كثيرة تتناول نظم الاستبدال والنقد ونظم الادارة والملكية والسلطة ومظاهر السيادة. وكان يسير فى هذه الدراسة على المنهج التجريدى الذى يقابل بين عنصرى الشكل والمضمون« Formal and Substantive Rationality » لأن وظيفة عالم الاجتماع كما ترى المدرسة الشكلية هى أن يفكر ويحلل ويجرد وينظر الى الظواهر والنظم الاجتماعية نظرته الى أشكال وأفكار يستطيع أن يكشفها عن طريق العقل وبفضل التفكير أكثر مما يصل اليها عن طريق الملاحظة والتجربة . فعالم الاجتماع عندما يتكلم

عن الأسرة أو المدينة أو الدولة أو السيادة أو الملكية ، ينظر اليها نظرته الى مجرد أشكال ولاينظر اليها بوصفها حقائق واقعية مادية ، وعليه أن يحلل ويجرد هذه الأشكال للوصول الى المعنى الذاتى الذى تنطوى عليه .

ومن الموضوعات التى اهتم بها «فبر» دراسة العلاقات ومظاهر السلوك الاجتماعى وردها الى أربعة أنواع : سلوك غائى ، وسلوك لاشعورى ، وسلوك عاطفى ، وسلوك تقليدى . ودرس العلاقات الاجتماعية التى تنشأ عن هذه المظاهر المختلفة . وقرر أنه لاينبغى أن نوسع من نطاق هذا السلوك بل يجب أن يكون مقصورا على العلاقات والروابط الاجتماعية التى تنشأ استجابة لنشاط أو سلوك مقابل . ولذلك فليست كل العلاقات الانسانية علاقات اجتماعية . ومن هنا تبدو أهمية تصنيف العلاقات ثم تحليلها وتجريدها حتى نصل الى مقوماتها الذاتية . وهذه هى الوظيفة الحقة التى يتعين على علم الاجتماع أن يؤديها .

ولعله لاحظ مالاحظه أستاذه « سيمل » من أن العلاقات الاجتماعية تفسر تفسيرا مغايرا بالنسبة لمختلف الحالات التى تتشكل فيها .فالسلطة فى الأسرة ليست هى السلطةفى المدرسة أو فى المعبد أو فى الدولة . والمنافسة فى الاقتصاد غيرها فى ميدان العلم أو السياسة . ولذلك يجب الوقوف على مختلف هذه المظاهر وهذا يقتضى من الباحث أن يتقصى مختلف نواحى النشاط الاجتماعى . ولذلك نراه يقرر أن علم الاجتماع بالرغم من أن موضوعه يجب أن يكون مقصورا على دراسة العلاقات الاجتماعية فى صورها المجردة ، غير أن طبيعة هذه الدراسة تتطلب من الباحث أن يعود من حين لآخر الى طائفة من الدراسات الاجتماعية التى يمكن اعتبارها علوما اجتماعية جزئية . وتطبيقا لذلك درس «فبر» العلاقات المتبادلة بين الظواهر الدينية والاقتصادية والتاريخية ووقف على مبلغ التفاعل بينها وحاول أن يكشف من وراء ذلك العوامل الاجتماعية التى أدت الى سيادة النظام الرأسمالى فى المجتمعات الحديثة

وذلك فى كتابه «أخلاق البروتستانت وروح الرأسمالية» وهذا الاتجاه من جانب ( وبر ) يدلنا على أن موقفه أسلم من موقف أستاذه ( سيمل ) وأسبر منه غورا وأكثر اقترابا الى حقائق الأمور .

## ٣ ــ فردناندتونيس F. Toennis ( ١٨٥٥ ــ ١٩٣٦ )

يعتبر « تونيس » المؤسس الحق لعلم الاجتماع فى ألمانيا المعاصرة اشتغل منذ شبابه بالدراسات الاجتماعية . ولما نشر كتابه « المجتمع العام والمجتمع المحلى » عين محاضرا بجامعة « كيل » ثم أستاذا وظل يدرس ويحاضر الى أن فصله النازيون بالرغم من أنه كان من رسل النازية ومن دعائم دعوتهم فى بدء ظهورها . وأشهر مؤلفاته الأخيرة : المدخل الى علم الاجتماع ، وروح العصر الحديث .

يقسم « تونيس » علم الاجتماع الى ثلاثة أقسام متمايزة وهى :

١ ــ علم الاجتماع النظرى Reine theoretische (pure)

٢ ــ علم الاجتماع التطبيقى Ange Wandte (applied)

٣ ــ علم الاجتماع التجريبى Empirische (empirical)

وهذه الفروع الثلاثة تمثل وحدة العلم التى اتخذتها كافة المدارس الاجتماعية موضوعا للدراسة والبحث سواء فى ألمانيا أو فى خارجها (١)

ويقصد « تونيس » من علم الاجتماع النظرى علم الاجتماع العام وموضوعه دراسة الحقائق ( أو الذوات ) الاجتماعية المجردة (٢) .

Soziale wesenheiten — Social entities

ويصنف تونيس هذه الذوات الاجتماعية على النحو الآتى :

١ ــ العلاقات الاجتماعية Verhaltnisse — Social relations

(1-2) Barnes. Introduction to the History of Sociology, 231, 234.

٢ ـ التجمعات الاجتماعية Samtschaften — Social collectives

٣ ـ الأجسام الاجتماعية ( الهيئات والمؤسسات )
Koerperschaften — Corporations (Social bodies ; unions)

وموضوع علم الاجتماع التطبيقى هو دراسة العمليات والحوادث التاريخية التى تؤدى الى التطور الاجتماعى . وقد عنى «تونيس» بهذه الناحيةقبل وفاته اذ وضع بحوثا عنتطور المجتمع الحديث ونشر مقالات عن التقدم والتطور تعتبر مكملة لكتابه الكبير « المجتمع العام والمجتمع المحلى » والفرق بين الاجتماع النظرى والاجتماع التطبيقى ليس مجرد فرق بين نظرية فى الاستاتيك والديناميك سوسيال ، ولكنه بصفة أساسية فرق منهجى . لأن المنهج الذى يستخدم فى الاجتماع النظرى منهج تجريدى أما فى الاجتماع التطبيقى فهو منهج استنباطى ، اذ تجمع الحقائق وتنظم وتفسر تبعا للتطور العام من المجتمع المحلى الى المجتمع العام .

أما موضوع الاجتماع التجريبى فهو الانتفاع بحقائق الاجتماع النظرى فى الدراسات البيئية والمحلية وعند القيام بالمسوح والتحقيقات الاجتماعية . وتستخدم فيه كافة المناهج التى تحقق أغراضه من قياسية واستقرائية وتجريبية . وهذا النوع شبيه تماما بالدراسات البيئية والاكلوجية Ecological والمسوح الاجتماعية S. Surveys المنتشرة فى أمريكا التى تقوم على الدراسة العلمية الاجتماعية للحقائق المادية كما تبدو فى الحياة الاجتماعية .

وأهم الموضوعات التى درسها « تونيس » فى الاجتماع النظرى الفرق بين المجتمع العام « Society ; Gesellschaft » وبين المجتمع المحلى Gemeinschaft Community فقد ميز بينهما وحلل العلاقات التى يقومان عليها . وتتلخص نظريته فيما يأتى :

قامت الحياة الاجتماعية فى فجر نشأتها على العلاقات الطبيعية الغريزية . وسرعان ماتطورت هذه العلاقات الى علاقات جماعية عندما شعر الأفراد بوحدتهم وكيانهم ، فى نطاق الوحدات الجماعية الأولى مثل

الأسر والعشائر والقبائل وماتنطوى عليه من جماعات الاخوة والصداقة وحلقات اللعب وما اليها . ويطلق تونيس على هذه الأنماط الجماعية اسم « المجتمع المحلى Gemeinschaft » ثم اتسع النطاق المورفولوجى لهذه الوحدات وانتقلت الحياة الجماعية من النطاق المحلى الى النطاق الاجتماعى العام Geselschaft أى انتقلت من Community الى Society وتبع ذلك تطور العلاقات من المحيط الجماعى الى المحيط الاجتماعى العام

والعلاقات الاجتماعية فى نظره تنقسم قسمين : موجبة وسالبة . والأولى هى التى تؤدى الى حفظ النوع الانسانى والعمل على بقائه ودوام استقراره ، وتنحر باتجاهات الأفراد نحو التكامل ووحوة المقاصد والأهداف . أما الثانية (السالبة) فتؤدى الى الفناء والفرقة وتشيع فى قلب الجماعة الاختلافات والضغائن وتثير الصراع والحسد والكراهية وما اليها .وهذه العلاقات فى مجموعها ترتكز على أسس نفسية تختلف باختلاف الأنماط أو الأشكال الاجتماعية وطبيعتها .

ويمتاز « المجتمع المحلى » بأن الكل الاجتماعى موجود قبل أجزائه بمعنى أن الفرد يولد فيجد الروابط الاجتماعية مستقرة ومنظمة وتقوم الجماعة بتنشئته وتشكيله وفقا لاتجاهاتها وطبيعة نظمها وقوالبها الجمعية والأسرة فى نظره هى التعبير الأول عن حقيقة المجتمع المحلى . وتمتاز الحياة الاجتماعية فى هذا الشكل بالتضامن وقوة الروابط وسيادة الشعور الجمعى والمشاركات الوجدانية . ويقوم هذا الشكل على روابط الدم والقرابة والجوار والصداقة . ونجد فيه كذلك قوة الرغبات الطبيعية وقوة الغرائز والدين والعادات والتقاليد .

ويمتاز « المجتمع العام » بأن « الشكل الاجتماعى عبارة عن تركيب صناعى من أجزاء كثيرة ووحدات متعددة » بمعنى أن المجتمع ينقسم الى هيئات ومؤسسات وجماعات كثيرة قائمة على أساس ارادى (Associations, Institutions ; Groups) ولذلك نجد أن الروابط الاجتماعية فى هذا المحيط العام مائعة، والمشاركات الوجدانية غير متكاملة والعلاقات بين الأفراد قائمة على أساس الحذر والحرص والمنفعة الخاصة

ويوسع « تونيس » الهوة التى تفصل بين هذين الشكلين فيقـول ان الفرد عندما ينتقل من مجتمعه المحلى الى المجتمع العام فكأنما يدخل أرضا جديدة ويتعامل مع مجتمع غريب .

ويجمل الفروق الأساسية بين هذين الشكلين فى الأمور الآتية :

١ ــ المجتمـع المحلى وحدة محدودة النطاق ، أما المجتمع فحقيقة عـامة .

٢ ــ يخضع المجتمع المحلى لسلطان الدين والعـادات والتقاليد ؛ بينما يخضع المجتمع العـام لقوة القـانون وقيام الروابط التعاقدية والطبقيـة .

٣ ــ تسيطر العواطف والمشاركات الجمعية فى المجتمع المحلى ، أما المجتمع العام فيسيطر عليه التفكير التقديرى القائم على المصلحة الخاصة وعلى الأثرة أكثر من قيامه على الايثار ، وعلى الحذر المتبادل والتشكك فى الغريب ولذلك يمتاز بالتنافس والصراع وانتشار الرغبات الخاصة والنزعات الانتهازية .

٤ ــ الأسرة هى وحدة المجتمـع المحلى بينمـا الجماعة (Group) هى وحدة المجتمع العام . وتتنوع هذه الجماعات بتنوع مظاهر النشاط الاجتماعىوذلك مثل الهيئات السياسيةوالنقابات والأحزاب والجمعيات العلمية والشركات التجارية والمؤسسات الاقتصادية والهيئات الترفيهية.

٥ ــ الملكية جمعية فى المجتمع المحلى ، بينما هى فردية فى المجتمع العام . والتضامن طبيعى فى الشكل الأول ، أما فى الشكل الثانى فهو تضامن تعاقدى . وتسود العقائد فى الأول ، بينما تسـود المذاهب والنظريات فى الشكل الثانى ويتحكم الدين فى الشكل الأول ، بينمـا يخضع الثانى لقوة الرأى العام . وبينما تلعب العادات والتقاليد دورا رئيسـيا فى الشـكل الأول ، فان التيـارات الاجتماعية والأذواق والابتكارات والتجديدات تعتبر من أهم مقومات الحياة الاجتمـاعية العامة وتحل فى الشكل الثانى محل العادات والتقاليد فى الشـكل الأول (١) .

(1) Sorokin : Les Théories Soc. Contemporaines, p. 356).

بيد أن التطور الحديث وارتقاء الحياة الاجتماعية وتكاملها قضى على كثير من الروابط المحلية وقلل من شأن العصبية الدينية والقبلية التى كانت من أهم سمات المجتمعات المحلية . ويرجع الى هذا التطـور أكبر الفضل فى الانتقال بالأفراد والجماعات من حياة محلية ضيقة النطـاق الى حياة اجتماعية عامة «Vie Societaire etnon Communautaire».

ونلاحظ أن العلامة « تونيس » عرض فى مقدمة كتابه ( مدخل الى علم الاجتماع ) للكلام عن الهيئات والمؤسسات التى يتكون منها المركب الجمعى العام باعتبارها نموذج اجتماعى جديد . فهى عبارة عن وحدات أو أجسام (bodies; unions) تنشأ فى قلب المجتمـع لتأدية وظائف لامصرف عنها فى الحياةالاجتماعية .فهى أجسام اجتماعية Social bodies من طبيعة روحية . لأنها لابد أن تستقر قبلا فى الضمير الجمعى ويصطلح عليها عقل الجماعة قبل أن تأخذ تجسداتها الاجتماعية .

وفى كتابه « روح العصر الحاضر » ينعى ( تونيس ) على التطـور الحديث احلاله العلاقات المادية والتقديرية محل العلاقات الروحية .بيد أن هذا التطور ينشأ تلقائيا وهو الذى يدفع بالبنيان الاجتمـاعى الى الانتقال من الشكل المحلى الى الشكل العام ، ويدفع بالعـلاقات من الحالة الطبيعية والجماعية الى الحالة الصناعية الاختيارية . ويرى تونيس أن هذا التطور كان مصحوبا بنقائص وشرود لأنه طبع الحياة الانسانية بطابع الأنانية وحب الذات والتكالب على الماديات .

ومن الموضوعات الهامة التى درسها « تونيس » المعـايير والقيم الاجتماعية (Social norms and values) لأن هذه المصطلحات مرتبطة ارتباطا وثيقا بنظريته فى « الذوات الاجتماعية » ولأنها تعبر عن معـانى وتترجم عن وظائف اجتماعية من الأهمية بمكان الكشف عنها . وتناول هذا الموضوع من ناحيتين (1) :

الناحية الأولى : أنواع المعايير الاجتماعية . وهى فى نظره ثلاثة : معايير النظام العام والمعايير القانونية والأخلاقية .

(1) Barnes ; An Intriduction to the Histcry of Sociology p. 236 ;

والناحية الثانية . أنواع الارادة الجمعية التى تخلق هذه المعايير وتصطلح عليها .وميز فى هذا الصددين الادارة الجماعية Gemeinschafttiche والارادة الاجتماعية (Gesellschaftliche) والأولى تنشأ فى قلب المجتمع المحلي وترتكز على قوة الوحدة الجمعية وتوحد مواقفها وعلى العادات والعرف والدين الذى يقوم بدوره على الاعتقاد فى قوى خارقة مريدة وآمرة . والثانية تنشأ نتيجة التطور الاجتماعى من الحياة المحلية الى الحياة الاجتماعية المعقدة وترتكز على التعاقد والتشريع والرأى العام.

وحلل المعايير المشار اليها ووصل الى وظائفها الاجتماعية وعرض فى ثنايا تحليله للنظام والقانون والتشريع لدراسة القانون الطبيعى ونظريات هوبز وأضاف مبادىء واعتبارات قانونية فى التمييز بين القوانين المدونةوغير المدونة ، والقوانين المستمدة من العرف والتشريعات الوضعية ، والقوانين التى تستمدجزاءها من الدين والأخرى التى تستمده من الأوضاع والمستحدثات ومطالب الحياة الاجتماعية . ويعتبر تونيس أن هذه الدراسة القانونية مبحث هام من مباحث الاجتماع النظرى فضلا عن أنها تدخل فى نطاق الاجتماع التجريبى . وقد ارتفع تونيس بفضل هذه الدراسات الى عالم بارز فى الاجتماع القانونى لايقل شأنا عن جورفتش وأمثاله .

ودرس ظاهرة الرأى العام . وذهب الى أن كل ظاهرة اجتماعية يمكن أن تفهم من خلال المفاهيم التى يحفظها العامة عنها . بيد أنه ينبغى التمييز بين الرأى العام بالمعنى الصحيح بوصفه التعبير عن ارادة الجماعة وبين المعنى الشعبى الدارج للرأى العام وهو عبارة عن مجموعة من الاتجاهات ووجهات النظر لايجمعها نظام ولا يشملها وئام . والرأى العام بالمعنى الصحيح يعتبر قوة سياسية عامة تتميز فى ذاتها عن الآراء والميول السياسية المحلية . وهو كذلك ثمرة من ثمرات العقل والتفكير وروح التحليل والنقد ومتميز تمييزا واضحا عن الانفعالات والمشاعر الشعبية الدارجة . ويعتمد الرأى العام على المطبوعات والمنشورات والصحف وتقاس قوته بمبلغ انتشارها والانفعال بما فيها انفعالا عقليا

وتتفق نظرية تونيس هذه مع نظرية العالم الأمريكى جدنجز Giddings فى كثير من الاعتبارات (1) .

***

## رابعا ـ مدرسة الاجتماع الواقعى

أشرنا فيما سبق الى أن علماء الاجتماع الألمان لم يكونوا جميعا من أنصار المدرسة الصورية . فهم باستثناء « سيمل » مؤسس المدرسة الشكلية لم يسيروا الا بقدر معين فى اتجاه هذه المدرسة ولم يأخذوا بكل ماذهبت اليه . ونجد فريقا منهم عارض الاتجاه الصورى فى الدراسات الاجتماعية ورأى ضرورة دراسة حقائق الاجتماع دراسة واقعية موضوعية . وسنتكلم عن زعماء هذا الاتجاه الواقعى فيما يأتى .

### ١ ـ فون فيزى Von Weise

من مواليد مقاطعة سيليزيا عام ١٨٧٦ وكان والده فارسا بروسيا وبالرغم من أن هذا العالم لم يكن ناجحا فى حياة التلمذة الأولى ، غير أنه أظهر فى دراساته العليا ألمعية ونبوغا كان موضع الاهتمام ولاسيما فى الدراسات الاقتصادية . وبعد أن انتهى من دراساته الجامعية أصبح ناشرا لمجلة اجتماعية (2) . ونشر فيها هو وتلاميذه بحوثا ودراسات تطبيقية تخدم أغراض الاصلاح الاجتماعى . واستمرت هذه المجلة فى الظهور حتى عام ١٩٣٤ . وأنشأ معهدا للعلوم الاجتماعية ظل قائما حتى أغلقه النازيون عام ١٩٣٥ . ويبدو أنه لم يكن موضع ثقة النازيين فأهملوا شأنه وأحلوا محله أساتذة من أتباعهم . بيد أن اسمه لمع بعد الحرب وبرز شأنه وتولى رئاسة بعض الهيئات المعنية بدراسة الاجتماع (3) .

ووضع ( فون فيزى ) مؤلفات قيمة فى الدراسات الاجتماعية وترجم

---

(1) Barnes ; An Introduction to the History of Sociology p. 239.

(2) Kôlner Vierteijahrshefte für Soziologie.

(3) Deutsche gesellschaft für Soziologie.

معظمها الى اللغات الأجنبيه ولاسيما الى الانجليزية والفرنسية (١) .

وترتكز نظرية (فيزى) فى علم الاجتماع على دعامتين (٢) :

الدعامة الأولى : ان علم الاجتماع علم نظرى مجرد بالمعنى الدقيق وموضوعه دراسة العلاقات الاجتماعية دراسة علمية تحليلية ويستخدم فى ذلك الطرق نفسها التى تستخدمها العلوم الطبيعية فى دراسة حقائقها . ويرى أن هذا العلم لن يحقق أغراضه النظرية بنجاح الا اذا تخلص من التأملات والنظريات الفلسفية وتحرر من الأحكام التقويمية ويعتبر (فون فيزى) فى ضوء هذه الاعتبارات من أشد العلماء الألمان تأثرا بالنزعة العلمية الطبيعية التى تمثل تفكير غرب أوربا تمثيلا واضحا.

والدعامة الثانية : ان علم الاجتماع علم خاص يتميز عن العلوم الاجتماعية الأخرى . له ميدانه وغاياته التى تميزه عما عداه من هذه العلوم .فليس هو اذن علما تركيبيا «Science Synthétique» يجمع النتائج والقوانين العامة التى تصل اليها العلوم الاجتماعية الجزئية كما يذهب الى ذلك دوركايم ، ولكنه علم خاص يحاول أن يضع تفسيرا للحياة الاجتماعية ويحلل العمليات والعلاقات الانسانية المتبادلة كما تبدو فى السلوك الجمعى .

ولذلك كان أول موضوع وجه اليه ( فون فيزى ) مزيد اهتمامه هو « تصنيف العمليات الاجتماعية » وتحليل نماذجها المتواترة وصورها المتكررة فى الحياة الاجتماعية . ويعترف بدقة الموضوع وصعوبته قائلا « انه من الصعوبة بمكان أن نصنف العلاقات الانسانية المحسوسة فى مقولات واحدة » . ولذلك عانى مشقة بالغة فى رسم الاطار العام الذى يحددها . وأهم الدعائم التى ترتكز عليها نظريته فى التصنيف مايأتى :

---

(1) Allgemeine Roziologie (Esquisse d'une Sociologie)
P. I. Beziehungslehre (1924)
P. II, Gebildelehre (1926)
Soziologie Geschichlé und Hau ptprobleme (Sociology: Its history and main problem)

(2) Barnes: An Introduction to the History of Sociology p. 275.

أولا : تنقسم العمليات الاجتماعية الأساسية الى قسمين : عمليات (Associative) وأخرى منفرة (Dissociative) ويمكن تحليل هاتين العمليتين الى عمليات فرعية صغيرة (Subprocesses) تندرج تحت كل منهما .. وأهم هذه العمليات مايأتى :

١ ــ العمليات المجمعة : ويدخل فى نطاقها :

( أ ) التقدم : ويمهد له بعمليات كثيرة أهمها . الاعجاب والاغراء وتبادل الآراء والثناء (١) .

(ب) التطابق والتكيف : وهو عملية أساسية فى الحياة الاجتماعية وقد يكون من جانب واحد أو متبادلا . فالأول مظهر من مظاهر عدم استقلال الفرد الذى يبدو من ناحيته التكيف وحاجته الى الاعتماد على الآخرين ، والثانى ينشأ نتيجة للتفاعل المتبادل بين الفرد وغيره . ولابد أن ينتهى هذا التفاعل بالاتفاق وتطابق الاتجاهات لأن التكيف لا يمكن أن ينشأ من مشاعر مختلفة ومنازع متباينة . وتدخل فى نطاق هذه العملية اعتبارات كثيرة مثل تلقين المعلومات والمعارف ، والرغبة فى الاتفاق ، والتقاليد (٢) .

(جـ) الاندماج «amalgamation» وبفضله تتحقق الوحدة فى المواقف الجمعية ، وتتم عملية التمثيل الاجتماعى «assimilation»

ويرى ( فيزى ) أنهناك ثلاثة عوامل تؤدى الى تدعيم العمليات المجمعة واثارتها حتى تتكامل فى أهدافها . وهذه العوامل هى : عوامل عاطفية ودوافع وجدانية ، عامل المصالح المشتركة والرغبات الجماعية ، عوامل موضوعية وليدة الحياة الاجتماعية ونتيجة تفاعل الأفراد معهذه الحيـــاة .

---

(1) Advance : Adoring ; enticing ; Consulting ; thanking.

(2) Instilling Knowledge ; agreeing ; imitating.

ويلخص ( فون ويزى ) العمليات المشار اليها بقوله : اننى أفهم بالتقدم خطوات تمهيدية نحو حياة جمعية ، وبالمطابقة والتكيف اعتراف صريح بأن ثمة خلافات ومؤثرات متبادلة كانت قائمة ، وأن ثمة جهودات قد بذلت للقضاء عليها ، وبالاندماج تحقق حالة جمعية جديدة متحدة فى أهدافها ومتكاملة فى ذاتها (١) .

٢ ـ العمليات المنفرة : وهى العمليات التى من شأنها زيادة مظاهر الخلاف بين الأفراد أى أنها تزيد المسافة الاجتماعية بينهم (Social distance) لأن كل عملية اجتماعية من شأنها أن تؤدى اما الى تضييق المسافة الاجتماعية بين الأفراد ، أو أنها تؤدى الى زيادتها . فالأولى تعتبر عملية مجمعة والثانية تعتبر عملية منفرة . وتخضع العمليات المنفرة للعوامل الثلاث المؤثرة فى العمليات المجمعة وهى عوامل عاطفية وجدانية ، ومصلحية ، وموضوعية . ويدخل فى نطاق هذه العمليات : التنافس ، والتعارض ، والصراع . وهذه العمليات من شأنها توسيع المسافة الاجتماعية واقامة فراغ بين الأفراد تملأه عادة بنشاط عدائى مستمر . ويعتبر التنافس أقل هذه العمليات شأنا ، فاذا زاد عن حده انقلب الى صراع ، واذا خفت حدته عاد الى التعاون والتضامن ، فهو بمثابة صمام أمن بين العمليات المجمعة والأخرى المنفرة .

ثانيا : ويصنف (فيزى) العمليات الاجتماعية على أساس آخر هو التباين والتكامل «differentiation; Integration» وأهم العمليات التى تؤدى الى التباين : نشأة عوامل التفاوت وعدم المساواة ، التسلط والخضوع ، والاذعان ، والتدرج الطبقى والتمايز والتفاضل والفردية ، والانعزال والهجر (٢) .

---

(1) Barnes. An Introduction... p. 277.

(٢) ـ عمليات التباين : The genesis of disparities ; domination ; gradation ; Stratification ; Sellction ; individualism ; Separation; estrangement

وأهم العمليات التى تؤدى الى التـكامل : التنـاسق ، والتنظيم والخضوع للنظام والتنشئة الاجتماعية (١) .

ثالثا : ويصنف فيزى العمليات على أساس ثالث وهو البناء والهدم «Contruction; Distruction» فمن العمليات مايؤدى الى البناء والانشاء والتجديد فى الحياة الاجتماعية ، ومنها مايؤدى الى الهدم وتقـويض مقومات هذه الحياة .

وأهم العمليات التى تدعم البنيان الاجتماعى : تنظيم العـلاقات والنظم الاجتماعية والتنظيم الفنى والوظيفى وأخيرا التحرر (٢) . أما العمليات التى تعمل على الهدم والتقويض فأهمها : التسخير ،والمحاباة، والجمود ، ومهاجمة النظم القديمة بدون علم أو دراية ، والخضـوع الاقتصادى ، ثم التمرد على الأوضاع القائمة (٣) .

وبعد أن ينتهى ( فون فيزى ) من دراسة العمليات والعـلاقات الاجتماعية وتفرعها ، يدرس الأنماط الاجتماعية Patterns ويردها الى ثلاثة أشـكال : الجمهرة (Crowds) ، الجمـاعات (Groups) والجماعات المعنوية المجردة ، (Abstract Collectivities) وتمتاز الجمهرة بالصفة المادية المحسوسة وبسرعة التكوين والانفضاض وتكون دائما بدون قيادة وبدون توجيه والعلاقات التى تسودها عنيفة ومؤقتة لأنها سرعان ماتنفض بالطريقة التى تكونت بها . وليس معنى قيامها على التـكوين المادى أنها مجردة من الناحية المعنوية الروحية فان التـكوين المادى لايمكن أن يتحقق الا اذا توفر العنصر الروحى ( الجمعى ) قبلا .الذى دائما يكون رابضا وراء التجسدات المادية . ويرجع الفضل الى هـذه التجسدات فى تجديد الناحية الروحية واظهارها . وتمتاز الجمـاعات بالثبات والدوام والنظام والتضامن النسبى . وهذه الصـفات تضفى

---

١ ـ عمليات التكامل : Uniformation ; Ordination ; Superordination Subordination ; Socialisation.

٢ ـ عمليات البناء : Institutionalization ; Professionalization ; Liberation

٣ ـ عمليات الهدم : Exploitation ; favoritism ; ossification ; radicalization Commercialism ; Perversion.

على الأفراد الداخلين فى نطاقها اعتبارات تجعلهم يشعرون بأنهم «وحدة متجانسة homogeneous unit » وبهذه الصفات تتميز الجماعات الجماهير . أما الجماعات الروحية المجردة فهى التى تمتاز بالبنيان الاجتماعى المنظم وبالناحية الوظيفية بدون اعتبار الى التجانس المحدود بين زمرة من الأفراد ( كما هو الحال بصدد الجماعات ) وتعتبر الدولة والكنيسة هما أرقى نماذج هذه الجماعات المعنوية (١) .

هذه هى أهم نظريات ( فون فيزى ) والحق لقد جمع ثروة طائلة من الحقائق المتصلة بالعمليات الاجتماعية ، بيد أن تصنيفها على النحو الذى أشرنا اليه يدلنا على أنه كان نظريا أكثر منه واقعيا ، فقد وضع مقومات مجردة لاحياة فيها . ثم ان مهمة التصنيف فى ذاتها مهمة شاقة وعسيرة ومشكلة على الباحث وذلك نظرا لخضوع التفاعلات الاجتماعية لعناصر تجل عن الحصر وتفلت بطبيعتها من رقابة الباحث مهما كان حذرا ودقيقا . هذا ، الى أنه لم ينجح فى تحديد ميدان العلم وبالرغم من أنه اعترف بأنه علم نظرى فانه لم يستخدم هذا التعريف فى دراسة الحقائق التى ينبغى أن تدخل فى نطاقه واقتصر على دراسة الناحية السلوكية فى أضيق الحدود . وأخطأ ( فيزى ) فى اعتبار علم الاجتماع علما خاصا مميزا فى ذاته عن العلوم الاجتماعية الجزئية . فهذا تصور خاطىء لتقرير الوضع الأمثل لعلم الاجتماع لأنه من غير شك « العلم التركيبى Synthetique الذى يؤلف بين العلوم الاجتماعية وينحو بها نحو التكامل مادامت تنبع كلها من طبيعة الحياة الاجتماعية وتستمد حقائقها من المجتمع .بيد أن هذه الانتقادات الجزئية لاتقلل من عظمة دراساته التى تمثل علما اجتماعيا منهجيا Systematic Sociology

### ٢ ـ هانز فرير Hans Freyer

ولد عام ١٨٨٧ فى مدينة برجستاد . ساهم فى صباه فى كثير من الجمعيات والحركات الثقافية والتيارات السائدة ، وظهر أثر ذلك فى

(1) Barnes ; An Introduction to the History of Sociology p. 281.

أشعار شبابه . أدى دوره كاملا فى الحرب العالمية الأولى وأصيب عدة مرات ولكنه أنقذ . وفى عام ١٩٢٠ عاد الى حياته الجامعية مدرسـا للفلسفة فى جامعة ( ليبزج ) ونشر فى هذه الفترة بحوثا سمت به الى مصاف علماء الاجتماع البارزين . واهتم بصفة خاصة بعلم الاجتمـاع الثقافى . وفى عام ١٩٢٢ عين أستاذا للفلسفة بجامعة ( كيل ) وبعد ثلاثة أعوام أى فى عام ١٩٢٥ عاد الى جامعة ( ليبزج ) ليكون رئيسا لمعهد أنشىءحديثا هو «معهدعلم الاجتماع Institute of Sociology» وفى عام ١٩٣٣ عين مديرا « لمعهد الثقافة والتاريخ Institute of Cultural and Universal History ومنـذ عـام ١٩٣٨ كان أسـتاذا زائـرا فى جامعة بودابست حتى أواخر أيامه . وكان «فراير » من أنصـار النازية ومن أبلغ المؤيدين لها بالرغم من أنه لم يستفد من ذلك . ولعل الدافع الى اسرافه فى تأييدها هو اعتقاده فى أن هنـاك حلا سـياسيا وحيدا للخصومات الاجتماعية ومظاهر العداء بين أمم العالم .

استفاد فرير من مختلف المدارس الألمانية وانعكست فى فلسـفته أضواء من كبار فلاسفة الألمان . وتتلمذ بصفة خاصة على لورنز وفون شتين وتبنى كثيرا من آرائه الاجتماعية . ويبدو أن هذا المفكر هو الذى أوحى اليه بالوظيفة الثورية التى ينبغى أن يؤديها علم الاجتماع المعاصر بوصفه نظرية عامة للثـورة الاجتماعية . فقـد بدا « لفرير » أن علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر ليس الا بداية لعلم جديد وتصـور جديد ولد ولادة طبيعية فى أحضان الثورة الصناعية . ان الثـورة البورجوازية فى هذا العصر الجديد هى التى حددت موضوع عـلم الاجتماع وهو دراسة المجتمع الصناعى . ويرى أن المجتمع البورجوازى ليس نظاما جديدا ولـكنه عملية تتطلب اعادة التـوازن فى النظـام الاجتماعى . ان هذا المجتمع فى نظره عبارة عن فترة تاريخية بين نظامين اجتماعيين : أحدهما انهار منذ القرن الثامن عشر ، وثانيهما نشأ فى ظل

النظام الاجتماعى الحاضر . ووظيفة عالم الاجتماع هى أن يصف ويشرح ويترجم عن هذه العملية التاريخية (١) ولذلك يذهب « فرير » الى أن علم الاجتماع لابد أن يعتمد على التاريخ ، ويأخذ حقائقه المادية من أصولها التاريخية ، بيد أنه ليس مجرد تاريخ وصفى «historiography» فالأشكال الاجتماعية فى نظره أشكال تاريخية ولها أصول تاريخية لأنه لايعترف بأن المجتمع له صـــفات نوعية كلية ( كما تذهب الى ذلك المدرسة الفرنسية الاجتماعية ) ، ولا يعترف كذلك بأنه مجرد أشـــكال صورية مجردة ( كما تذهب الى ذلك مدرسة سيمل ) ولكن هنـــاك نماذج من البنيان الاجتماعى حدثت تاريخيا على درجات يمكن أن تنتظم فى سلاسل اجتماعية تاريخية . ( وذلك مثل النظم التيوقراطية والاقطاعية ونظام الطوائف والطبقات الاجتماعية والاقتصادية ) . ان هذه النماذج فى نظره ليست « مقولات صورية Formal categories » انها مفاهيم نوعية لها دلالتها النفسية والتاريخية لأنها قامت نتيجة ظروف وملابسات وعمليات اجتماعية ارتبط فيها الأفراد ارتباطا فعليا محســوسا . وهى مرتبطة زمنيا ولها قرائن تاريخية » (٢) .

ويرى «Freyer» أن علم الاجتماع بوصفه معبرا عن طبيعة العصر الحاضر ينبغى أن يدرس مظاهر الصراع والخصومات القائمة فى قلب المجتمعات المعاصرة ويعاون فى حل المشكلات التى تنوء بها . وذلك بتحليل الأنماط والنماذج الاجتماعية والوقوف على الميول المتعارضة والاتجاهات المنفرة السائدة بينها . أى أن هـــذا العلم لابد أن يهتم بتقييم العمليات الاجتماعية ، وتقدير فاعلية القيم الاجتماعية ، والعوامل الديناميكية المؤثرة فى تكوين هـــذه الأجهزة والأنماط الاجتماعية «Social structures» (٣) .

---

(1), (2) Barnes : Ibid p. p. 365,366.

(3) Gurvitch; More; Twentieh Century Sociology p. 593.

### ٣ ــ اميل ليدرر E. Lederer

ولد في عام ١٨٨٢ وتوفي عام ١٩٢٩ . أولى مــزيد اهتمامه الى دراسة الاقتصاد الاجتماعي ولاسيما الاتجاهات الاشتراكية المعتــدلة لأنه كان من الناقدين لفلسفة كارل ماركس وكان من المؤيدين لفلسفة ( ماكس وبر ) وتأسى خطاه في نقد ماركس . ووضح أثر هذه الاتجاهات في نمو طبقة متوسطة جديدة (١) . ودرس النواحي المتعلقة بالثقــافة واللغة والفن ومبلغ تأثرها بالعوامل الاجتماعية المسيطرة على البيئة .لأنه كان من أقوى أنصار مدرسة الاجتماع الثقافي .وفي كتابه عن مشاكل هذا العلم قرر أنه من الممكن قيام علم اجتماع جديد للأدب والشعر . وطبق هو نفسه منهجه على التفسيرات الاجتماعية للفن المعاصر (٢) . وكان من أنصار « نظرية الدولة » وكتب كتابا محللا المقدمات الاجتماعية « لكلية الدولة وسيادتها الكاملة (٣) » . وفي هــذا الكتــاب عرض للنظريات الاشتراكية ولاسيما اشتراكية رأس المال ومبلغ أثرها في تحقيق مجتمع لاطبقي تختفي في ظله المساوىء والهوات الطبقية (٤) . ومع ذلك لم يتخل عن نقد ماركس وتفنيد ماديته التاريخية وتصحيح نظريته عن نمو وازدياد خطر طبقة البروليتاريا .

### ٤ ــ كارل مانهيم K. Mannheim

ولد عام ١٨٩٣ وتوفي عام ١٩٤٧ . ووجه عنايته الى دراسة نظرية المعرفة في ضوء المنهج الاجتماعي ولذلك يعتبر من أقوى علماء المدرسة الألمانية التي وضعت دعائم « الاجتماع الثقــــافي Kultursoziologie» وعلم اجتماع المعرفة الانسانية«Wissensseziologie» وكان في دراساته يحاول أن يفسر الظواهر موضوع الدراسة بالرجوع الى العوامل البيئية والظروف الاجتماعية ويكشف عن وثيق الصلة بين المعتقدات والأفكار

---

(1) Emil Lederer ; The New Middle Class.

(2) Emil Lederer ; Aufgaben einer kultursociologie.

(3) Emil Lederer ; The State of the Masses.

(4) Gurvitch; Moore; Twentieth Century Sociology p. 602.

ومظاهر الثقافة وما اليها وبين عواملها الاجتماعية . وكان من الناقدين لفلسفة كارل ماركس والمتأثرين باتجاهات الفيلسوف «دلثى» فى هذا الصـــــدد .

* * *

**خامسا ـ المدرسة الاتنلوجية (( مومسن ))**

انتشرت فى المانيا اتجاهات نحـــو التعصب العنصرى أو الجنسى ( الاتنلوجى ) وارتبطت هذه الاتجاهات بالأوضاع والمطالب السياسية لاســــيما فيما يتعلق بالنزاع الدائم بين المانيا وفرنسا على مقاطعتى الألزاس واللورين . فكل منهما تطلب انضمام هاتين المقاطعتين اليها . ودخل علماء الدولتين فى مساجلات حول الأصول الأتنلوجية لسكانهما وضغط العلماء الألمان على النـــاحية العنصرية ، واهتم علمـــاء فرنسا بالرغبات والاتجاهات الاجتماعية . ومن ثم ارتفعت هـــذه المساجلات الى نظرية علمية تستمد مقوماتها من التحليل المادى لحقائق الموضوع .

ذهب أصـــحاب المدرســـة الألمانيـــة فى تفســـير نشـــأة الأمة بالرجوع الى « وحدة الجنس » واعتمد هؤلاء فى تبرير مذهبهم على الاشتقاق اللغوى لكلمة « أمة » اذ يعبر عنها فى اللغات الحديثة بكلمة (nation) وهذه الكلمة مشتقة من الأصــــل اللاتينى «natus» ومعناه الولادة والانحدار من جنس واحد وأصل مشترك . وعلى هذا الأساس اعتبر أصحاب هذه النظرية الأمة ( تصورا اتنولوجيا ) وميزوا بينها وبين الدولة التى اعتبروها «تصورا سياسيا وشخصية قانونية[1]» واعتبروا أن وحدة الجنس هى أساس الحياة الاجتماعية وأن كل جنس يشكل مجتمعه بمقتضى طباعه وخصائصه الموروثة حتى تبدو مظـــاهر النشاط الاجتماعى وكأنها صورة طبق الأصل لصفات الجنس ومميزاته وخلقـــه .

ويذهب غلاة هذه النظرية الى أبعد من ذلك فيقررون أن المجتمع من حيث هو قوة ذاتية لاوجود له ، وأن الموجود هو وحدة الجنس التى

---

(1) R. N. Gilchrist ; Principles of political Science p. 55.

تكافح فى سبيل البقاء ويجب أن تقاوم وتصارع لأن الشعوب لاتموت بانهزامها فى الحروب ولكن عندما تفقد وحدتها الجنسية وتضعف قوى المقاومة الكامنة فى دمها . فاذا انهارت وحدتها الجنسية أصابها الاضمحلال والهرم .

ويمكننا أن نلخص الدعائم التى ترتكز عليها هذه النظرية فى مبادىء ثلاثة : الأول : المجتمعات الانسانية لايمكن أن ترد الى جنس واحد بل هى خليط من الأجناس . والثانى : هذه الأجناس متفاوتة فى خصائصها وفضائلها وسماتها العامة . والثالث : العامل الأساسى فى التقدم أو التأخر الاجتماعى هو الجنس . والحضارة والثقافة وليدة الاجناس السامية وعامل الجنس هو العامل الذى يسيطر على كافة المشاكل التى تنشأ فى جو المجتمع وهو المفتاح الوحيد الى حلها وفهمها . وفى ضوء العامل الاتنلوجى يمكننا أن نفسر أو نبرر كل موجات التقدم أو الانهيار التى شهدتها الشعوب (١) .

وقد اعتمدت هذه النظرية فى تقسيم الأجناس على اعتبارات كثيرة أشهرها الفروق الفيزيقية مثل لون البشرة ولون الشعر وشكله ولون العينين ونسبة عرض الرأس الى طولها وشكل الجبهة والأنف والفك الأسفل وما الى ذلك من السمات الفيزيقية التى نلاحظها عادة بين مختلف الأجناس . بيد أن صعوبات كثيرة أثيرت ضد هذه النظرية حول ارتباط هذه الصفات والفروق الجسيمة بالقدرات والملكات الكامنة فى مقومات كل جنس .

ويرى أنصار هذه المدرسة ولاسيما العلامة ( مومسن Mommsen أن التقسيمات السياسية الصناعية التى كانت نتيجة عهد الاقطاع أو تزاوج الأمراء أو المؤتمرات السياسية ، تقسيمات لاتدوم ومآلها الزوال والانهيار لأنها لاتقوم على أساس سليم . أما التقسيم الصحيح فى نظرهم فهو التقسيم الذى لايقوم على أساس «وحدة الجنس» لأن هذا المبدأ يعتبر الدعامة الجوهرية فى تكوين الأمم وهو الذى يعطى الأفراد

(1) Gobinau; Essai sur L'Inégalité des Races humains. Paris 1855, p. 16-30.

المنتمين الى جنس واحد حقا مشروعا فى تكوين أمم مستقلة لها صفاتها وخصائصها المميزة . ومن ثم ، فان الدولة الألمانية لها الحق الشرعى فى أن تسترد كل أعضائها وأفرادها من الأصل الجرمانى المشتت حتى ولو كان هؤلاء لايرغبون رغبة أكيدة فى الانضمام اليها . لأن حق الجنسية الألمانية يجب أن يكون أقوى وأعنف ، فى أية ولاية من الولايات التى يرجع سكانها الى الأصل الجرمانى ، من أية رغبة أو تيارات أخرى تسود هذه الولايات . أى أن أنصار هذه النظرية خلقوا لنا بصدد نشأة الأمة نوعا من الحق الأولى الضرورى (a' priori) مماثلا تماما لحق الملوك المستمد من الحق الالهى .

وترجع هذه النظرية الى العصور القديمة وتستمد مقوماتها من التقاليد الموروثة التى كانت تؤيد فكرة التمييز أو التفوق العنصرى وذلك منذ عصر اليونان والرومان . حيث لعبت فكرة « شعب الله المختار » دورا هاما فى شئون الاجتماع والسياسة والقانون . ثم جاءت المسيحية وكان لانتشارها فضل كبير فى القضاء على فكرة التعصب الجنسى . اذ كان فى تعاليمها وخصائصها العامة وفى اعتناق مختلف الأجناس لها ما جعل الأفراد يستخفون الى حد ما بقيمة الأصول الاتنولوجية التى انحدروا منها . ومايقال عن المسيحية يقال أيضا عن الديانة الاسلامية . فقد كان من نتيجة هذه الحركات التاريخية الهامة أن اختفى منذ قرون العامل الاتنجرافى ولم تعد له قيمة يعتد بها فى بحث مسائل الانسانية .

ومن الحركات التاريخية الهامة التى ساعدت على اضعاف روح التعصب للأصل الواحد ما استهدفت له أوربا بصفة خاصة من هجوم البرابرة . فان الغزاة استطاعوا أن يندمجوا ويتصاهروا مع السكان الأصليين . وقد تولد عن ذلك جيل جديد مغاير فى أصوله لأجناس الغزاة والمواطنين . وحدث فى القرون الوسطى أن كون شرلمان امبراطوريته وكانت تمتاز بالوحدة القومية مع أنها مكونة من فلول جنسية . وعندما فكر الساسة فى تقسيم هذه الامبراطورية نجد أنهم فى معاهدة « فردون » لم يعملوا حسابا لتلك الأجناس التى تقوم على خطى

التقسيم أو حوله . هذا ، الى أن الحركات السياسية التى قامت حول تعديل الحدود فى القرون الوسطى كانت بعيدة عن الميول والرغبات الاتنلوجية . وهذا ما لوحظ فى تخطيط أوربا الحديثة وتعديل حدود الدول . كل هذه الأمور تدلنا بوضوح على أن الاعتبارات الاتنولوجية لم تكن لها بصدد قيام الأمم ونشأتها تلك الأهمية التى بالغ فى تقديرها أصحاب نظرية « وحدة الجنس » فلاشك أن التعصب لهذه الاعتبارات آخذ فى الضعف وفكرة الأصل الواحد أو الجنس المشترك فى طريقها الى الزوال .

بيد أن اعتبارات كثيرة فى العصر الحديث أثارت فكرة العنصرية وأعادتها الى الحياة مؤيدة بالأدلة وبالمغالطات التاريخية وكان هدفها تبرير الحروب وتأييد الاستعمار والمطالب السياسية . واتخذت من الرقى الحضارى الذى وصلت اليه بعض الشعوب الأوربية أدلة ترتكز عليها فى تأييد فكرة التفوق العنصرى باعتبار أن الشعوب التى أظهرت تفوقا وحضارة جديرة بأن تسود وتتزعم غيرها . ومن تم فانه يجب على شعوب أوربا أن تستعمر شعوب افريقية وآسيا وتتولى الوصاية عليها.

وقد تبلورت كل هذه الاعتبارات فى الفلسفة النازية التى كانت تعتبر الجنس الجرمانى هو أسمى الأجناس وهو الجدير بحمل مشعل الحضارة وهو الذى اختاره الله لتحرير الانسانية . وبالرغم من أن الفكرة العنصرية بلغت أقوى صورها فى عهد النازية الألمانية ؛ غير أنها لا تزال تسيطر على أفكار الاستعماريين ؛ وتتحقق بدرجات متفاوتة من القوة والشدة فى جميع البلاد الرأسمالية وفى جميع الشعوب التى ترتكز نظمها على الاستغلال الاقتصادى . ففى افريقية الجنوبية حيث يعيش أغلب السكان الأصليين فى ظل اضطهاد عنصرى لا مثيل له ؛ تقوم فكرة التمييز العنصرى بحكم القانون . وفى أمريكا التى تعيش فيها أقليات كثيرة من الزنوج والشعوب الآسيوية ؛ بالرغم مما وصلت اليه من مراتب الحرية والديمقراطية،فان فكرة التفوق الجنسى والتمييز العنصرى لا تزال مؤيدة بالعرف والتقاليد وبحكم الأوضاع الاجتماعية.

فلا تزال الفظائع ترتكب باسمها ولاتزال الزراية والتحقير تلحق هـذه الأقليات بدون أن ينجح التشريع الأمريكى فى القضـاء عليها . ولم ينجح المجتمع الأمريكى فى وضع تربية اجتماعية من شأنها أن تقضى على هذه الهوة الاتنلوجية وتقلل من أثر الفروق العنصرية . فلا يزال زنوج أمريكا يعيشون فى مستوى أقل بكثير من مستوى معيشة الأمريكيين؛ ولا يزال العمال منهم محرومين من اعتبارات اجتماعيـة كثـيرة ومن المساواة أمام القانون ومن مبدأ تكافؤ الفرص فى كثير من الحالات . وهذا يدلنا على أن النظرية استغلت استغلالا دنيئا لخـدمة أغـراض استعمارية واستغلالية .

ولذلك كانت هذه النظرية هدفا لانتقادات كثـيرة واعتراضـات جوهرية تجعلنا نتردد فى التسليم بصحة المبادىء التى ترتكز عليهـا ؛ وتدلنا على التعصب الشديد الذى بدأ من جانب العلمـاء الألمـان فى الدفاع عنها لا يقوم على أساس مكين.

حقا ان الوحدة الجنسية هى احدى القواعد الكلية العـامة التى تقوم عليها الأمة وهى خاصة مميزة لمعظم الأمم التى ظهرت فى التاريخ. بل ان مجرد الاعتقاد فى الأصل المشترك سواء كان هـذا الاعتقـاد حقيقيا أو صوريا قد يكون كافيا فى تقوية روابط القومية . بيـد أنه لا يمكننا تحديد الدور الذى يلعبه الجنس فى حياة المجتمعات ؛ وليس هناك تبرير تاريخى لانفراد جنس من الأجناس بالمجد والسـمو دون غيره ؛ وليس هناك أساس علمى لتفسير الحضارة على أساس الجنس . لأن تفسيرا هذا شأنه يتطلب أولا تحديد الأصول الجنسية ومعـرفة مهاد نشأتها والطرق التى سلكتها فى انشعابها .

ومن الانتقادات الموجهة الى هذه النظرية أنه ليس ثمة جنس خالص نقى لأننا نلاحظ بالدراسة والتجربة أن الأجنـاس فى الأمم الحديثـة مختلطة لدرجة يصعب معها تحديد العنـاصر الاتنلوجيـة فى المجتمع الواحد . ومما يزيد الأمر تعقيـدا أن ( علم الأجناس ) لم ينجح حتى العصر الحديث فى وضع نظرية دقيقة لتمييز الأجناس المختلفة ولم يتفق علماء الأتنلوجيا والاتنجرافيا على نظرية واحدة مسلم بها فيمـا يتعلق

بالتوزيع الاتنلوجى وخصائص ومميزات كل جنس من الأجناس . ولا تجد بينهم اتفاقا على الأصول الاتنلوجية وفروعها ومهد كل منها والظروف الجغرافية والتاريخية التى خضعت لها فان الآراء بين الخبراء والعلماء بصدد هذه الأمور لاتزال حتى عهدنا هذا مضطربة وغير مستقرة .

ولا أدل على فساد هذه النظرية من أن أعظم الأمم الحديثة رقيا وحضارة ، وأقواها شعورا بالوحدة وبالقومية ، هى الأمم التى اختلطت فيها الأجناس والأصول . فمثلا ترجع الأمة الفرنسية فى تكوينها الاتنلوجى الى أصول كلتية وجرمانية وايبيرية ؛ وترجع الأمة الايطالية الى مجموعة معقدة من الأصول الجنسية فقد امتزج فيها الدم الغالى والأتروسكى والبلاسيك والألبى واليونانى وغير ذلك من الأصول التى التقت فى ظروف غامضة وانصهرت فى وحدة اجتماعية . وترجع الأمة البريطانية الى عناصر كثيرة أهمها العنصر الجرمانى والكلتى والسكسونى . وغنى عن البيان أن أبلغ حالة لاختلاط الأجناس وتفاعل العناصر الاتنلوجية المختلفة ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية . فان هذه الولايات على ما فيها من اختلاف وتباين من الوجهة الجنسية والأصول المشتركة ؛ فقد أصبحت الآن مميزة من الناحية القومية .

هذه أمثلة من الأمم التى اختلطت فيها الأجناس والأصول مع أنها من أقوى القوميات الحديثة وأشدها اتحادا . فهل سلمت ألمانيا نفسها من هذا الاختلاط ؟ وهل ترجع جميع عناصرها الى أصل جرمانى خالص ؟ لاشك أن هذا وهم وتعصب من جانب أصحاب هذه النظرية لأن الجزء الجنوبى منها يغلب فيه الجنس الغالى ؛ ويرجع معظم الجزء الشرقى الى الأصل السلافى . على أن الأجزاء الأخرى التى يظن أنها من أصل جرمانى خالص لم تكن كذلك فى الحقيقة لأنها خضعت فى كثير من أطوارها التاريخية لدوافع الاختلاط وعوامل التفاعل .

ومما يزيد فى فساد هذه النظرية أن بعض الشعوب التى تتفق فى الناحية الاتنلوجية قد تكون متمايزة من الناحية القومية . فالانجليز

والسكوت متشابهان اتنلوجيا ولكنهما متمايزان من الناحية القومية ؛ والدانيمارك والشعوب الاسكندناوية من جنس واحد تقريبا ولكنها تكون مجموعة متميزة من الأمم لكل منها قوميتها ووحدتها .

وكما أخطأت هذه النظرية فى تصوير ما قد كان وما هو كائن فقد أخطأت كذلك فى تقرير ما يجب أن يكون . فان ما تقرره فى هذا الصدد يتعذر تحقيقه فهناك استحالة مادية تمنع من اعادة توزيع الأمم على هذا الأساس أو على الأقل تشجع مثل هذا الاتجاه على الانتشار لأن اجراء من هذا القبيل يفقد العالم حضارته ويسبب اضطربا خطيرا فى الأمم القائمة وانقساما لا مثيل له فى تاريخ العالم . انه من الصواب أن يقال ان فكرة الجنس كانت لها أهميتها فى قيام القبائل والأمم القديمة لأن القبيلة أو المدينة لم تكن سوى امتداد للأسرة أو البطن فى أبسط صورها ؛ ولكن العالم سرعان ما انتقل من نظام المدينة البسيطة الى نظام الامبراطوريات الواسعة التى تكونت أولا بالغلبة والقهر ثم استقرت على أساس المصالح المشتركة .

وفوق ما تقدم ؛ نذكر أصحاب هذه النظرية بأنه ليس هناك دليل مادى على أن شعبا استطاع وهو فى عزلة عن التيارات الحضارية وبمنأى عن اتصاله بالشعوب الأخرى أن يبتدع حضارة أصيلة مميزة فى ذاتها . اذ تبين بالتحليل والبحث المقارن أن الحضارات الانسانية انما قامت نتيجة تفاعل الثقافات الانسانية المختلفة وامتزاج المدنيات التى نشأت فى مختلف الأصقاع . فالبلاد التى ركنت الى العزلة وتجنبت الاختلاط قد أصابها التأخر والجمود وأخذت فى الهرم والانحلال مهما كانت الأصول الاتنلوجية التى تنتمى اليها . لأن الحضارة لم تكن فى وقت من الأوقات من صنع أمة معينة أو من خلق قارة دون أخرى ؛ أو وقفا على جنس دون سائر الأجناس .

ولكنها ثروة الانسانية ورأس مال الشعوب ؛ ساهم فيها كل جنس بنصيب يذكر وتناقلتها الأجيال وأضافت اليها كل أمة ما استطاعت أن تصل اليه بفضل قدراتها الخاصة . والدليل على ذلك أن الفضل فيما

قطعته الحضارة الحديثة من مظـاهر الرقى والعظمـة انمـا يرجع الى الشعوب التى اختلطت فيها الأجناس وامتزجت الأصول والسـلالات كالشعوب الأمريكية والانجليزية والفرنسية والألمانية .

وبعد هذا التحليل يتضح لنا فساد النظرية العنصرية . فالأمةليست وحدة اتنلوجية ولكنها ذات روحية أو نفس روحية حية ترجع فيآخر تحليلها الى مقومات كثيرة : بيئة ولغة وجنس وتاريخ مشـترك وتراث اجتماعى ودين . ونحن اذا نظرنا اليها بوصفها حقيقة اجتماعية متبلورة واعتبرناها ثمرة ماض طويل وتتيجة تاريخ شاق انتهى بهـا التطـور الاجتماعى الى ما هى عليه...اذا نظرنا الى الأمة فيضوءهذهالاعتبارات يمكننا أن نقول انها قوة روحية ترتكز على دعامتين جوهريتين نكشف عن أحدهما فى ماضيها ونلمس الآخر فى حاضرها ومستقبلها .

الدعامة الأولى هى اشتراك الأفراد فى قدر كبـير من الذكريات الحافلة بالتضحيات والآلام والآمال . هذا الارث التـاريخى تركز فى عقول الأفراد ورسب فى تكوينهم النفسى . فنشأ الأفراد وهم يشعرون بقوة ضغطه عليهم وذلك لأنهم يشاركون فيه بالضرورة . وعن هـذا الطريق أصبح التراث التاريخى أساسا لوحدتهم الاجتماعيـة ودعامة لتضامنهم القومى . ولاشك أن الوحدة التى تنشأ عن هذا الاعتبـار تكون أشد رابطة وأقوى فاعلية من أى اتحاد آخر .

والدعامة الثانية : هى الرضى والقبول الفعـلى الذى تتجـاوب أصداؤه بين جميع الأفراد ورغبتهم الصادقة فى أن يعيشوا مجتمعين فى ظل النظام والحرية وعزمهم على الاحتفاظ بذلك الارث التـاريخى الذى ورثوه معا وتواتر اليهم بالاشتراك ، واتفـاقهم على الاعتزاز به والابقاء على قيمته الأخلاقية .

فالانسان ليس أسيرا لجنس ما أو لغة أو دين معين ، وليس أسيرا لمجموعة من الحدود الطبيعية أو الحواجز الجغرافية ، ولا يتحـكم فى قوميته نهر أو مرتفع . ان اجتماع الأفراد واتفاقهم وتوحـد مواقفهم وخضوعهم لظروف ومناسبات تاريخية ورغبتهم الصادقةفى بذلتضحيات

فى سبيل المحافظة على تراثهم التاريخى والقومى هذه الأمور المعنوية من شأنها أن تخلق فى المجموع كائنا أخلاقيا شاعرا بقوته وبذاته . هذا الكائن المعنوى هو ما يسمى بالأمة أو القومية . (١)

***

### سادسا ــ مدرسة السيسيو جرافيا (راتزل)

تذهب هذه المدرسة الى أن ظواهر المجتمع وليدة البيئة وظروفها الطبيعية ؛ والبيئة هى العامل الفعال الذى يقرر بقاء النوع وتطوره . وعارضت هذه المدرسة نظرية الجنس التى شرحناها فى الفقرة السابقة. وتحمس لها كثير من المفكرين وأشهرهم « فردريك راتزل Friedrick Ratzel » الذى أنشأ علما جديدا سماه « جغرافية الانسان Anthnopogeography » وهو الذى وضع كذلك دعائم « الجغرافيا السياسية (٢) » وتدور معظم بحوثه حول تأثير البيئة فى توجيه الثقافة . وفسر انتشار الانسان على سطح الأرض وقيام الثقافات المتباينة تفسيرا جغرافيا معتمدا على البحوث التى قدمها استاذه « فاجنر Wagner » صاحب نظرية « تنوع الأجناس تحت تأثير الهجرة والانعزال » وقد تحمس راتزل لنظرية البيئة الى حد أنه قرر أن الانسان ليس الا قطعة من الأرض التى يعيش عليها ؛ وقرر أن مظاهر الاختلاف بين الشعوب فى ثقافتها وفنونها ومستويات تفكيرها وخلقها القومى لا ترجع الى عوامل اتنولوجية وراثية ولكنها ترجع فى حقيقة الأمر الى ظروفها البيئية ومبلغ ما خضعت له من مؤثرات طبيعية . وفى ضوء هذه المعالم الجغرافية يمكننا أن نفسر كل القوالب والأوضاع الاجتماعية . وعقد مقارنات بين الظواهر الاجتماعية ولاسيما السياسية وبين أحكام البيئة ومقتضياتها . ووصل فى هذا الصدد الى أحكام وقضايا توضح مبلغ ارتباط الأوضاع السياسية بالتحديدات البيئية(٣).

---

١ ــ الأمة : نشأتها ودعائمها الاجتماعية للاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب

(2) Ratzel ; Politische Geographie (1903).

(3) Sorokin ; Les theories Sociologiques Contemporaines. p. 134 Sqq.

وقد أيدت نظرية البيئة بطريق غير مباشر « المذهب الفردى » باعتبار أن الفرد هو العنصر المتأثر بصفة مباشرة بأحكام بيئته . أما الأحكام الاجتماعية فهى أحكام مصطنعة تمليها ارادة العناصر المتحكمة فى المجتمع تنفيذا لمصالحها الخاصة . وقد تجلت صلة «المذهب الفردى» بنظرية البيئة فى الآراء التى عرضها هربرت سبنسر فى كثير من مؤلفاته(1).فصور فى هذه الكتب المجتمع المثالى الذى يقوم بالانسجام التام بين الفرد ومحيطه . هذا الانسجام الذى يتحقق فى رأيه فى تضييق مجال التدخل الحكومى فى شئون الفرد من جهة ، وتوسيع نطاق تمتع الفرد بحقوقه الطبيعية . هذا ، الى أن تدخل الحكومة يتعارض مع أحكام البيئة التى من شأنها أن تبقى الأصلح وتقضى على الضعيف والمريض الذى لا رجاء فيه .

وقد وجهت لنظرية « راتزل » انتقادات جوهرية أهمها :

١ ــ اذا جاز لنا أن نعتبر الانسان الأول قطعة من الأرض التى عاش عليها ، فان تطور الحياة الاجتماعية فك قيود الفرد من أسر البيئة وأحكامها القاسية . والدراسات الاجتماعية والانسانية تؤيد تناقص أثرها فى حياة الانسان الحديث . وأصبح هذا الأثر يتناسب عكسيا مع درجة ثقافته ومبلغ نصيبه من الحضارة .

٢ ــ تغفل هذه النظرية امكانيات الفرد . فهى تعتبره عنصرا منفعلا تجاه مؤثرات البيئة وآلة صماء تخضع لمحركاتها . وفاتتها حقيقة هامة وهى أن الانسان ، وهو الكائن الوحيد الذى اختصه الله بالادراك والتفكير ، قد استطاع أن يكيف بيئته وأن يخلق فى كثير من الظروف البيئة التى تلائمه . فهو كما يتأثر بالبيئة ، يؤثر فيها ويغير طبيعتها ويخضعها للتحولات التى تحقق ضرورياته ويقهر سلطانها عليه. فشق الأنفاق وعمر الصحارى وغير مجارى الأنهار ومصابها واستحدث وسائل المطر الصناعى . وهذه شواهد تنهض دليلا على تدخل ايجابى من جانب الجماعات لتكييف البيئات التى تعيش فيها .

---

(1) H. Spencer; Social Static; Principles of Sociology Man Versus The State ; Descriptive Sociology.

هذا ، وقد استطاعت المجتمعات بفضل وسائل الكشف العلمى آن تسيطر على البيئة والظروف الطبيعية وتوجهها الوجهة التى تخدم أغراضها . « فالبحار التى عزلت الجزر البريطانية فى القديم عن العالم المتمدين ، أصبحت الآن بفضل تقدم أسباب الحضارة شرايين تربطها بأجزاء العالم كله فى حين أن طبيعة الجزر البريطانية لم يحدث فيهاأى تبدل ظاهر ... وقد كانت الكهرباء فى الطبيعة منذ الأزل ، بيد أن الانسان لم يكن يعرف من أمرها شيئا . ولم يستطع استغلالها لفائدته حتى بلغت ثقافته درجة استطاع بفضلها أن يدرك تلك الحاجة ويكشف عن مبلغ ما تحققه له من خدمات » .

٣ ــ ومع التسليم بأن البيئة من العناصر الفعالة فى قيام الحياة الاجتماعية وفى تعجيل أو تأخير تطورها ، غير أنها لا تعتبر عاملا حاسما . لأن تطور الحياة الاجتماعية يسير بخطى سريعة جدا ، بينما تطور الوسط الجغرافى لا يكاد يتزحزح عن أوضاعه منذ آلاف السنين . ومثال ذلك أن أوربا مرت بعصور اجتماعية متلاحقة ومختلفة فى مقوماتها بينما لم تتزحزح ظروفها البيئية طوال هذه العصور . وهذا الجمود يدلنا على أن هناك عوامل كثيرة غير العامل الجغرافى هى التى تؤثر فى حياة المجتمعات وتدفع بها الى التقدم أو تنكص بها الى الوراء . فبجانب البيئة الجغرافية يوجد التراث الاجتماعى وما ينطوى عليه من عوامل ثقافية وحضارية وتاريخية وعوامل متصلة باللغة والدين والأصل المشترك . فالبيئة اذن ليست الا عاملا واحدا من عوامل كثيرة . وهى اذ تؤثر لا تعمل منفردة ، فآثارها لا تبدو واضحة الا فى تفاعلها مع باقى العناصر والقوى المؤثرة فى تطور حياة المجتمعات .

٤ ــ وفى ضوء الاعتبارات التى أشرنا اليها نستطيع أن نقرر أنه لا مجال لصحة القضية التى نادى بها « راتزل » وهى أن الانسان صنيعة البيئة وأنه قطعة من الأرض التى يعيش عليها . وأن هذه القضية يجب أن تصحح بأن يضاف الانسان بوصفه ممثلا للمجتمع الى البيئة عندما ندرس طبيعة الحياة الاجتماعية .

وقد حاول أنصار هذه المدرسة من الشعبة الفرنسية تصحيح بعض وجوه الخطأ فى نظرية البيئة كما يبدو ذلك فى بحوث العلامة «Brunhes» ولاسيما فى كتاب «الجغرافية البشرية Geopraphie Humaine وكما يبدو في بحوث العلامة «E. DeMolin's» الذى أضاف الى البيئة أثر العامل الديموجرافي . ووضع فى هذا الصدد بحوثا كثيرة جعلها موضوعا لعلم جديد هو علم « الجغرافية الاجتماعية Sociographie » بيد أن هذا الاتجاه لا يخلو من ضعف . حقا ان نمو السكان عامل هام فى تطور الحياة الاجتماعية اذ لا يمكن ان تقوم حياة اجتماعية بدون وجود نسبة معقولة من الكثافة السكانية. غير أن ذلك لا يعتبر عاملا أساسيا فليس ثمة أدلة تاريخية أو واقعية تثبت لنا أن تزايد السكان كان سببا قائما بذاته فى تطور الحياة الاجتماعية . فلو كان نمو السكان العامل الأساسى الوحيد الذى يشكل البنيان الاجتماعى ويتحكم فى تطوره لترتب على ذلك بالضرورة أن يكون هناك « تلازم فى الوقوع » بين زيادة الكثافة السكانية واطراد تقدم المجتمع . ولكن الحقائق التى بين أيدينا لا تنهض دليلا على صحة ذلك . فبلاد الصين التى يبلغ عدد سكانها أربعة أضعاف سكان الولايات المتحدة الأمريكية بقيت مستقرة فترة طويلة فى ظل نظام نصف اقطاعى وخاضعة لنظم اجتماعية تمثل مختلف درجات التخلف الاجتماعى ثم انتقلت فجأة منذ سنوات الى النظام الشيوعى فى حين أن الولايات المتحدة بلغت فى فترة قصيرة أعلى مراحل النظام الرأسمالى وتطورت الحياة الاجتماعية فيها بسرعة مثمرة . وكثافة السكان فى بلجيكا تزيد على كثافة السكان فى الولايات المتحدة . ومع ذلك لا ننكر أن بلجيكا تعيش فى مستويات اجتماعية أكثر انخفاضا من مستويات المجتمع الأمريكى . وتعتبر مصر من أكثر بلاد العالم تركزا فى نسبة الكثافة السكانية ؛ ومع ذلك فان حالتها ومستوياتها الاجتماعية لا تحسد عليها .

وفى ضوء هذه الأمثلة لا يصح أن نعتبر العامل الديموجرافى هو العامل الحاسم فى تعيين طبيعة البنيان الاجتماعى وهو المتحكم

فى طبيعة نظمه ومبلغ تطوره . وبذلك لا تقوى نظـرية « البيئـة » بذاتها على تفسير قيـام الحيـاة الاجتماعيـة والوقوف على عوامل تطورها .

***

## سابعا ـ فلسفة الظواهر

انتشرت فى ألمانيا منذ بداية القرن العشرين حركة علمية تعـرف باسم فلسـفة الظـواهر (Phénomenologie) . وهى الفلسفة التى نادى بهـا « هوسرل Husserl » وتزعمهـا من بعـده « ماركس شلروشتز M. Scheler; Schutez » وترمى هـذه الفلسـفة أولا وبالذات الى دراسة الظواهر بوصفها موضوعات معرفة وماهيات لها خصائصها الثابتة ويمكن الكشف عن حقيقتها بتحليلها كما تبـدو فى الشعور وكما تدرك بالحواس الظاهرة والباطنة . فهى فلسفة قريبـة الى حد ما من المناهج الميتافيزيكية والنفسية المجردة ؛ وهى من وجهة النظر العامة تحتل مركزا متوسطا بين المثالية والوضعية . فالبرغم من أنها وراء المثـالية ، بيد أنها تعلو عن الوضـعية ومناهجها (١) . وقـد حاول بعض أنصار هذه المدرسة من المشتغلين بالدراسات الاجتماعية الانتفاع بمبادىء هذه الفلسفة فى ميادين البحث الاجتماعى .وسنقول كلمة موجزة عن أقوى المؤيدين لها من رجال الاجتماع .

١ ـ ماكس شلر (١٨٧٣ ـ ١٩٢٨) يذهب شـلر الى أن تاريخ العالم هو تحقيق لارادة العالم ؛ وما نوابغ التاريخ الا أدوات اتخذتها تلك القوة العالمية لتنفيذ أغراضها . ويبدو أنه قرأ فلسفة«شو بنهور» وتأثر بقوله « ان العالم ارادة وفكرة » ثم درس الأشكال الاجتماعية كما تصورها « تونيس » ووصف هذا التصـنيف بأنه يرتكـز على أساس ارادى . ولذلك جاءت النماذج الاجتماعية التى تصورها عبارة

(1) Gurvitch ; Moore-Twentieth Century Sociology p. 609, 610.

عن نماذج ارادية «Types of will» والحقيقة أن الأشكال الاجتماعية انما هى عبارة عن نماذج من الانفعالات « Types of affections » وتختلف هذه الأشكال فى قوتها وفى مقوماتها وخصائصها تبعا لاختلاف طبيعة الانفعالات التى توحى بنشأتها . ومن ثم فان المشاركات والانفعالات الوجدانية لا يمكن أن تنفصل بطبيعتها عن المركبات الجمعية .

ويذهب فى تحليله لنشأة الحياة الاجتماعية الى القول بأن المؤثرات العاطفية والانفعالات الوجدانية من طبيعتها أن تنشىء علاقات سطحية بين الأفراد وتدعوهم الى ارتباطات من طبيعة جمعية . وعن هذا الطريق قامت الترابطات الانسانية التى تتمثل فى المعاشر والبطون والقبائل الأولى (Hords. وعن هذا الطريق كذلك تقوم « الجمهرة Crowds » فهو لم يميز بين هذين الشكلين وأقامهما على أساس نفسى واحد هو «الانفعال الوجدانى Emotional affections»(١).

ويقسم أشكام البناء الاجتماعى الى ثلاثة أشكال :

١ ـ ترابطات تقوم على أساس تبادل المؤثرات والانفعالات الوجدانية كما يحدث فى أضيق الترابطات الجمعية وفى التجمهر وفى تجمع الأفراد لأى سبب من الأسباب .

٢ ـ ترابطات تقوم على أساس الادراك الوجدانى وتبادل وجهات النظر . ويسيطر عليها التضامن الروحى الداخلى الذى من شأنه أن يوثق بين عناصر الترابط . وأفضل مثل لذلك الأسرة والعشيرة والقبيلة والمجتمعات المحلية بالاجمال .

٣ ـ وحدات اجتماعية تقوم على أساس ارادى وتفكير تقديرى . وفى مثل هذه المركبات الجمعية ينتقل التضامن الروحى من الداخل الى الخارج . فيصبح مفروضا على الأفراد . ومعنى ذلك أن شخصية جمعية قد نشأت أو كائنا اجتماعيا قد ولد فى قلب الجماعة وفرض نفسه على روح الترابط . وهذه الخاصة هى التى تميز

---

(1) Gurvitch ; Moore — Twentieth Century Sociology pp. 609—610.

هذا الشكل على الشكل السابق . ويعتبر ( شلر ) هذا الشكل أسمى الأشكال السابقة ويمكن التعبير عنه بالمجتمع العام ويتمثل كذلك فى الهيئات والجمعيات والمؤسسات ذات الطابع الاجتماعى .

ومن هذا التقسيم يتضح لنا أن شلر بالرغم من أنه نقد « تونيس » عاد فاستوحى آراءه فى « المجتمع المحلى والمجتمع العام » واتخذها أساسا لتصنيفه .

وذهب (شلر) الى أن هناك صورا اجتماعية « Volbilder; S. Images » تعبر عن المعايير والمثل الاجتماعية السامية التى ينبغى أن تكون موضوع التقليد والمباهاة «Imitation; Emulation» وتتناول هذه الصور كل وجوه النشاط الاجتماعى ومظاهر السلوك الرفيع ( القويم ) والشخصيات المثالية (كصورة البطل والعبقرى والقديس) ولذلك نراه يعتبر هذه الصور هى القوى الموجهة لكل مظاهر السلوك الاجتماعى (1).

هذا واذا تعمقنا فى دراسة فلسفة ( شلر ) نجد أنها تمثل رواسب لمدارس عديدة : نجد مثالية هيجل ؛ وفلسفة تونيس ؛ وميتافيزيقية هوسرل ؛ وسيكلوجية فونت ؛ ومن اليهم من فلاسفة سابقين ومعاصرين مما لا يتسع المقام لتفصيله .

٢ — فركانت Vierkandt

تتلمذ على سيمل وجمع فى فلسفته بين الصورية والظواهرية : ومزج بينهما بدرجة لا تفيد علم الاجتماع الوضعى . فقد اعتبره العلم الذى يدرس الأحوال « «modes الناشئة عن الارتباطات الداخلية «inner Connectedness» دراسة وصفية تحليلية باعتبارها ظواهر «Phénomenés» ويحاول فى دراسته اياها أن يفسر أشكالها ويقيس درجاتها ويصل الى القوانين المنظمة لها . وهو فى هذا الصدد يخلط بين فلسفات ثلاث : الظواهرية والنفسية والصورية . ودرس

(1) Ibid, p. 610.

« فركانت » الأشكال الاجتماعية والعمليات والعلاقات والتفاعلات المتبادلة بين الأفراد . وهو فى هذه الدراسة لم يميز بينهما تمييزا واضحا واعتبرها جميعا حقائق اجتماعية .

٣ ــ شوتز Schutez

تأثر بفلسفة البراجماتزم الى جانب تأثره بفلسفة هوسرل وبرجسون . درس السلوك والأفعال الاجتماعية وميز بينهما : فالسلوك هو التجارب الايجابية التى تنعكس على الأفراد ؛ والفعل هو تنفيذ لفكرة أو لمشروع احتل جانبا من الشعور قبلا . وقسم التجمعات التى يعيش فيها الانسان الى أربعة : هيئات أو جماعات اجتماعية (associates) وهى التى يتعامل معها الفرد بصفة مباشرة ويدخل معها فى تجارب ومؤثرات متبادلة ؛ وجماعات معاصرة (Contemporaries) وهى الجماعات التى تقوم على علاقات غير مباشرة، ثم تجمعات سابقة وأخرى لاحقة (Prédecessors; Successors) وفى نظرى أن هذه التصانيف تنتهى فى آخر تحليلها الى تشويه للحقائق التى ذكرها العلامة تونيس فى التفرقة بين المجتمع المحلى والمجتمع العام . وهى تصانيف أقرب الى الآراء الفلسفية الخاصة وأبعد ما تكون عن طبيعة الحقائق الاجتماعية . ولا غرو فى ذلك فان نظريات هؤلاء المفكرين أدنى الى الفلسفة وأدخل فى الميتافيزيقا ؛ وتنأى بطبيعتها عن التفكير الوضعى .

***

## ثامنا ــ المدرسة النفسية

قامت فى ألمانيا مدرسة نفسية قوية يمكننا أن نميز فيها اتجاهين رئيسيين :أحدهما يسمى «الاتجاه النفسى الاجتماعى Psychosociological وكان يتزعمه « ولهلم فونت » . وثانيهما ؛ يسمى « التحليل النفسى Psychoanalysis» وكان يتزعمه « أبراهام Abraham »

رئيس الشعبة الألمانية لجمعية التحليل النفسى الدولية وهو أحد أتباع فرويد . وسأقتصر فى الفقرة القادمة على عرض آراء ( فونت ) ممثل الاتجاه ا.ول . أما الاتجاه الثانى فلا مجال له فى هذا الكتاب لأنه وثيق الصلة بعلم النفس التحليلى .

## ولهلم فونت W. Wundt ( ١٨٣٢ — ١٩٢٠ )

ولد عام ١٨٣٢ وتوفى عام ١٩٢٠ . التحق عام ١٨٥٧ وهو فى الخامسة والعشرين محاضرا بجامعة ( هيدلبرج ) وكان يدرس مادة الفزيولوجيا التجريبية . ثم أصبح منذ عام ١٨٥٩ محاضرا فى مادة الانثربولوجيا الفيزيقية ودرس كذلك علم الاتنجرافيا . ثم اتجه الى الدراسات النفسية والفلسفية . فحاضر منذ صيف عام ١٨٦٢ فى علم النفس ، وابتدأ منذ عام ١٨٦٧ يحاضر فى النتائج الفلسفية للعلوم الطبيعية . واتجه منذ عام ١٨٧٣ الى دراسة الكونيات . وفى الثانية والأربعين من عمره وكان قد كون نفسه بمختلف الثقافات المعروفة لعهده ؛ شغل بكل جدارة كرسى أستاذية الفلسفة بجامعة زيورخ حيث حاضر فى المنطق ومناهج البحث وعلم النفس الشعبى لأول مرة . ولما بلغ الثامنة والستين بدأ يكتب مؤلفه الكبير فى علم النفس الشعبى الذى جاء فى عشرة أجزاء انتهى من آخرها عام ١٩٢٠ قبيل وفاته . وبعد زيورخ انتقل الى جامعة ليبزج أستاذا لكرسى الفلسفة واستمر يحاضر فى المنطق ومناهج البحث والأخلاق وعلم النفس وكانت آخر محاضرة له فى ١٧ يوليو ١٩١٧ حيث لم يقو على التدريس وعكف على القراءة والتأليف حتى أصيب بالعمى قبيل وفاته عام ١٩٢٠ . وكانت محاضراته موضع الاعجاب والتقدير وتهافت المثقفون على حضورها ولمع اسمه فى سماء الفكر الألمانى واحتل المكانة التى كان يحتلها « جورج سيمل » حينما كان يحاضر فى برلين ؛ و « فيشر » حينما كان يحاضر فى هيد لبرج .

وترك « فونت » مؤلفات كثيرة صعبة ومجهده . واستمر هذا الفيلسوف غير معروف من قراء الانجليزية حتى ذاع صيت مؤلفاته ؛ فترجمت الى ما يقرب من اثنتى عشرة لغة وأهمها : دراسات فى الفلسفة وجاء فى عشرين جزء كتبها منذ عام ١٨٨٣ الى عام ١٩٠٣ ؛ وعلم النفس وكتبه فيما بين عامى ١٩٠٦ و ١٩١٨ ؛ والمنطق ( ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨ ) ثم علم النفس الشعبى وهو أقوى مؤلفاته وأبلغها أثرا فى الفكر الاجتماعى وجاء فى عشرة أجزاء كتبها فى المدة ما بين عامى ١٩١٠ ـ ١٩٢٠ [1] .

وجاءت دراساته الاجتماعية معروضة بالتفصيل فى كتابه « علم النفس الشعبى » فقد خصص الجزأين الأول والثانى لدراسة الحقائق الاجتماعية والمادية المتعلقة باللغات البدائية . ودرس أصل اللغة ونشأتها وتطورها وطرق انشعاب اللغات الأولى وما تعرضت له من مظاهر الصراع . ودرس فى الجزء الثالث الفن ومظاهره ومقوماته ومراحل تطوره . وفى الأجزاء الرابع والخامس والسادس درس الميثولوجيا والخرافات الشعبية والدين وأظهر مبلغ قوة هذه الظواهر على مظاهر السلوك الجمعى وضغط بصفة خاصة على أثر الدين وقوته التى انعكست على السنن الاجتماعية وقوالب العرف والتقاليد وما اليها . لاسيما فى العصور التوتمية حيث لعب الدور الرئيسى وكذلك فى عصر الآلهة والأبطال الذين كانوا يعتبرون أنصاف آلهة . وفى الجزأين السابع والثامن درس المجتمع واعتبره قوة نفسية لأن الحالات النفسية في نظره هى الدعامة التى ترتكز عليها مقومات الحياة الاجتماعية . وفند اتجاه المدرسة الفرنسية الاجتماعية فيما يسمى « بالعقل الجمعى » أو « الروح الجمعية الكلية » وقال ان هذا العقل المزعوم ليس الا حالة نفسية تتولد من العلاقات المتبادلة بين مجموعة من الأفراد المتحدين بطريقة غير شعورية داخل الجماعة . وهذا الاتحاد من طبيعة نفسية قبل

---

(1) W. Wundt ; Philosophische Studien (20 Vols). Psychologische Studien — Logik — Völkerpsychologie (10 Vols.)

كل شيء وهو الذى يحدد طبيعة الحياة الاجتماعيـــة . ودرس التنظيم الاجتماعى ومقوماته وأهدافه واعتبر النظم أوضاعا مترجمة عن رغبات وميول تتجاوب فى نفسية الجماعة أو صدى للحـــالات النفســـية التى تتردد بين الأفراد . وفى الجزء التاسع درس القانون . وخصص الجزء الأخير لدراسة مقومات الثقافة والتاريخ العام ومراحل تطوره وخصائص كل مرحلة . ونلاحظ أنه قسم تاريخ الثقافة الانسانية وأدوار تطورها الى أربعة مراحل (١) .

١ ــ مرحلة الثقـــافة البدائيـــة . وتكلم بصـــددها عن الدوافع السيكلوجية التى كانت مسيطرة على الانسان البدائى ومظاهر الثقافة التى انتشرت فى هذه المرحلة .

٢ ــ المرحلة التوتمية . وتكلم بصددها عن التواتم وأشـــكالها ومظاهرها وطقوسها ومبلغ قوتها . ودرس القرابة التوتميـــة ونظـــام التحريم وخاصة طبقات المحارم فى الزواج وأقام دراســـاته على أسس نفسية .

٣ ــ مرحلة الآلهة والأبطال . وتكلم بصددها عن تطور الحـــالات النفسية التى بفضلها تم انتقال الانسانية من عبادة التواتم الى عبـــادة الأبطال وأرواحهم . فقد حلت عبادة « الانسان » محل عبادة الأصول الحيوانية وشرح كيف استقرت فى هـــذه المرحلة النظم والأوضـــاع الاجتماعية : كنظام الملكية والطبقات الاجتماعية والاقتصادية . كمـــا استقرت النظم السياسية وظهرت فكرة الســـيادة التى كانت الدعامة الأساسية التى ارتكزت عليها الدول القـــديمة فى قيامها منـــذ فجـــر التاريخ . وفى هذه المرحلة وضحت الاتجاهات الفردية والذاتية .

٤ ــ مرحلة الانسانية . وبدأت هذه المرحلة منذ قيـــام وسقوط الامبراطوريات العالمية القديمة . وتمتاز هذه المرحلة بالتعاون المتبادل

---

(1) H.E. Barnes ; An Introd. to the History of Sociology, p. 222

بين مختلف الشعوب ؛ وباتساع نطـاق ظاهرة الأخوة والمشـاركات الانسانية العامة .

والواقع أن هذه آراء شخصية لا تعبـر عن حقيقـة المراحل التى قطعتها المجتمعات فى تطورها أكثر من تعبيرها عن اتجاه خاص فى تفسير حقائق الاجتماع . هذا فضلا عن اعتماده على المبادىء والقوى النفسية فى الشرح والتحليل وبذلك لم تقدم دراساته أية معونة صادقة لعـلم الاجتماع الوضعى بالرغم من عمق تحليله وأصالة أفكاره .

* * *

هذه هى أهم المـدارس الألمانيـة التى عالجت فلسـفة الحيـاة الاجتماعية وهى أوسع المدارس انتشارا وأدقها بحثا وأعمقها تفكيرا . ولا يوهن من عظمتها ما وقعت فيه من أخطاء نتيجة اغراقها فى البحث الصورى التجريدى ؛ وفى تفسير حقائق الاجتماع بالرجوع الى الآراء والفلسفات الخاصة ؛ وفى ربط هـذه الحقـائق بالمنـاهج النفسـية والمتيافيزيقية وفلسفة التاريخ .

وبجانب ما أشرنا اليه توجد مدارس فرعية محدودة النطاق أهمها مدرسة « أساتذة الجامعات المختصين فى الدراسات الاقتصادية وهى مدرسه شمولرو بوخـر Schmoller; Boscher » . وكانت تعرف باسم «اشتراكيةالحكومة أواشتراكيةالتدخل Socialisme Interventionniste لأنها كانت تشجع تدخل الحكومة واشرافها على الجهاز الاقتصادى . ومنها مدرسة الدراسات الدينية واللغوية التى كان يتزعمهـا العـالم الجـليل ماكس مولر Max Muller .ومنهـا كذلك الدراسـات الانتروبولوجية التى كان من زعمائها العلماء أدولف باستيان A. Bastian وكوبرز P. Koppers وفروبنيوس ؛ Frobenius ؛ وهويت Howitt وسنعرض لهذه المدارس فى البلاد التى ظهرت فيها بصورة أصيلة.

# الفصل الثالث

## المدارس الاجتماعية فى انجلترا

ظهرت فى انجلترا مدارس اجتماعية كثيرة تعالج شـئون الحيـاة الاجتماعية بيد أن هذه المدارس لم تنجح فى تكوين وحدة منهجيـة كما حدث بصدد الدراسات الاجتماعية فى فرنسا حيث نجحت مدرسـة دور كايم فى تكتيل جهود جمهرة العلماء نحو وحدة الفـكر والمنهـج ونحت ببحوثهم نحو التكامل . وأشهر المدارس الاجتماعية الانجليزية ما يأتى :

### اولا ـ المدرسـة الوضـعية

تأثرت طائفة كبيرة من علماء الانجليز بالفلسفة الوضعية الزاحفة من فرنسا ؛ وهى الفلسفة التى نادى بها أوجست كونت . وقد أخلصت هذه الطائفة للفيلسوف الفرنسى الى حد أنها كانت تقـدم له صـادق المعونة فى أخريات أيامه . وكان أشهر رجال هـذه الطـائفة « جون ستيوارت ميل وبكل وجروت » المؤرخ الشهير.
« Mill ; Buckle ; Grote »

لم يعمل هؤلاء على تقدم الدراسات الاجتماعية فى انجلترا . وذلك لأنهم اهتموا بالمسائل المتصلة بالسياسة الوضـعية وعبـادة الانسانية وأهملوا النوحى العلمية والمنهجية فى فلسفته الاجتماعية . وهذا هو السر فى أنهم لم ينجحوا فى حل المشاكل التى كانت تواجه المجتمعات فى زمانهم وفضلا عن ذلك فقد ألبوا عليهم مختلف الهيئات والأحزاب لاسيما وأنهم عاصروا حركات وانقلابات كثيرة . فقـد قامت خلافات واسعة النطاق بين الطوائف الدينية،وتصادم عنيف بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وبين الاشتراكيين والرأسماليين ، وبين أنصار الحركة

النسـائية والرجعيين (١) . فلم ينجح أنصار الوضـعية أن يقفوا موقفا حاسما بصدد هذه المشاكل وأغرقوا فى اتجاههم الدينى ، واهتموا بنشر الديانة الوضعية وأصدروا فى هذا الصدد مجلة اجتماعية أطلقوا عليها « المجلة الوضعية The Positivist Review » واستمرت هذه الصحيفة فى الظهـور حتى عام ١٩٢٤ ثم غيروا اسـمها وأطلقوا عليها « مجلة الانسانية The Humanity » » وكان أشـهر محرريها « فردريك هاريسون ، باترك جدز ، آرثر رسل ، هوبسن ، كون ، ادوارد بيسلى ، وبنيامين كد (٢) » .

وكان أقوى رسل الوضعية فى انجلترا « ميل وبكل » تأثر الأول بالمنهج الوضعى فى دراساته المنطقية واهتم بالناحية الديناميكية . وذهب الى أن وظيفة علم الاجتمـاع هى الكشف عن القـوانين التى تؤثر فى انتقال حالة اجتماعية الى أخرى لاحقة بها وأن أفضـل المناهج التى تستخدم بنجاح فى هذا العلم هى مناهج العلوم الطبيعية وأفضلها على وجه الخصوص هو المنهج التاريخى (٣) . وبالرغم من أنه لم يعتـرف باستقلال علم الاجتماع فى بحـوثه الأولى ، غير أنه عاد ، تحت تأثير فلسفة صديقه كونت ، واعترف باستقلاله وأهليته فى تزعم العـلوم الانسانية كلها . وهذا التطـور واضـح تماما اذا قارنا بين ماجاء فى كتاباته الأولى وبين ماجاء فى مراسلاته بينه وبين « أوجست كونت » اذ يبدو أنه كان فى شباب تفكيره من المتحمسين « للمدرسة النفسية » فقد قرر أنه من الممكن ارجاع قوانين الحياة الاجتماعية الى قوانين علم النفس الفردى ، وأنه من الممكن تفسير قواعد الاجتماع وظواهره فى ضوء مبادىء علم النفس والقدرات الكامنة فى الطبيعة الانسـانية . فالأفراد فى المجتمع ليس لهم خواص ذاتية غير تلك التى يمكن استخلاصها من القوانين الطبيعية التى يخضعون لها بوصفهم أفرادا ، واجتماعهم على

---

(1) J. Mc Gee, The History of Organised Positivism in England (1931) ; p. 229.

(2) G. Bryson ; Early English Positivists and the Religion of Humanity (Amer. Soc. Review, Juin 1936 — I, p. 343 Sqq).

(3) Gurvitch ; Moore — Twentieth Century Sociology pp. 568-569.

أية صورة لايسبغ عليهم صفات مضافة أو خواص ذاتية ناشئة تلقــائيا في حالة الاجتماع . فما ينشأ بينهم من ظواهر أو يســتحدث من نظم يخضع لقوانين لابأس من أن نسميها قوانين اجتماعية بيد أنها لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير الأفعال والانفعــالات والمؤثرات المتبادلة بين الأفراد . فالأفراد هم أفراد مهما كانت حالة الاجتماع التى تضــمهم . والعلاقات التى تنشأ بينهم فى هذه الحالة تخضع للقــوانين ذاتها التى تخضع لها الأفعال والانفعــالات التى تصدر عن طبائعهم النفســية الفــردية .

وغنى عن البيان أن هذا التصــور لطبيعة الظــواهر الاجتماعية والقوانين التى تخضع لها ينطوى على انكار صريح لعلم الاجتمــاع وأهليته بالاستقلال . غير أن «ميل» عاد وخفف من تطرفه واتجه حثيثا نحو المعسكر الذى يؤيد علم الاجتماع وذلك تحت تأثير الفلســـفة الوضعية الزاحفة من فرنسا وتحت تأثير صداقته الشخصية بأوجست كونت . وهذا التطور فى تفكيره ملحوظ بصفة خاصة فى المراســلات المتبادلة بينه وبين كونت . وقد نشرت هذه الرسائل فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وهى تدلنا على مبلغ عناية المفكرين الانجليز بالتيارات الفكرية التى أثيرت حول علم الاجتماع وموضوعه ومنهجه وأسس الدراسة التى يقوم عليها . ولاشك أن هذه المساجلات النظرية أفادت ميدان العلم ولفتت أنظار العلماء من مؤيدين ومعارضين عــلى السواء . ووضعت «جون استيوارت ميل» فى مكان مرموق على الخط الفكرى الذى يربط بين كوندرســية وكونت مارا بدور كايم وسبنسر وتارد .

أما المفكر الثانى وهو ( Buckle ) فتأثر بنظريات كونت فى فلسفة التاريخ . هذا ، الى أنه درس بعض ظواهر المجتمــع دراســة وضعية وخاصة ظاهرة الزواج وكشف فى دراساته عن مبلغ تأثر هذه الظاهرة بالعوامل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ودرجة التكامل الاجتماعى وقوة الشخصية الفردية وانتشار الثقافة وما الى ذلك من

العوامل التى اعتبرها قوى فعــالة مؤثرة فى تكييف ظاهرة الزواج . وضغط بصفة خاصة على العامل الثقافى وعلى ضرورة معرفة القــوانين التى تحكم الحياة الاجتماعية ، فان هذه المعرفة ضرورية لاســـعاد الأفــراد .

هذا ، ولم يكن للمدرسة الوضعية فى مجموعها آثر واسع النطاق فى انجلترا اذا قيست بمدارس كبيرة مثل مدرسة هربرت سبنسر أو المدرسة الانثربولوجية والنفسية وما اليها .

***

## ثانيا ـ مدرسة هربرت سبنسر

ولد هربرت سبنسر فى ٢٧ أبريل عام ١٨٢٠ وتوفى فى ديســمبر عام ١٩٠٣ بدأ حياته مدرسا ثم اشتغل مهنــدسا . ولم يلبث أن ترك الوظيفة واشتغل بالأدب والسياسة وشئون الاجتماع . كتب مؤلفات ضخمة تدل على سعة العرض ودقة التحليل وعمق الفكر وأصالته (١) . وكانت مؤلفــاته مرآة صادقة للفــكرة التى تشــبعت بهــا نفســه وتبلورت فى تفكيره وهى «فكرة النشوء والارتقاء» فحاول تطبيقهاعلى الكائنات الحية فى ميدان علم الأحياء ، وعلى الانسان فى ميدان علم النفس والأخلاق ، وعلى المجتمع فى ميدان علم الاجتماع والسياسة .

ولا يسعنى فى هذه الفقرة أن أعــرض آراء سبنسر الاجتماعيــة بالتفصيل ، فقد خصصت لها فصلا مستقلا فى كتابى « تاريخ التفكير الاجتماعى » بيــد أن الرجوع الى دراسة الموضــوع يتطلب منى ولو مجرد الاشارة الى أهم مقومات مذهبه .

لا شك أن سبنسر أحــد دعائم الحركة الاجتمــاعية العلميــة فى القرن التاســع عشر وبالرغم من اتفاقه مع أوجســت كونت فى بعض الحقائق ، غير أنه لا يعترف بأن كونت أسبق منه وصولا اليها . فقــد

---

(1) أشهر مؤلفات سبنسر First Principles ; Principles of Biology. Principles of Psychology ; Principles of Sociology ; Study of Sociology; Descriptive Sociology ; The Data of Ethics; Social Statics; Man versus the State.

نشر أول بحث له فى الفلسفة الاجتماعية بعنوان « الاستقرار الاجتماعى Social statics » من قبل أن يعرف تفصيلات تستحق الذكر عن فلسفة أوجست كونت . ولذلك فان مظاهر الاتفاق بينهما جاءت عرضا . هذا ، الى أنهما مختلفان الى حد كبير فى الاتجاه الرئيسى الذى التزمه كل منهما فى دراسة شئون الاجتماع . ومع ذلك يقرر بعض النقاد أن القارىء لكتاب سبنسر « مبادىء علم الاجتماع » يدرك تماما أنه مستمد فى روحه وليس فى تفاصيله من كتاب أوجست كونت « Opuscules » فلا شك أن « كونت » رسم الاطار العام ، وأن « سبنسر » ملأ هذا الاطار .

ولما كانت فلسفة سبنسر الاجتماعية مرتكزة على المبادىء العامة لفلسفته الطبيعية بالاجمال ، فيجدر الاشارة الى أهم هذه المبادىء التى يلخصها فى القضايا الآتية :

١ ـ العالم فى تغير مستمر . فكل ما يقع فيه من تغير سواء كان كبيرا أم صغيرا ، طبيعيا أم عقليا أم اجتماعيا ، فانما يرد الى تفاعلين هما «النشوء والارتقاء» أو بعبارة أخرى السكون والفساد.

٢ ـ القوة ثابتة لا تتلاشى ولكنها تتغير على الدوام من صورة الى أخرى .

٣ ـ المادة لا تنعدم ولا تتجدد ولكنها تتشكل .

٤ ـ الحركة دائمة ولكنها تسير فى أقل الجهات مقاومة .

وظهر لسبنسر فوق ما تقدم أن كل الافعال فى مجموعها تجرى وفق قانون طبيعى واحد مهما ظهر لنا أن كل فعل على حدة خاضع لقانون خاص . فان التغيرات المختلفة ليست فى حقيقة الامر منفصلة

---

(1) Eugène De Roberty; Auguste Comte et Herbert Spencer (Paris 1904).

Comte ; Opuscules inédits publiés par la Revue Occidentale depuis 1882.

بذاتها ولكنها مرتبطة ارتباطا وثيقا وفق قانون « الاتصال النسبى » الذى يجمع ويؤلف بينها .

وبعد أن يشرح سبنسر مبادىء فلسفته يطبقها على الحياة البيولوجية وينتهى الى تقرير القضايا الآتية :

ان فى الحياة ميلا الى التفرد ، والتفرد هو غاية كل ارتقاء، وكل ارتقاء انما ينطوى على الانتقال من المتماثل الى المتباين أو من التجانس الى اللامتجانس . ويقرر كذلك أن « التخصص هو غاية كل تطور وارتقاء فى الموجودات » وهذا القانون بحسب تحليله قائم على دعامتين :

١ ــ كلما ازداد المركب الحيوى تعقيدا ازداد اختصاصا وتفردا

٢ ــ كلما ازدادت الأعضاء تفردا واختصاصا ازدادت استقلالا.

وينتقل سبنسر بهذه الحقائق من ميدان الحياة البيولوجية الى ميدان الحياة الاجتماعية . فيحاول تطبيقها على هذه الحياة مشبها اياها بالحياة البيولوجية . وبعد أن يشرح كيفية نشأة الحياة الاجتماعية وتطورها ووضوح وظائفها وازدياد ظاهرة التفرد والتخصص حتى وصلت فى العصر الحاضر الى أدق مظاهرها ، يقول ان نظريتى فى النشوء والارتقاء أو التطور تقوم على أساس فكرتين هما :

١ ــ التباين Differenciation ويقصد بذلك الانتقال من المتجانس homogeneity الى اللامتجانس heterogeneity وقد قرر فى هذا الصدد أن فى الحياة ميلا الى التفرد والتخصص . وقد أصبح هذا التخصص هو المطلب الأول فى شئون الحياة ، وهو الغاية القصوى التى يصل اليها الكائن فى ارتقائه ، وأن هذا الارتقاء والتطور كان مصحوبا بالانتقال من التعميم غير المحدود الى التخصص المحدود ، ومن المتماثل الى التباين .

٢ ـ التكامل Integration وهذه الظاهرة تسير جنبا الى جنب مع ظاهرة التبـاين . بمعنى أن التفـرد أو التخصـص لا يؤدى الى الاستقلال والاكتفاء الذاتى ؛ ولكنه يؤدى الى التضامن والتماسـك واعتماد الأجزاء والوظائف بعضها على البعض الآخر . فلا تسـتطيع احداها أن تغنى بنفسها عن الأخرى . وذلك طبقا لمبدأ توزيع العمل البيولوجى والفزيولوجى بالنسبة للمركب الحيوى،وطبقا لمبدأ التضامن والتكامل الاجتماعى بالنسبة لشئون الحياة الاجتماعية .

والمجتمع فى نظر سبنسر جزء من النظام الطبيعى للـكون . وعلم الاجتماع هو محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعناصره وهيئـاته ومراحل نموه وتطوره وما الى ذلك من المظاهر التى تخلقهـا العوامل الطبيعية والنفسية والحيوية ؛ وهى عوامل تعمل متضافرة فى عمليـة تطورية موحدة . فالتطور الاجتماعى فى نظره ليس الا عملية تطورية عضوية يسميها « التطور فوق العضوى » .
.« Super Organic evolution »

وهذا النوع من التطور يوجد بصـورة أقل وضـوحا فى بعض المجتمعات الحيوانية مثل تجمعات النمـل والنحـل . غير أن هـذه التجمعات ليست معقدة التعقيد الملحوظ فى المجتمعات البشرية وذلك لتفاعل العلاقات الانسانية وتشابك مصالح الأفراد ورغباتهم.فالاجتماع الانسانى اذن هو أرقى صورة للتطور فوق العضوى .

وفى ضوء ما تقدم ؛ المجتمع عبارة عن كائن عضـوى أو مركب عضوى « Organism »يشبه الجسم الحى ؛ وعناصر المجتمع وهيئاته تشبه نظائرها فى الجسم الحى . ويعقد « سبنسر » مماثلة بين المجتمع وبين الجسم الحى من ناحية التركيب الداخلى . بيد أنه لا يفـوته أن يقرر فروقا ذات بال بين التركيب العضوى فى الكائن الحى وبينه فى المجتمع أهمها أن عناصر الكائن الحى تكون كلا متماسكا متحدا بصفة مباشرة . بينما نجد أن العـوامل التى تؤدى الى الوحدة فى المجتمع عوامل خارجة عن التركيب العضوى فى الفرد . ومن هذه العوامل اللغة

والعواطف والانفعالات والأفكار والمعتقدات والعرف والتقاليد والقانون وما الى ذلك من الأمور . هذا الى أن الجهاز العصبى الذى يمثله العقل يوجد متحيزا فى الكائن الحى ويشغل جزء صغيرا من تركيبه بينما يوجد فى المركب الجسمى موزعا بين الأفراد ؛ ولكل انسان الحق فى المساهمة بأحكامه الصائبة فى توجيه المجتمع .

والمجتمع شأنه شأن الفرد من حيث النشأة والتكوين : ينشأ فى صورة بسيطة ضيقة النطاق ثم يأخذ حجمه فى النمو وعدد أفراده فى التكاثر . وهذا النمو يتبعه تميز فى الأعضاء والهيئات وتعقد فى التركيب . فهو فى هذا الصدد كالكائن الحى ينتقل من التجانس اللامحدود الى اللاتجانس ( التباين ) المحدود . أى أنه ينتقل من فوضى الشيوع الى نظام التخصص وتقسيم العمل . غير أن نمو المجتمع لا يمكن أن يكون عن طريق التزايد البسيط بل لابد من اندماج هيئاته واتحاد بعض المجتمعات الصغيرة مع بعضها وتفاعل اتجاهاتها . أى أن هذا النمو يتبعه تعقيد فى بنية المجتمع وتركيبه وكلما ازداد تعقيدا وتركيبا ، ازدادت أهمية التمييز بين هيئاته وطبقاته للوقوف على طبيعتها والوظائف التى تؤديها .

ومتى قام المجتمع واستقرت الى حد ما الحياة الاجتماعية ، تأخذ الظواهر والنظم الاجتماعية فى الارتقاء والتطور وتخضع بدورها للانتقال من حالة التجانس الى مرحلة التباين والتخصص . وهى فى هذا الصدد تتأثر بنوعين من العوامل وهى :

١ ـ العوامل الداخلية وهى العوامل التى تمثل فى نظره الناحية الفردية وهى أمور تتعلق بالتكوين الطبيعى والوجدانى والعقلى للأفراد الذين يكونون المجتمع . لأن سبنسر يرى أن الظواهر الاجتماعية تنشأ متأثرة بهذه الخواص الفردية بمعنى أن الأفراد يشكلون ظواهر المجتمع وفق الخواص المشار اليها .

٢ ـ العوامل الخارجية وهى العوامل التى تمثل فى نظره أثر البيئة. فالبيئة الجغرافية وظروف المجتمع الطبيعية والمناخية من الأمور التى

تؤثر بصفة مباشرة على الأفراد ، وبالتالى على الظواهر الاجتماعية التى لا تعدو أن تكون مجرد نتيجة لأوجه نشاط الأفراد .

وبعد تحليل طبيعـة المجتمع على النحـو الذى شرحنـاه ؛ يقرر سبنسر أن المجتمع كالفرد ؛ يعتوره التطـور ويخضع لقوانينـه التى لا ترحم : فى النشوء والارتقاء ثم الانحلال . فنمو الوحدة السياسيه من الأسرة والقبيلة فالمدينة والدولة ثم هيئـة الأمم ؛ ونمـو الوحده الاقتصادية من الصناعة المنزلية ونظام الحرف والطـوائف فالتـوره الصناعية الآلية ثم التورة الكهربائية . كل هـذه الأمور أدلة لا يرقى اليها الشك على مبلغ ما قطعته الحياة الاجتماعية من ارتقاء وتطـور . وكان هذا التطور ( ولا يزال ) مصحوبا بالظـاهرة المـلازمة له وهى ظاهرة « تنافر القوى وتنوع الوظائف وتفرع الاختصاصات » اذ نلمس أن العمل الاجتماعى قد ازداد تنـوعا ؛ والمهن والصـناعات ازدادت تفرعا ؛ وخضعت مظاهر الانتاج الأخرى لهذه المبادىء . وأكثـر من ذلك نجد تنوعا بين خصائص الريف والمدن ؛ وبين دولة وأخرى ؛ وبين وحدة اقليمية وأخرى . ونجد تطبيقات صحيحة لهذه المبادىء فى كل ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية : فى السياسة والاقتصـاد والدين والأخلاق والعلم والفن .

ويستلفت نظرنا بجانب ذلك أن هناك مجتمعات تضعف بعد قوة ؛ وتشيخ بعد شباب ؛ ومدنا تنحل وتتقـوض ؛ ودولا ينزل بها الضيم والهوان بعد المجد والسلطان ؛ وأخرى تقوم من جديد وترسى قواعدها وتأخذ بأسباب النشوء والارتقاء . فهناك اذن خلق متجـدد فى الحياة الانسانية . وهذه كلها حقائق تنهض دليلا على صحة ما يذهب اليه من أن المجتمع الانسانى يخضع لقانون التطور بشطريه : النشوءوالارتقاء من ناحية ؛ ثم الانحلال من ناحية أخرى .

وفى ضوء الحقائق التى أسلفناها يمكننا أن نحدد وجوه التشابه والتباين بين المجتمع والكائن الحى فيما يأتى :

(ا) وجوه التشابه :

١ ــ يتفق المجتمع والكائن الحى فى النمو المتزايد الملحوظ الذى يطرأ عليهما طوال وجودهما . وهذه الظاهرة تميزهما تماما عن المركبات اللاعضوية (Inorganic)

٢ ــ كلما ازداد حجمها ، ازدادا تعقيدا فى البنيان والتركيب .

٣ ــ كلما ازداد بنيانهما تركيبا وتعقيدا ، ازدادت وظائفهما تباينا وتعقيـــدا .

٤ ــ ان التطور فى كليهما لا يحدث مجرد تغيرات وتحـولات ، ولكن هذه التغيرات مرتبط بعضها ببعض ويفسر بعضها البعض الآخر.

٥ ــ ان المماثلة بينهما واضحة جدا وتبـدو أكثر وضـوحا اذا اعتبرنا كل مركب عضوى مجتمعا « Every Organism is a Society »

٦ ــ ان حياة التجمع فى كليهما يمكن أن تتلاشى ولكن الخلايا يمكن أن تستمر فى الحياة مدة من الزمن .

(ب) وجوه الاختلاف :

تتلخص وجوه الاختلاف بين المجتمع والكائن الحى فيما يأتى :

١ ــ ان جزئيات المركب الحيوى تكون كلا متماسكا محسوسا، والخلايا الحية مرتبط بعضها ببعض ارتبـاطا وثيقـا ، أما فى المركب الاجتماعى فان عناصره منفصلة ومتمـايزة ولا تكون هـذا الـكل المحسوس ، وخلاياه الحية حرة طليقة وموزعة ومشتتة .

٢ ــ نجد أن التباين فى المركب الحيوى قد وصل الى أن أصبح بعض المراكز الحية قاعدة للتفكير والاحساس وبعضها عديم الحساسية، بينما لا نجد هذا التباين فى جسم المجتمع فليس ثمة عقـل جمعى أو شعور جمعى مستقل عن الأفراد الذين يكونون المجتمع .

٣ ـ ونستنتج من النقطة السابقة أن الخلايا فى الجسم الحى تعمل لخير الكل ؛ أما فى المجتمع فان الكل يعمل لصالح عناصره .

هذا ، ويمكننا أن نجمل أهم الدعائم التى ترتكز عليها فلسفة هربرت سبنسر الاجتماعية فى القضايا الآتية (١) :

١ ـ المجتمعات مركبات عضوية حية ؛ أو تجمعات فوق العضوية.
Superorganic Aggregates

٢ ـ يوجد بين المجتمعات والبيئات التى تشغلها ، توازن فى القوى . فهناك توازن بين مجتمع وآخر ؛ وبين جماعة وأخرى فى نطاق المجتمع الواحد؛ويوجد توازن بين مختلف الطبقات الاجتماعية كذلك.

٣ ـ ويأخذ هذا التوازن صورة تنازع البقاء بين المجتمعات .ومن ثم يصبح الصراع نشاطا مألوفا فى الحياة الاجتماعية .

٤ ـ وفى غمرة هذا الصراع للتنازع على البقاء ينشأ الخوف من الأحياء والأموات على السواء ، وقد كان الخوف من الأحياء ( وهو شىء طبيعى ناتج عن الصراع ) سببا فى قيام التنظيم السياسى ؛ كما كان الخوف من الموتى عاملا أصيلا فى قيام النظام الدينى .

٥ ـ وتحت تأثير التنظيم السياسى والدينى ؛ فان حالة الصراع المألوفة أصبحت نزعة حربية . وقد شكلت هذه النزعة العادات ومظاهر السلوك والتنظيم الاجتماعى وأصبحت صفة لازمة للتجمعات الانسانية الأولى .

٦ ـ وساعدت النزعة الحربية على سرعة اندماج الوحدات الاجتماعية الصغيرة فى وحدات أكبر وأوسع نطاقا . وهكذا حتى قامت المجتمعات الكبيرة . أى أن هذه النزعة حققت مظهرا من مظاهر التكامل الاجتماعى . وقد وسعت هذه العملية نطاق الحياة الاجتماعية واستطاعت الشعوب الكبيرة فى زمن السلم أن تلجأ الى التصنيع .

---

(1) Barnes ; An Introd. to the History of Soc. p. 114. Sqq.

٧ ــ وقد شكلت حيــاة السلم والصناعة ؛ والأخــلاق ومظاهر السلوك والتنظيم الاجتماعي تبعا لما تقتضيه هذه الحياة من التعــاون ومظاهر الاخاء والمشاركات الوجدانيــة والتحــرر وزيادة المعــارف الانسانية .

٨ ــ ومن ثم أدت هذه الحياة الى الحرية والتعاون الاختيــارى وأدت الى مرونة التنظيم الاجتماعي وسيولة العــلاقات الاجتماعية بين الأفراد . وساعدت على تحقيق مقومات الشخصية الاجتماعية للفرد ؛ بينما أدت الحياة الحربية الى العنف والكبت والتحقير من شأن الفرد واخضاعه عنوة واقتدارا .

٩ ــ ويتوقف التحول من الحالة الحربية الى الحالة الصناعيةعلى مبلغ التوازن فى القوى بين مجتمع ما والمجتمعات المصاقبة له ، وبين المجتمعات التى تنحــدر من جنس معــين وبين أخرى مخــالفة لها فى الجنس ، وبين المجتمع والظروف الطبيعية التى يخضع لها .

١٠ ــ هذا ، ولا يمكن أن نعزز الاتجاه نحو التصنيع السلمى الا اذا حققنا أولا توازن القوى بين الأمم وبين مختلف الأجناس .

هذا ، وبجانب النظريات العامة التى أشرت اليها ، وضــع سبنسر نظريات فرعية كثيرة تعتبر تطبيقات مباشرة لمبادئه الفلسفية العامة . فله نظرية فى تصنيف المجتمعات من حيث التركيب المورفولوجى ومن حيث الوظيفة الاجتماعية . وله نظرية فى طبيعة الحكومة ووظائفهــا تعتبــر صدى لنزعته الفردية وايمانه بقوانين تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وله نظريات فى طبيعة الحياة الأخلاقية ، وفى شئون الاقتصاد ، وفى الحضارة ومبلغ أثرها فى ظاهرة التناسل . وتعتبر هذه النظريات تطبيقات لازمة لآرائه البيولوجية والمادية والفردية ، وقد عرضتها بالتفصيل فى كتابى تاريخ التفكير الاجتماعى . فأحيل القارىء للرجوع الى هذا الكتاب بدلا من تكرار عرضها فى هذا المكان .

هذا هو الاطار العام لفلسفة سبنسر الاجتماعية.فكان من الطبيعى اذن ألا يمر مفكر مثله بدون أن يؤثر تأثيرا عميقا فى تفكير معاصريه .

غير أن الأثر الذى تركه سبنسر فى انجلترا لا يعد شيئا مذكورا بجانب الأثر الذى تركه دور كايم فى المجتمع الفرنسى . ولعل السر فى ذلك يرجع الى اسراف « سبنسر » فى اتجاهه البيولوجي وايمانه العميق بفكرة التطور والنشوء والارتقاء . ومع أن هذه التصورات وما اليها شغلت الأذهان فترة طويلة وأثارت مساجلات لا حصر لها ؛ غير أنها سرعان ما تلاشت عند قيام الحرب العالمية الأولى . وذلك لانشغال الفلاسفة وعلماء الاجتماع فى موضوعات أجدى وأنفع وأقرب الى طبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى قامت أثناء وبعد الحرب . ونستطيع أن نذكر من بين علماء الانجليز الذين تأثروا بفلسفة سبنسر « سزرلاند وهوبهوس وجنزبرج وهويلر Sutherland : Hobhouse : Ginsberg : Wheeler » غير أن هؤلاء لا يعتبرون تلاميذ مباشرين أو أتباعا مخلصين لجوهر نظريات أستاذهم فقد دلت بحوثهم المتأخرة على تخلصهم من التأثر بالمدرسة البيولوجية وخلطوا فى دراساتهم بين مختلف الاتجاهات : البيولوجية والنفسية والثقافية وما اليها .

## نقد الاتجاه البيولوجى

كانت النظريات البيولوجية بصفة عامة والفلسفة « السبنسرية » بصفة خاصة بالرغم من قوتها وسعة انتشارها وخطر المدافعين عنها هدفا لانتقادات كثيرة من عدة وجوه أهمها :

### نقد النظرية بالاجمال :

١ ـ تلجأ هذه النظرية الى المقارنة والتمثيل وتشبيه المجتمع بالكائن الحى . وهذه الطريقة لا تعتبر طريقة علمية الا اذا عقدت بين ظواهر متماثلة فى طبيعتها أما اذا عقدت بين طبائع مختلفة فتكون طريقة فاسدة ولا تؤدى الى تحقيق علمى سليم . ولاشك أن الطبيعة الحيوية تختلف فى أسسها ومقوماتها ووظائفها عن الطبيعة الاجتماعية . لأن الأفراد فى الحياة الاجتماعية لم يجتمعوا ليأكلوا

ويشربوا ولكن لينظموا شئونهم اجتماعيا ويصطلحوا على مايحقق الخير المشترك .

٢ ــ لم تميز هذه النظرية بين عالمى الحيوان والانسان . فمبدأ بقاء الأصلح لايمكن أن يسرى على الانسان وهو يحيا حياة اجتماعية مثلما يمكن تطبيقه على الحيوانات التى تحيا حياة انفرادية . لأن الصلاحية ومبلغ تأصلها فى الأفراد انما ترجع الى المجتمع الذى يحمل الفرد معه فى مدارج الارتقاء .

٣ ــ ليس بصحيح ماتدعيه هذه النظرية من أن المجتمع وسط تتحقق فيه ضروريات الحياة الفردية فحسب ، وأن الانسان انما ترك الوسط الطبيعى الذى كان يعيش فيه لأنه أدرك مبلغ مايعود عليه من النفع فى ظل النظام الاجتماعى . لأن أغراض التجمع الانسانى أغراض جمعية وليست أغراضا فردية حيوية . فالمجتمع لم يقم لتحقيق غرائز الفرد وأنانيته ، ولكنه نشأ من تقابل مشاعر الأفراد وتفاعل ميولهم ورغباتهم ومن اتفاقهم تلقائيا على ارساء الحياة المشتركة على نظم مستقرة تتمثل فى التنظيم السياسى والاقتصادى والدينى ومظاهر السلوك الجمعى .

٤ ــ ان المشابهات وأوجه التمثيل التى ذكرها أصحاب هذه النظرية انما تنصب على المجتمعات الحديثة التى تنوعت فيها الوظائف وتوزعت الجهود وخضعت خضوعا واضحا لمبدأ تقسيم العمل . ولذلك وضحت المقارنة وسهل عقد الموازنة بينها وبين الجسم الحى . وفات هؤلاء أن المجتمعات البدائية التى تمثل أقدم مظاهر الحياة الجمعية لم تتمايز فيها الوظائف . فقد كانت البطن أو العشيرة هى الوحدة السياسية والاقتصادية والدينية والقضائية . ولذلك أدى بهم الجهل وعدم الوقوف على طبيعة المجتمعات البدائية الى تقرير المشابهات التى أشرنا اليها . مع أن هذه المشابهات تنصب فقط على المجتمعات الحديثة التى قطعت أشق مراحل التطور الاجتماعى .

## (ب) انتقادات خاصة بفلسفة سبنسر

١ ــ تنطوى القضايا الكبيرة التى وصل اليها سبنسر على مغالطات لاتخفى . فليس بصحيح أن التطور يسير من البسيط الى المركب الذى يأخذ فى التنافر ، وليس بصحيح أن التطور والرقى يسيران بالشىء من السذاجة الى التعقيد فى كل أنحاء الطبيعة . وحتى اذا سلمنا بصدق هذه القضية فى بعض الظواهر ، فلا يمكن أن تكون صادقة وعامة بالنسبة لشئون الكون والحياة الاجتماعية بالاجمال .

٢ ــ اعتبر « سبنسر » المجتمع كائنا حيا وطبق عليه قوانين علم الحياة . وهذا اتجاه خاطىء . حقا ان المجتمع يتكون من أفراد ،والأفراد خاضعون لقوانين علم الحياة ، ولكن لايستتبع ذلك أن تتول ان المجتمع كائن حى كبير يخضع للقوانين نفسها التى يخضع لها الأفراد . فقواعد الحساب وقوانين الطبيعة تنطبق على الانسان والحيوان والجماد ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الكائنات متشابهة . فليس معنى انطباق قوانين الحياة على الانسان والمجتمع أنهما متشابهان .

٣ ــ يستعمل هربرت سبنسر لفظ الانحلال « dissolution » على أنه عكس التطور « evolution » والواقع أن استعمال هذا اللفظ ينطوى على خطأ وغموض ، لأن الانحلال يفيد الهدم والتدمير ثم الفناء وهذه الأحوال لا تتفق فى مدلولاتها مع الحركة التى تناقض التكامل أو تتعارض مع التطور . ولذلك فانه من الأفضل استعمال لفظ التراجع أو « التطور العكسى Involution » فان مدلول هذا اللفظ يتمشى تماما مع منطق نظرية سبنسر ويعبر فى وضوح عما يجرى فى الحياة الاجتماعية . فالتطور الارتقائى أو العكسى انما يعبران عن فكرة التحول أن التغير التدريجى الذى يسير فى اتجاه ما : اما نحو الارتقاء والتقدم أو نحو النكوص والتراجع . هذا فضلا عن أن استعمال اللفظ المشار اليه يتفق ودقة المصطلحات العلمية ، أما لفظ الانحلال فمجرد عن الصفة العلمية ويبرأ من الدقة المنشودة .

٤ ـ استعمل سبنسر تشبيهات علم الحياة وقوانينه ليؤيد بها آراءه الاجتماعية والسياسية فى المذهب الفردى وفى الحرية وفى تقييد سلطة الدولة . وشبه الحكومة بالجهاز التنظيمى فى الكائن الحى . ونسى أن قوانين علم الحياة التى استعان بها تقرر أن الكائن الحى كله يخضع بنوع من الضرورة لتوجيه هذا الجهاز التنظيمى ومركزه أعصاب المخ. نسى ذلك عندما طبق النظرية البيولوجية على الحكومة . فقد نادى بالحد من نفوذ هذا الجهاز فى المجتمع بل والقضاء على سلطته بالتدريج وأكثر من ذلك فقد ذهب الى أن التطور سيؤدى به الى الانحلال .

٥ ـ يؤدى منطق نظرية سبنسر فى التطور الى أن المجتمع يزداد تعقيدا وتركيبا كلما سار فى طريق التطور والارتقاء ، غير أنه يعكس هذه القضية بالنسبة لظاهرة الحكومة . فيرى أن وظائفها آخذة فى التقلص وهى بصدد الانتقال من المركب الى البسيط !! ويجب أن تزداد بساطة وتقلصا حتى لاتقوم لها قائمة . وفاته أن يدرك أن الحرية لاتنال بزوال الرقابة الحكومية وجميع المعوقات التى تحد من امكانيات الفرد ولكنها لاتنال ولا تفهم فهما صحيحا الا بضغط السلطات القائمة ضغطا خفيفا عادلا على مايتمتع به الأفراد من حقوق وحريات .

٦ ـ تقسيم سبنسر للمجتمعات خاطىء وغير جامع . فلو اقتصر على تقسيمها من حيث البساطة والتعقيد لكان أقرب الى حقائق الأمور . غير أنه لم يوفق فى تقسيمها من حيث الوظيفة . لأن ماذكره لاينطبق الا على بعض المجتمعات التى تمثل العصور الوسطى والحديثة . وعدم عمومية التصنيف تفقده أهميته .

٧ ـ أشاد سبنسر بفضل الدولة الصناعية وقيمتها ومبلغ استقرارها ورقى أخلاق أفرادها . ويبدو أنه لم يرجع الى التاريخ ولم يتخذ منه هاديا وسندا . فقد فاته أن جميع الحروب التى قامت فى أوربا وفى غيرها انما أشعلت وميضها الدول التى تفننت فى أساليب الصناعة الحربية ، وأتقنت اختراع وسائل الدمار . لأن الملاحظ أن الدول الصناعية هى أشد المجتمعات رغبة فى الحرب ، وأقواها نزعة الى الاستعمار ، وأشدها بأسا فى ميدان الصراع الدولى .

٨ ــ أيد سبنسر المذهب الفردى فى السياسة والاقتصاد وأسرف فى هذا التأييد . وغنى عن البيان أنه جانب الصواب فى ذلك . وقد انتهز فرصة تورط الحكومة فى بعض الظروف فحمل عليها حملات بليغة وندد بتدخلها فى شئون الاقتصاد وفى حريات الأفراد . هذا ، الى أن المذهب الفردى لايؤيد الا جانبا واحدا من جوانب الحياة وهو الجانب الفردى ويغفل ماعدا ذلك . وقد أثبتت الحوادث والتجارب أن هذا المــذهب رجعى لايساير التطور المعاصر فى شئون الاقتصاد ، هذا فضلا عن أنانيته وجمــــوده .

٩ ــ وضع سبنسر نظرية خاطئة يفسر بها «ظاهرة التناسل» وبدون الدخول فى تفاصيلها من الناحية البيولوجية فهى تنطــوى على حقيقة مؤداها أن النوع كلما تقدم فى التطور الفكرى يحد من نسله . غير أن هذه القضية لاتستقيم مع حقائق الأمور ولاتنهض الاحصائيات العالمية دليلا على صحتها . فقد أثبتت هذه الاحصائيات أن عدد سكان العــالم قد زاد من ٥٤٥ مليون الى ٢٤٠٠ مليونا فى المــدة مابين عامى ١٦٥٠ و ١٩٥٠ أى زاد الى أربعة أمثاله فى مدة ثلاثة قرون بالرغم مما قطعته الانســانية من تطور وتقــــدم فى مختلف مظاهر حياتها الســياسية والاقتصادية والعقلية والفنية وما اليها ، بيد أن بعض الأصوات الداعية الى تحديد النسل قد ارتفعت حديثا منادية بفكرة سبنسر فى أن التطور الفكرى والارتقاء العقلى سوف يؤدى بالانسانية الى الحد من ذراريها ومهمايكن من قيمة هذا الرأىفهو لايزال موضع النظر والاعتبار ،ولكنه لايستقيم مع الاحصائيات التى أشرنا اليها .

١٠ ــ وطبق سبنسر نزعته المادية واتجاهه الفــردى فى الأخــلاق فأشاع الأنانية وحب الذات والأثرة ودعا فى قوة بالغة الى القضاء على الطبقات المريضة والهرمة والضعيفة ونادى بتقديمها قرابين على مذبح قوانين تنازع البقاء والصراع التى لاترحم . وغنى عن البيان أن سبنسر فى هذا الصدد قد تنكر لروحه الفلسفية وخانته عظمة أفكاره ، وأقل مايوصف به أنه سار بدون وعى مع قوانينه الفلسفية الى درجة فقــد

معها التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وبين الخير والشر ، فهو بالرغم من أنه من أشهر عباقرة العالم ، غير أن هذه العبقرية قد اتجهت الى تأييد الشر الاجتمــاعى .

١١ ــ وقع سبنسر فى أخطاء كثيرة تتعلق بالمنهج أهمها :

( أ ) بدأ عالما يعتمد على الملاحظة والتجربة غير أنه أغرق فى فرض الفروض ووضع الاحتمالات التى أدت به الى فلسفة بدلا من العلم .

(ب) أسرف فى استخدام منطق « التمثيل analogy » بصــدد طائع مختلفة وأسرف فى عقد المقارنات وتعسف فى التطبيقات التى ساقها فكان من الطبيعى أن يصل الى نتائج متضاربة . وخانه التوفيق فى كثير مما وصل اليه من قضايا وأحكام .

(جـ) بالرغم من استقراءاته الواسعة ، غير أنه لم يكن عنده الصبر الكافى للجمع بين الأمثلة المؤيدة والمعارضة على السواء ولم ينــاقش ماتنطوى عليه من أسباب التشابه والتنــاقض ولذلك أصيبت قوانينه بالعمومية وعدم الدقة .

( ء ) أصدر سبنسر كثيرا من الأحكام التقويمية وهو بصدد دراسة الحقائق دراسة علمية . لأن طبيعة هذه الدراسة تتطلب أحكاما تقريرية Jugements de fait ومن أمثلة هذه الأحكام التقويمية قوله : بلوغ المجتمع غاية الكمال ، بقاء الأصلح ، الكمــال الســياسى والأخلاقى ، الحكومة شر ، وما الى ذلك من القضــايا والأحـــكام التقــويمية « Jugements de Valeur ».

وبالرغم من هذه الانتقادات فلا تزال فلسفة « سبنسر » موضـــع التقدير . واذا كان هذا الفيلسوف لم يترك من بعده مدرسة جـــديرة بالذكر فى انجلتــرا فان مذهبــه اقتحم معــاقل الوضــعية فى فرنسا والبراجماتية فى أمريكا والميكانيكية فى بلجيكا . فكان من أقوى رسله فى فرنسا الفرد سبيناس ورينه ورمس ، وفى أمريكا سمول وماكدوجال وفى بلجيكا جيوم جريف ، وفى النمسا جملبوفتش وراتزنهوفر ، وفى

ايطاليا فكارو ، وفى روسيا نوفيكوف وليلنفلد وأنصـاره فى مختلف دول العالم يجلون عن الحصر .

***

## ثالثا ـ المدرسة الانثروبولوجية

عندما أعلن كونت وتلاميذه عن ضرورة انشاء علم جديد لدراسة ظواهر الاجتماع الانسانى لقيت هذه الدعوة قبولا لدى طائفة غيريسيرة من العلماء الذين وجهوا نشاطهم الى الدراسات المتصلة بنشأة الانسان الأول ونظم الحياة البدائية فحاولوا أن يربطوا بين نتائجهم وبين مايقول به علماء الاجتماع . ولم يحاول أنصار هذه المدرسة أن يدخلوا فى المناقشات التى أثيرت حول طبيعة العلم وطبيعة ظواهره ومدى استقلالها وارتباطها بظواهر العلوم الأخرى ، ولكنهم وجهوا مزيد عنايتهم الى دراسة النظم البدائية ودراسة المجتمعات المتأخرة واعتبروا أن هـذه الدراسة هى قطب الرحى من الدراسات الاجتماعية ، وأن علم الاجتماع اذا كان من الضرورى انشاؤه ، فيجب أن يرسى قواعده على الدعائم التى يضعها علماء الانثروبولوجيا . لأنهم بفضل بحوثهم ودراساتهم يحاولون الوصول الى أصول النظم ويكشفون عن طبيعتها وعن مراحل تطورها ويتلمسون مبلغ انعكاسها فى الحياة الحاضرة . فكأن علم الاجتمـاع فى نظرهم هو علم أصول الحضارات والمدنيات القديمة .

وكان من الطبيعى أن تكون الدراسات الانثروبولوجية على أشدها فى بلد مثل انجلترا فهى بطبيعتها بلد بحرية يتوق أبناؤها الى القيـام بالرحلات والأسفار فى الآفاق البعيدة . هذا الى أنها كانت أقوى الدول النازعة الى الاستعمار والى كشف مجاهل القارات والوقوف على أحوال شعوبها ودراسة نظمها لأن مثل هذه الدراسات تخدم قضية الاستعمار. ولذلك اتجهت الدراسة الانثروبولوجية فى مستهل قيامها وجهة سياسية استعمارية وسرعان ما أصبحت مطلبا علميا .

والحق أن الدراسات الانثروبولوجية بدأت قبل عصر كونت وبلغت حتى عهده شأوا بعيدا . فلما أعلن كونت عن ضرورة قيام علم الاجتماع

أيده جمهرة الأنثربولوجيين فى هذه الدعوى . غير أنهم اعتبروا أنفسهم أحق العلماء بحمل رسالة هـذا العلم الجـديد واقامة دعائمه . ومن ثم ازدادوا حماسا فى جمع الحقائق وتحليلها ووضع القوانين المفسرة لأصول النظم وطبيعتهـا .

وكان من الطبيعى أن ينشغلوا بدراسة أصول النظم فى المجتمعات والقبائل الممثلة للحياة البدائية . ولجأوا فى هذا الصدد الى دراسة النظم التى شوهدت عند السكان الأصليين فى استراليا وأمريكا باعتبار أن هاتين القارتين ظلتا قرونا طويلة قبـل اكتشافهما بمنـأى عن التيارات الحضارية التى اجتاحت العالم المتمدين . واذا كان قد طرأ على النظم التى كانت سائدة عند هؤلاء السكان بعض التطور فقد كان هذا التغير ذاتيا وليس وليد التفاعل الثقافى والحضارى الناتج عن اتصال هـذه الجماعات بشعوب خارجة عن نطاقها الاجتماعى أو المورفولوجى . كما أن هذه التطورات المحدودة لايمكن أن تكون شيئا مذكورا اذا قيست بالتطور الذى طرأ على نظم العالم القديم وأوربا . ولذلك رأى علمـاء الأنثروبولوجيا أن دراسة النظم الاجتماعية فى هذه الشعوب تلقى ضوء واضحا على النظم الاجتماعية فى فجر نشأتها .

ومن ثم قويت الرغبة لدى طائفـة كبيرة من علمـاء الانجليز فى دراسة هذه الشعوب ورحل الكثيرون منهم الى أستراليا وأمريكا وكان معظم هؤلاء من الجماعين المهرة الذين جمعوا الحقائق ورتبوها وحاولوا تحليلها لكشف أصول النظم والأوضاع فى القبائل التى كانت موضوع الدراسة والبحث .

وقد استلفت نظر هؤلاء جميعا نظام اجتماعى خطـير توفروا على دراسته بقوة وعمق وذلك لمبلغ أصالته ودقة التزاماته وخطر وظائفـه فى هذه الشعوب . وهو ما أصطلحوا على تسميته بالنظـام التـوتمى « Totemism » نسبة الى « التوتم » وهو الأصل الحيوانى أو النباتى التى كانت تعتقد هذه القبائل أنها منحدرة من أصلابه وأنها تؤلف معه وحدة

اجتماعية ودرجة قرابة واحدة . ولذلك اتخذته معبـودا لها ورمزا أو شعارا لوضعها الاجتماعى وأنزلته وأنزلت مايرمز اليه منزلة التقديس .

وكان أول من استعمل هذه الكلمة ترجمان من السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية ( من الهنود الحمر ) اسمه « Lang » فقد اتصل بالأجانب النازحين الى هذه البلاد وعرف الانجليزية ثم اشتغل مترجما للأوربيين . وألف هذا المترجم فى أواخر القرن الثامن عشر كتابا عنوانه « رحلات وأسفار لمترجم هندى » عرض فيه « أصول النظام التوتمى » ومدى انتشاره ومبلغ خطورته وارتبـاطه بمختلف نواحى النشاط الاجتماعى . وقد أثار هذا الكتاب اهتمام علماء الانثروبولوجيا وخاصة الطائفة التى تقوم بالبحث والتنقيب عن أصول النظم الاجتماعية فى هذه البـلاد .

ومن ثم عكف العلماء على دراسة النظام التوتمى الذى ورد ذكره فى الكتاب المشار اليه . وظنوا أن هذا النظام مقصور على شـعوب أمريكا الشمالية وأن ليس له نظير فى البلاد الأخرى . وظل اعتقادهم هذا حـوالى نصف قرن حتى نشر الرحالة الانثروبولوجى الانجليزى « جراى Grey » (١) كتابا شهيرا عن السـكان الأصليين فى استراليا ، درس فيه كثيرا من العادات والتقاليد المنتشرة هناك ، وحلل طائفة لابأس بها من النظم الاجتماعية السائدة وتتبع نموها وأصـولها البعيـدة وقارن بينها وبين ماوصـل اليه زملاؤه الذين يدرسون فى الميدان الأمريكى . وانتهى بعد هذه الدراسة الوصفية التحليلية الى نتائج هامة مؤداها أن النظام التوتمى أو الديانة التوتمية التى كشفها العلماء فى أمريكا الشمالية موجودة فى روحها وتفاصيلها عند سـكان استراليا الأصليين . وان كانت أشكال النظام فى أمريكا قد أصـابها التطور المحدود ، أو طرأت عليها التحولات النسبية فان ذلك يرجع الى أن أمريكا كانت أسبق من استراليا وأكثر منها استهدافا للتيـارات الحضارية الزاحفة اليها من العالم المتمدين .

---

(1) R. Smith ; The Religions of the Semites.

ومنذ ذلك الحين عكف العلماء على دراسة النظم التوتمية فى أمريكا واستراليا مع التحليل والمقارنة وظلوا معتقدين أنهم بصدد نظم أثرية قديمة ليست لها صلة بالنظم القائمة أو بالديانات الانسانية المعروفة ولا يوجد لها نظير فى الديانات الراقية حتى نشر العلامة « ماك لينان Mac Lennan » (١) ، وهو من أقطاب المدرسة الانثروبولوجية بحوثه الشهيرة فى هذه الدراسات ، وأوضح بصورة لايرقى اليها الشك أن للنظام التوتمى بقايا ورواسب فى معظم العادات والتقاليد والطقوس الدينية المعروفة عند قدامى اليونان والرومان .

وسار بعده العلامة « روبرتسن سمث Robertson Smith » أوسع نطاقا فقرر أن لهذا النظام نظائر وبقايا فى الديانات السامية . وعقد مشابهات ومقارنات بين الطقوس التوتمية وطقوس هذه الديانات وذلك فى كتابه القيم عن « الديانات السامية » (٢) ثم عاد الى امتحان نتائجه وحقائقه وقام بتحليل واسع النطاق بصددها فى كتاب آخر له عن « القرابة والزواج عند عرب الجاهلية » (٣) .

ثم جاء العلامة « فرازر Frazer » وقرر فى كتابه « الغصن الذهبى The Golden Bough » أن بقايا النظم التوتمية ليست مقصورة على الديانات السامية وغيرها ولكنها تركت رواسب واضحة فى العادات الشعبية الدارجة « Folklore » المنتشرة فى معظم شعوب أوربا . ومن ثم اتسع نطاق هذه الدراسات ، وأخذ كل باحث يدرس قبيلة معينة من السكان الأصليين ويحاول أن يهتدى الى العلاقة التى تربط النظم الاجتماعية السائدة بالأصول التوتمية التى اهتدى اليها العلماء السابقون .

وأهم دراسة يعتد بها فى هذا الميدان هى البحوث والدراسات التى قدمها العالمان الانجليزيان «جلن وبلدوين سبنسر Gillen ; B. Spencer » فقد ذهبا الى استراليا وأقاما فيها ١٢ عاما واختلطا بقبائلها ودرسا

---

(1) R. Smith ; Kinship and marriage in Early Arabian.
(2) Grey; North West and Western Australia.
(3) Mac Lennan : The Worship of Animals and Plants.

العادات والتقاليد وعرفا اللهجات الأصلية وحصلا على « الحق القبلى Initiation » وكانا بفضل هذا الحق يحضران الحفلات الدينية وأبيح لهما أن يتزينا بزى التوتم ويباشرا العمليات الطقوسية . وقد لخصا ما انتهيا اليه من دراسات وبحوث فى كتب كثيرة آخرها كتاب عنوانه « The Arunta » وهو يحمل اسم « قبائل أرونتا » التى تعتبر من أشهر قبائل استراليا وأوسعها انتشارا وأعرقها فى النظم التوتمية . ويعتبر هذا الكتاب أهم مراجع الأنثروبولوجية وأدقها وأوفاها قصدا . فلم يترك المؤلفان فى هذا الصدد زيادة لمستزيد .

هذا ، وينبغى أن نشير الى أن حركة الدراسات الاتنجرافية والانثروبولوجية قد انتقلت الى أمريكا وانتشرت هناك بفضل جهود الرعيل الأول من الرحالة الانجليز وعلماء الانثروبولوجيا . ومن ثم قام «المكتب الاتنلوجى الأمريكى» لتنسيق جهود الرحالة والعلماء والوقوف على الدراسات الاجتماعية التى تعمل فى بلادهم باعتبارها حقل الدراسة والتجربة لأقدم مظاهر الحياة الاجتماعية . ومن أنصار هذه الدراسة فى الوقت الحاضر فى أمريكا « وزلرولوى وجولدنويزر Wissler ; Lowie ; Goldenweiser ».

وعلى هذا النحو خدم علماء الأنثروبولوجيا ميدان الدراسات الاجتماعية خدمة كبيرة بفضل ماجمعوه من مشاهدات وأوصاف وما قاموا به من شروح وتحليلات أنارت السبيل فى الوقوف على أصول النظم الاجتماعية الأولى . وكان معظم أنصار هذه المدرسة جماعين مهرة جمعوا الحقائق ورتبوها وفسروها . غير أنهم من الناحية التحليلية لم يكونوا موفقين كل التوفيق . فقد كانت تعوزهم الناحية التحليلية للوصول الى قوانين اجتماعية صحيحة تنهض الحقائق التى جمعوها دليلا على صحتها . وقد كمل النقص الذى بدا فى دراسات هؤلاء الرحالة علماء المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع من أتباع وتلاميذ العلامة دوركايم الذين تخصصوا فى الدراسات الأنثروبولوجية وبعض مشاهير المحدثين من علماء المدرسة الانجليزية أمثال : « وسترمارك Westermack

« جنـــزبرج Ginsberg » ، « فيرث Firth » ، « ايفانز برتشارد Ivans Pritchard » «ولايارد Layard » « ماريت Marett» وريفرز Rivers » « واليوت سمت Elliot Smith ».

وأهم الجهود التى بذلت فى ميـدان الدراسات الأنثروبولوجية مايأتى :

١ ــ دراسات العـلامة « جيمس فرازر J. Frazer » وأهمهـا :

( أ ) الغصن الذهبى The Golden Bough ويعتبر هذا المؤلف من أروع ماكتب فى موضوعه . وماجاء فيه من حقائق أحدث حركة علمية جديرة بالاهتمام والتقدير وهو يقع فى ستة أجزاء وكل جزء فى كتابين والكتاب يدور حول نظرية « فرازر » وملخصها أن الانسانية فى تطورها مرت بمراحل ثلاث : « السحر والدين ثم العلم » وفى ثنايا هذا البحث الاجتماعى والأنثروبولوجى عرض « فرازر » لنظريته فى الاله المذبوح « The slain God » وخصص المؤلف الجـزئين الرابع والخـامس لدراسة الأديان الشرقية واليونانية والرومانية . وكشف عن وثيق الصلة بين هذه الأديان وبين بعض المظاهر التوتمية . وخصص الجزء الخامس لدراسة أرواح النباتات والحيوان ــ والكتاب فى مجمـوعه وثيقة أنثروبولوجية خطيرة الشأن ولاغنى للمختصين فى الدراسات الاجتماعية من الرجوع الى هذا السفر القيم .

(ب) « الاعتقاد فى خلود الأرواح وعبادة الموتى »

The Belief in Immortality and the Worship of the Dead.

وهو من البحوث القيمة التى كتبها العلامة « فرازر » ودرس فيه طائفة لاحصر لها من مظاهر عبادة الأرواح والاعتقاد فى خلودها لاسيما عند قبائل استراليا الشمالية والجنوبية والقبائل الافريقية وبعض الشعوب الشرقية . وأوضح مبلـغ تفانى الشعوب فى تقديم ثرواتها قرابين لهذه الأرواح واعتبر هذا الاتجاه من جانب الانسانية الأولى خلطا بين معانى الخير والشر ، وتدميرا للموارد الانسانية الأولى ، واضطرابا فى التفكير

والمعايير المتعلقة بتقدير المنفعة والضرر والحسن والقبح .. وتحليله هذا لايخلو من ضعف وسوء فهم لمنطق العقلية البدائية بالرغم مما ساقه من الأدلة والشواهد الأنثروبولوجية .

٢ ــ دراسات روبرتسن سمث R. Smith وأهمها كتابه «مقالات عن ديانات الساميين » والفكرة الأساسية التي يدور حولها هذا الكتاب هي أن الديانات السامية ترجع إلى أصول توتمية . ودلل المؤلف على أن الانسانية كلها على اختلاف شعوبها وأجناسها ودياناتها قد خضعت في عصر ما للنظام التوتمي ولو أنها اختلفت في درجات التطور فالبعض كان سريع الانتقال والبعض الآخر كان بطيئا . ومما يدل على عمق تحليل ( سمث ) أن العلامة دور كايم أطرى دراساته في كتابه « الأشكال الأولى للحياة الدينية » وشهد بأنه كان دقيقا في كثير من الاعتبارات لا سيما نظريته في الأضحية التي أحدثت ثورة في النظرية التقليدية التي كانت تفسر على أساسها نظم الأضحية .

٣ ــ دراسات العلامة ( تيلر ) Ed. Tylor » وأهمها كتابه « الحضارات البدائيه Primitive Culture » يعتبر هذا الباحث في نظري أول من طرق ميدان البحث العلمي في المسائل الدينية ولذلك جاء بحثه في معظمه عبارة عن دراسة اجتماعية علمية لتاريخ الأديان . وفي الكتاب فصول ممتعة عن الميثولوجيا والفلسفة والدين والفن واللغة والعادات والتقاليد وتطور هذه المظاهر الثقافية وتكلم عن الأرواح وعرض تصورات البدائيين بصددها . ويعتبر « تيلر » من أنصار المذهب الروحي فيما يتعلق بالدين ونشأته الأولى في العقلية البدائية ، وله نظرية في « الأضحية » تقوم على أساس « مبدأ الهبة » أيدها بكثير من الحقائق والشواهد الاجتماعية البدائية .

٤ ــ دراسات العلامة وسترمارك الفنلندي وأهمها :

1 — The Origin of Human Marriage (1889).
2 — The History of Human Marriage (1898).
3 — The Origin and Development of Moral Ideas (1906).
4 — Ritual and Belief in Morocco (1926).

5 — Ethical Relativity (1932).
6 — Pagan Survivals in Mohammedan Civilization (1933).

ويبدو من هذه المؤلفات أن وسترمارك أولى مزيد عنـــايته الى الظواهر الأسرية وتطورها فى مختلف البلاد التي زارها أو درس نظمها وعنى كذلك بالناحية الأخلاقية واهتم بكشف العلاقات التى تربط بين نمو أو تطور المعانى الأخلاقية ونمو أو تطور النظم الاجتماعية . ويعتبر كتابه « أصل تطور المعانى الأخـلاقية » من أقـوى وأعمق المؤلفات الاجتماعية المعاصرة اذ يحتوى دراسة علمية وصفية تحليلية ونقـــدية لأهم الظـواهر والنظم الاجتماعية : فقـد درس نظم الزواج والطلاق والعلاقات والروابط الأسرية والختان ، والقرابة والانفصال والهجر ، ونظم الأخذ بالثأر والقتل والاعدام والشرف والمروءة والكرم ،وتقديم الضحايا والقرابين والمظاهر الطقوسية . وغيرها مما لا يتســع المقـام لذكــره .

٥ ــ بحوث ودراسات العالمين بولدوين سبنسر وجلن : وأهمها :

1 — The Native Tribes of Central Australia.
2 — The Nothern Tribes of Central Australia.
3 — The Arunta.

تعتبـــر دراسات هــذين العالمين أول دراســة وافية فى الميــدان الأنثروبولوجى فقد ذهبا الى استراليا وأقاما فيها ١٢ عاما واختلطــا بالقبائل المتوطنة وتعلما لغاتها ولهجاتها وحققا كثيرا من المعلومات التى أتى بها علماء سابقون أمثال « مورجان وماك لينــان » . وقد جاءت بحوثهما أوفى وأعمق وأدق تحليلا من بحوث معاصريهم وصرح العلامة دور كايم فى كتابه « الأشكال الأولى للحياة الدينية » بأنه اعتمد كل الاعتماد فى استنباط حقائقه وأحكامه التحليلية على ماكتبه هذان العالمان فهما خير من يؤتمن فى جمع الحقائق وتنظيمها وشرحها وتحليلها .

وبعد أن نشر ( سبنسر وجلن ) كتابيهما ( الأول والثانى ) المشـــار اليهما حدث أن ذهب العالم الألمانى ( Strehlow ) الى استراليا وأقام

فى المناطق نفسها التى درسها هذان العالمان وأجاد اللغات الاسترالية القديمة وعكف على دراسة النظم الاجتماعية ووصل فى دراساته وبحوثه الى نتائج تغاير فى بعض تفاصيلها ماقرره العالمان فى بحوثهما . وقد أثارت هذه المفارقات الرغبة فيهما لمعاودة البحث فدرسا للمرة الثانية قبائل « Arunta » وناقشا العلامة الألمانى (Strehlow) فى نتائجه وصححا كثيرا من المسائل التى عالجاها فى الكتابين السابقين ووضعا كتابهما الثالث بعنوان القبائل موضوع الدراسة « The Arunta ».

وقد حدث أن توفى العلامة ( جلن ) قبل نشر هذا الكتاب العظيم. فنشره العلامة ( بولدوين سبنسر ) ورثى فى مقدمته صديقه وزميله فى الجهاد العلمى « العلامة جلن » .

والكتاب يقع فى جزأين وقدم له العلامة سبنسر بمقدمة عرض فيها الدوافع التى حدت بهما الى وضعه وتكلم عن طبيعة البلاد وطبيعة السكان وتقاليدهم وعاداتهم والنظم الاجتماعية والدينية القائمة . ويمتاز هذا الكتاب بأنه محلى بالصور والألوان والخرائط . ومزود بطائفة كبيرة من الصور الفوتوغرافية التى تمثل الجماعات التوتمية والشيوخ والرؤساء ورجال الدين وهم فى الحلقات الطقوسية وفى أزياء التواتم. وفيه صور أخرى لمختلف التواتم وعلاقاتها والأشياء القدسية وأنواع الصخور المقدسة ولا شك أن هذه الصور وما اليها تقرب الى القارىء الملاحظات والمشاهدات الوصفية المدونة .

٦ ــ دراسات أستاذنا الراحل « هوكارت » A. M. Hocart وأهمها

كتابه « تقدم الانسان » The Progress of Man وهو بحث مختصر لتطور الانسان وتطور عاداته وأعماله فى مختلف مراحل التطور .وتكلم فيه عن بعض المشاكل الحيوية التى صادفت الانسان الأول مثل كيفية الحصول على الغذاء وانتاجه ونشأة فكرة التخزين ؛ وعرض للقوى المحركة للنظم الاجتماعية وكيفية وصول الانسان الى تحقيق بعض مطالبها الاقتصادية والاجتماعية . وقام هذا الباحث برحلات كثيرة فى

ميلانيزيا وجزائر البورنيو وجمع حقائق هامة أفادت ميدان الدراسات الأنثروبولوجية .

٧ ــ دراسات العلامة اليس A. B. Ellis : وأهمها

1 — The Ewe Speaking people of the Slave Coast.
2 — Tchi Speaking people of the Golden Coast.
3 — Yoruba Speaking people.
4 — Polynisian Researches.

وتدور كل هذه البحوث حول دراسة القبائل الأفريقية وسكان جزر بولونيزيا .

٨ ــ هذا ، ولا يمكننا أن نقلل من شأن البحوث التى قام بها بعض أعضاء المدرسة الأنثروبولوجية مما لايتسع المقام لذكره وأجدرهم بالتنويه .

Rivers; Arthar Keith; Robert Britfault; Malinowsky, Maine; Langefox; Rerry; Lord Raglan; Labbock.

رابعا ــ المدارس الاجتماعية التطبيقية

انتشرت تعاليم « لبلاى » فى انجلترا وتأثرت بها حلقات وهيئات علمية كثيرة أجدرها بالذكر مايأتى :

١ ــ مدرسة ادنبره Edinburgh

أول من أسس هذه المدرسة العالمان الشهيران « باترك جدز Patrick Gedds » ( ١٨٥٤ ــ ١٩٣٢ ) و «فكتور برانفورد Victor Branford » ( ١٨٦٤ ــ ١٩٣٠ ) . وبالرغم من الجهود العلمية الجديرة بالثناء والتقدير التى بذلها هذان المفكران فى خدمة أغراض علم الاجتماع والعمل على تقدمه ، وبالرغم من أنهما أثقلا حياتهما بعمل مثمر متواصل ، فان آراءهما لم تنل ما كانت تستأهله من التقدير ولم يحفظ لهما تاريخ العلم مايستحقانه من الاعتبار . ويرجع السبب فى ذلك الى أصالة تفكيرهما وجدة اتجاهها واستخدامهمامناهج رياضية وطرق هندسية وأشكال ورسوم تصويرية تترجم عن حقائق

اجتمـــاعية . وهـــذه الأمور وما اليها لم تكن مألوفة في علم الاجتماع ولاسيما لدى المدارس الاجتماعية الخاضعة للفلسفة والأدب .

وسنقول كلمة موجزة فى التعريف بهذين العالمين :

جدز Gedds . اسكتلندى النشأة . درس فى شبابه الكيمياء والطبيعة والبيولوجيا . وتعرف على علماء كثيرين من أشـــهر رجالات العصر أمثال هكسلى وهيكل ودارون وســبنسر . وزار فرنسا ووثق علاقته بعلمائها العظام أمثال : لبلاى ودمولان ودور كايم وبرجســـون وكان يعتبر فرنسا وطنه الثانى شأن معظم مفكرى الانجليز . وقضى فيها أخريات أيامه حيث اتخـــذ له مقــاما هادئا فى ضواحى « مونبــليه Montpellier » مســـقط رأس « اوجست كونت » منشىء علم الاجتماع الحديث والرائد الأول لعلمائه .

تتلمــذ فى شـــبابه على « Huxley. Haeckel » حيث درس علوم الايكلوجيا والمورفولوجيا والبيولوجيا وتعمق فى هذه الدراسات وبدأ يتخذ لنفسه اتجاها واضحا بين المفكرين المعاصرين له . فرفض ما يذهب اليه « سبنسر » من تشبيه المجتمع بالــكائن الحى واعتبــر الحيــاة الاجتماعية فى الانسان حياة مميزة فى ذاتها تسير جنبــا الى جنب مع مظاهر الحياة الأخرى التى يخضع لها . وناقش « لبلاى » فيمــا ذهب اليه بصدد العوامل الأساسية التى تؤثر فى البنيان الاجتماعى وهى :
lieu; travail; famille (folk)

ورأى أن هذه العوامل ضيقة النطــاق وأنه ينبغى أن نوسع من دائرتها فوضع فى مقابلها العوامل الآتية: organism; function; environment.

وقام ( جدز ) برحلات فى انجلترا وخارجها ليســتكمل أســباب ثقافته وتكوينه العلمى . ثم عاد الى ( ادنبره ) وأصبح محاضرا فى علم الحيـــوان بمدرســـة الطب . وعكف فى هذه الفتـــرة على التعمق فى الدراسات البيولوجية ثم شغل كرسى النبات فى جامعة (Dundee) وبدأ يؤلف . ومن أوائل اتنـــاجه العــلمى كتــاب عنـــوانه ( تطــور الجنس Evolution of Sex ) ونشر بمســـاعدة تلميـــذه ( آرثر

طمسون A. Thomson طائفة من الكتب نشرت فى مجموعة« Home University Series » أهمها : الجنس, Sex ؛ التطور Evolution ؛ علم الحياة Biology.

وأولى « جدز » مزيد اهتمامه بالدراســات الاجتماعية التطبيقية وبدأ بدراسة شئون الصناعة وأثر التصنيع فى تطور المدينة من النواحى الاجتماعية والاكلوجية والتخطيطية وما يتصل بذلك من شئون التعمير والاسكان والمرافق العامة والمنشآت الاجتماعية وأنشأ بمدينة ادنبره عام ١٨٩٢ متحفا يسمى Outlook Tower of Edinbourgh واتخذه حقلا لتجاربه ومعملا اجتماعيا لدراساته فضــلا عن أنه كان متحفــا اقليميا . وطبق منهجه على دراسة مدينة ادنبره ووضع فى هذا الصدد بحثين : « المسح الاجتماعى لمدينة أدنبره » و « تطور المدينة مع دراسة تخطيطية لهندسة الحدائق والمتنزهات » . وبينما كان ( جدز ) يقــوم بالمسوح الاجتماعية فى منطقة ادنبره ؛ كان تلميذه وزميله ( فكتــور برانفورد ) يقوم بمثل هذا العمل فى منطقة لندن . بيــد أن بحــوث ودراسات الأستاذ كانت أعمق وأدق وأكثر تركيزا من بحوث التلميذ وذلك لثبات قدمه فى مختلف الدراسات التى تخــدم أغراض المســح الاجتمــاعى . وأذاع ( جدز ) آراءه فى التطبيقــات الاجتماعية وهى ترتكز على القضــية التى مؤداها « المســح الاجتمــاعى قبــل الفعل Social Survey before action واعتبر هذه القضية الأساس الذى ترتكز عليه مشروعات الاصلاح والتخطيط الاجتماعى . ومن برج جذر ؛ مركز الاشعاع العلمى فى ادنبره ؛ خرجت هذه النظرية وانتقلت الى أمريكا ولاسيما الى شيكاغو بفضــل العــلامة « شــارل زبلن Charles Zueblin » أحد أتبــاع المدرسة وهو مواطن من شيكاغو وأخذ على عاتقه نشر منهج الأستاذ والقيام بحركة مسوح اجتماعيــة واسعة النطاق فى مدن أمريكا .

وجعل ( جدز ) من متحفه مقرا للمناقشات والمحاضرات العلميه . فكان يدعو فى الصيف ثقاة المفكرين وكبار العلماء فى القارة الاوربيــة لزيارة « متحف ادنبره » « Outlook Tower » والقاء محاضرات على

مستوى عال وعرض مشكلات العصر على بساط البحث . وكان من بين المترددين على ادنبره العــلامة الفرنسى Elisée Reclus وهو من علماء الجغرافية العالميين ، والفيلسوف الروسى الفوضوى Peter Kropotkin

ومنذ عام ١٩٠٠ أقام ( جدز ) فى لندن وســاهم بنصيب يذكر فى انشاء الجمعية الاجتماعية ومعهد علم الاجتماع والمجلة الاجتماعية عام ١٩٠٣ وذلك بالاشتراك مع زميله (V. Branford) وألقى فى هذه الفترة محاضرات جامعية هامة فى الموضوعات الآتية : الاقليم والمدينة ، التطور الاجتماعى المعاصر ، المدن ، تطور المهن والوظائف ، المدخل الى علم الاجتماع الصناعى والعمل وعلم الاجتماع وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية الهامة .

وشغل كرسى أستاذ علم الاجتماع بجامعة لندن . ولأمر ما يتعلق بمحاضراته العلمية ، أقيل وشغله من بعده أحد الشبان البارزين فى علم الاجتماع وقتئذ وهو العلامة « هوبهوس Hobhouse » . وفى عام ١٩٢٠ دعى الى الهند ليشغل كرسى الاجتماع بجامعة بومباى واستمر هناك أربعة أعوام وقام فى هذه الفترة بعمل مسوح اجتماعية لمدن كثيرة فى الهند وفلسطين . وكان الجهد قد بلغ منه مبلغا كبيرا وطلب مساعداً له يقوى على متابعة نشاطه وأفكاره . وقد ظل تلميذه برانفــورد الى جانبه حتى أخريات أيامه .

وأهم نقط الارتكاز فى فلسفة جدز الاجتماعية ما يأتى :

١ ـــ اهتم بالتحقيقات والمســوح الاجتماعيــة وأولى عنايتــه للاجتماع التطبيقى ولم يغرق فى علم الاجتماع النظرى . وهو الذى وضع القضية الشهيرة Survey before action ويقال انه فى المــدة ما بين ١٩١٤ الى ١٩٢٤ قام بمسح وتخطيط ما يقرب من ٥٠ مدينة فى الهنــــد وفلســطين فقط وذلك بالاشــتراك مع ابن زوجته فرانك ميرس Frank Mears (١) . وذلك بخــلاف ما قام به من مســوح وتحقيقات اجتماعية فى بلاده .

---

(1) Barnes: Introduction to the History of Sociology, p. 682.

٢ ــ درس مقومات الحياة الاجتماعيـــة وردها الى ثلاثة عوامل : البيئة ، الوظيفة ، التركيب العضوى : ولذلك ذهب الى أن هناك ثلاثة علوم أساسية يجب أن تلحق بعلم الاجتماع وهى : الجغرافيــة ( علم البيئة ) ، والاقتصاد ( علم العمل ) ، والانثروبولوجيا ( علم الانسان ).

٣ ــ نعى على المعاصرين له اسرافهم فى ابراز أثر العوامل الحيوية والبيئية . فالمجتمع لا يتأثر بهذه العوامل فحسب ، ولكنه يتأثر كذلك بعنصر الزمن . أى أن المجتمع بفضل تراثه الاجتماعى وتحسين ظروفه وأحواله يخلق طاقة حرة تمكنه من أن يضع قوانينه ونظمــه ويقــرر مستوياته الفنية والفكرية والدينية .

٤ ــ فكما يتأثر المجتمع بالبيئة والعمل والسكان ، فانه ينطوى كذلك على مجموعة من العوامل الاجتماعية : سياسية وثقافيةواقتصادية وفنية . أى أنه ينبغى أن نضيف قوة المجتمع الى قوة البيئة عندمانريد أن نحدد مقومات الحياة الاجتماعية . وينتهى « جدز » من تحليله الى تقرير قضية ملخصــها « ان الحتم والضرورة انمــا يحــكمان أحط مستويات الحياة ، أما الحرية الخالقة فهى من خصـــائص مســـتويات الحياة الراقية » .

٥ ــ كان يكره الحكم المطلق ويندد بالاسراف فى السلطة ويميل الى اللامركزية . فكان يؤيد سياسة استقلال المدن فى شئونها الخاصة وتنظيم الأقاليم وفق ظروفها . وكان ضد البيروقراطية والنزعة الحربية، ويؤيد حرية العمل والتعاون الاختيارى ، وكان يكره الارســتقراطية والديمقراطية الجاهلة ، ويؤيد المــزج بين الارســتقراطية المعتــدلة والديمقراطية المستنيرة .

وترك ( جدز ) وراءه مؤلفات كثيرة ومادة زاخرة غير مطبــوعة : مقالات وبحوث ، وكتب غير كاملة ، ووثائق ومذكرات يوميةوجميعها محفوظ فى متحفه «Autlook Tower» وينشر منها تبــاعا ما تتــاح الفرص لنشره . وبعض المؤلفات كتبها بمفرده ، والبعض الآخر ألفــه بالاشتراك مع زميليه وتلميذيه ( أرثر طمسون وفكتور برانفورد ) .

(ا) وأهم مؤلفات (جدز) وتحقيقاته الاجتماعية التى كتبها بمفرده:

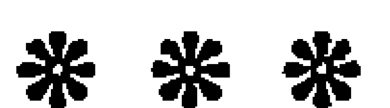
The classification of Statistics (Edinburgh 1881).
An analysis of the principles of Economics (Ed. 1885).
Civic Survey of Edinburg (Ed. 1911).
City Development: A Study of Parks; Gardens; and Culture institutes (1934).
Cities in Evolution. (London 1915).
Report to the Durbar of Indore (2 Vol. 1920).
Sociological papers (Publications of the Socio-Society).
Essentials of Sociology in relation to Economics.
Talks from My Outlook Tower (1925).

(ب) مؤلفات بالاشتراك مع تلميذه آرثر طمسون

The Evolution of Sex (2 Vols London 1833).
Evolution (New York 1912) — Sex (New York 1914).
Biology (N.Y. 1925) — Life outlines of Bio. 1931.

(حـ) بحوث بالاشتراك مع تلميذه وزميله فكتور برانفورد

The Coming Polity (London 1917).
Our Social Inheritance (London 1918).
The Coal crisis and the future (1926).
Coal-Ways to Reconstruction (1926).



### ١ ـ فكتور برانفورد V. Branford

تلميذ مخلص للعلامة (جدز). بدأ حياته بدراسة البيولوجيا وتأثر بالثقافات المحيطة به. غير أنه اضطر؛ لظروف عائلية قاهرة؛ أن يقطع هذا الطريق الدراسى الطويل الذى كان يؤهله لوظائف التدريس؛ ويتعلم المحاسبة والنظم المالية. وبالفعل أصبح موظفا حاسبا. وسافر الى أمريكا الجنوبية والتحق بمصلحة السكك الحديدية فى براجواى وكان فى عزبته يتابع دراسات وبحوث أستاذه ثم انتقل

الى الولايات المتحدة وكان أستاذه قد سبقه اليها . وتعرف فى شيكاغو على باحثين كثيرين عملوا على نشر طريقتهم فى المسح والتحقيق الاجتماعى . ثم عاد بعد ذلك الى انجلترا .

وفى عام ١٩٠٣ ( وهو العام الذى توفى فيه هربرت سبنسر ) نشر فكتور برانفورد بحثا وزعه على المختصين من علماء الاجتماع والمشتغلين بهذا العلم من رجال الأعمال عنوانه « أصل واستعمال لفظ علم الاجتماع » (١) وطلب منهم ابداء الرأى فى انشاء جمعية اجتماعية علمية . وقد استجاب كثيرون الى هذه الدعوة وتم انشاء هذه الهيئة العلمية «The Sociological Society» وانضم اليها أشهر دعائم الحركة الاجتماعية فى انجلترا أمثال : وستر مارك ، بريس ، جدز ، ولاس ، سلى ، هوبهوس ، هوبسن ، كد . وسرعان ما تحولت الجمعية الى معهد للدراسات الاجتماعية «Institute of Sociology» . وقد أشرف على المعهد لفيف من العلماء الذين يمتازون بشهرة عالمية فى ميدان الدراسات الاجتماعية أمثال : مارت ، باركر ، جوش ، جنزبرج ، مانهيم . وقد اهتم هؤلاء جميعا بالدراسات الاجتماعية وقام بعضهم بعمل مسوح وتطبيقات كثيرة . وأولوا عنايتهم الى الكشف عن أهمية وضرورة المحركات الدينية والأخلاقية فى قيم المجتمع ونظمه وذلك بجانب مؤثرات البيئة وظروف الحياة .

وكانت حياة برانفورد حياة علمية مليئة بالنشاط والحيوية . فلم يعرف يوما ما السأم أو الكلل . وكان من الأشخاص القلائل الذين يجمعون بين التفكير النظرى وبين وظيفة رجل الأعمال . فهو من الناحية العلمية والمهنية ينتسب لتلك الطائفة المتواضعة من المحاسبين ، ومن الناحية النظرية كان عالم اجتماع ومؤرخا وفيلسوفا . وكان من المدرسة التى تعتبر علم الاجتماع علما مستقلا ينبغى أن يقوم على الملاحظة والتحقيق والتجريب . وينبغى أن يجرد نفسه من التصورات والمعانى

---

(1) Origin and use of the Word Sociology.

الفلسفية والنفسية التى تتخـذ أسـاسا لتفسير حقائقه . لأن حقائق الاجتماع لاتفهم جيدا ولا تفسر الا فى ضـوء العمليـات الاجتماعية وكان عمليا فى بحوثه وتطبيقيا فى دراسـاته . ووسع مفهـوم لفظ : « مسح Survey » فلم يقصد به مجرد دراسة البيئة دراسة سطحية فى ظل النظم القائمة والحاضرة كما تذهب الى ذلك المدارس الأمريكية ولكنه كان يرى أن المسح هو دراسة دقيقة لظـروف البيئـة ومبلغ احتياجاتها مع ربط هذه الدراسة الحاضرة بأصولها التاريخية والثقافية والرجوع الى مقومات ارثها الاجتماعى من عرف وعادات ومثل وقانون ونظريات وأفكار . لأن الوقوف على هذه الحقائق هو القاعدة العلمية التى ترتكز عليها رسالة الاصلاح ، وهو الأساس الذى تبنى عليه سياسة التخطيط الاجتماعى .

وأهم دراسات ( برانفورد ) مايأتى :

Interpretations and Forecasts (New York 1914).
Science and Sanctity (London 1924).
Living Religions (London 1952).
Papers for the Present (Series 1917 — 1920).
Articles on Sociology (Chambers'; Britann. Encyc).

وذلك بخلاف ماأشرنا اليه من بحوث وتحقيقات قام بها بالاشتراك مع ( جـدز ) .



## ٢ ـ مدرسة البحث الاجتماعى

وهى المدرسة الاجتماعية التطبيقية بالمعنى الصحيح. فقدقام أعضاؤها بدراسات ومسوح اجتماعية للبيئات المحلية (Cities; Communities) سواء فى الريف أو المدن وذلك للوقوف على احتياجاتها الاجتمـاعية وتقرير طائفة من الاصلاحات ووضـع التشريعات التى تحقق الرفاهية الاجتماعية . ووجه هؤلاء مزيد عنايتهم الى دراسة بعض الطبقات مثل الطبقة الكادحة والعاملة للوقوف على ميزانية الأسرة الفقيرة وماتحتاج

اليه من مساعدات ومحاولة الارتقاء بظروف العامل الصحية والنفسية والثقافية منعا لانتشار الانحرافات والاتجاهات الشاذة ودرءا لأخطار الشيوعية الزاحفة على البلاد من شرق أوربا .

وكانت هذه الدراسات كلها فى الميدان الاجتماعى «Field work» ومزودة بالاحصائيات الدقيقة والمقارنات المحلية والقومية والدولية . حتى تكون نتائج البحث أدنى الى طبائع الأمور وأقرب الى التحقيق العلمى المنهجى . وكان الغرض الذى تهدف اليه هذه المدرسة هو النهوض بالحالة الجماعية وتنظيم ميدان الخدمات العامة وتنسيق جهود الاصلاح وتكاملها حتى تثمر بأسرع نتيجة مأمونة النجاح بدلا من تشتيت القوى وتنافر الجهود والتعثر فى برامج التنفيذ . هذا الى رغبتها فى سد النقص البادى فى التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والقضاء على عوامل الانحلال التى أخذت تستشرى فى البلاد منذ قيام الحركات الثورية والانقلابية فى بعض أجزاء الشعوب الصناعية الكبيرة وساعد على انتشارها تهاون المسئولين وفشلهم فى تنظيم برامج فعالة للمساعدات الفنية والاجتماعية والمالية اللازمة لمختلف طبقات الشعب وهيئاته . وأشهر رجال هذه المدرسة هم :

( أ ) شارل بوث «Ch. Booth» وقام ببحوث اجتماعية أهمها « الحياة والعمل بين سكان لندن [1] ومسح جديد للحياة والعمل فى لندن [2] .

(ب) وليم بفردج W. Bevirdge اشترك مع بوث فى كثير من بحوثه .

(حـ) كارسواندر Carr Saunders وقام ببحث ضخم فى ثلاثة أجزاء عنوانه « مسح اجتماعى لمنطقة مرسيسيد » [3] .

( ء ) كارادج جون Caradog Jones قام بمسح اجتماعى لمدينة لفربول ووضع مؤلفا عنوانه « تطور المسح الاجتماعى فى انجلترا منذ عهد بوث » [4] . واشترك مع ( ساوندر ) فى دراساته وتحقيقاته .

(1) Life and Labour of the people in London.
(2) New Survey of London life and Labour.
(3) The Social Survey of Merseyside.
(4) Evolution of the Social Survey in England Since Booth.

(هـ) وقام أنصار هذه المدرسة بمســـوح محلية فى أجزاء كثيرة : فدرس هنرى مس H. Mess مدينة Tyneside وأوين Owen مدينة شفيلد ، ورتشارد أفانز R. Avans مدينة هل Hull ، وبرسى فـــورد Percy Ford مدينة ســـاوثمبتن ، وهربرت توت H. Tout مدينة برستول .

***

## ٣ ـ مدرسة الرأى العـــام

تخصص بعض أنصار هذه المدارس التطبيقية فى دراسة ارلأى العام والوقوف على أتجاهاته بصدد المشاكل التى تنشأ فى جو المجتمع أو فى محيط العلاقات الدولية وأبرز من لمع اسمه فى هذا الميدان توم هاريسون «Tom Harrisson» وشارل مادج «Ch. Madge»

قام الأول برحلات فى جزر البورنيو والباسفيك وعمل مســـــوحا اجتماعية للبيئات التى زارها وضغط بصفة خاصة على اتجاهات الرأى العام . واقتنع بعد هذه الرحلات بأننا لانعرف من أمر الشعوب التى نعيش بينها أكثر من معرفتنا بهـــذه المجتمعات البـــدائية وأن الواجب يقتضينا أن ندرس عادات وسلوك شعوبنا بالطريقة نفسها التى ندرس بها أخلاق وعادات وأفكار الشـــعوب البـــدائية أو المتخلفة اجتماعيا . ولذلك نراه ينعى على العلماء المعاصرين له اهتمامهم بدراسة المجتمعات البدائية أكثر من اهتمامهم بالمجتمعات المتحضرة ونصح لهم بتطبيق مناهج البحث المتبعة فى دراسة أحوال البدائيين على دراسة الاتجاهات والآراء العـــامة فى الشعوب المتطورة . واهتم هذا الباحث وزملاؤه بدراســـة القوى المحركة لنشاط الأفراد فى الحياة الاجتماعية والقوى المؤثرة فى الرأى العام وفى نفسية الطبقات ومبلغ عمق الوجدان الطبقى أوالذاكرة الطبقية «Class Conscience» وأثر ذلك فى توحد مواقف المجتمع ازاء ما يجرى فيه من حوادث سياسية واقتصادية ودولية .

أما « شارل مادج » فكان صحفيا اهتم بدراسة أثر الصحافة فى الرأى العام وخاصة فى الطبقات العاملة . ودرس القـــوى المؤثرة فى

التقريب الفكرى بين مختلف الطبقات حتى يمكن خلق رأى عام موحد يعبر عن مبلغ الوحدة العقلية والشعورية بين الأفراد .

وأنشأ أنصار هذه الدراسات مجلة تعبر عن آرائهم عنوانها « صحيفة الرأى العام Journal of opinion and Attitude Research هذا ، ويرجع الى أنصار هذه المدرسة الفضل فى دراسة أثر الحروب والأزمات الاجتماعية والهزات الدولية فى تغيير مواقف المجتمع وقيمه تغييرا جوهريا سريعا لايتمشى مع معايير الضبط الاجتماعى ولا يتفق مع الاتجاهات الطبيعية المألوفة . كما حدث بصدد سياسة أمريكاوموقفها أثناء الحربين الأخيرتين فقد خرجت عن سياسة العزلة وعن تأييد قضية السلام ومبادىء الحياد الايجابى . والتجأت الى سياسة الأحلاف واثارة الحروب الباردة بينها وبين المعسكر الشرقى . وظهر أثر هذه المدرسة فى تعزيز قضية الحقوق الانسانية وخاصة حقوق المرأةالسياسية ويرجع الى هذه المدرسة دعائم الفضل فى انشاء معاهد الرأى العام وأشهرها معهد العلامة « فرنون Vernon » .

***

### ٤ ـ مدرسة الاقتصاد فى لندن
London School of Economics

قام أساتذة مدرسة الاقتصاد السياسى فى لندن بعمل تطبيقات ومسوح اجتماعية فى كثير من أجزاء الجزر البريطانية . وكانت غايتهم من ذلك الوقوف على احتياجات المجتمع ومعرفة ظروف الحياة الاقتصادية وتطورها والقوى المؤثرة فيها . وينتمى معظم أنصار هذه المدرسة الى جماعة الفابيين الذين يمثلون فى انجلترا الاشتراكية المعتدلة وأهم البحوث التى عملت فى هذا الميدان ماقام به سدنى وزوجته باتريس وب وعنوانه « برنامج الهيئة الاشتراكية فى بريطانيا العظمى . ومن أشهر أنصار هذه المدرسة مالنيوسكى Malinowsky وهارولد لاسكى Harold Lasky وموريس جنزبرج M. Ginsberg

***

## ٥ ـ مدارس اجتماعية محدودة

بجانب الاتجاهات الرئيسية التى أشرنا اليها توجد مدارس خاصة محدودة النطاق واتجاهات فرعية جزئية أجدرها بالذكر مايأتى :

### ١ ـ المدرسة الفابية Fabian Society

تكونت جماعة الفابيين فى أوائل عام ١٨٨٤ بفضل طائفة من المفكرين الذين ينتمون الى المعسكر الاشتراكى . وكان هؤلاء يجتمعون منذ عدة سنوات مضت لدراسة المشاكل السياسية والاجتماعية التى حفل بها عصرهم والبحث فى أفضل الوسائل التى ينبغى الالتجاء اليها للقضاء عليها والعمل على اشاعة قدر معقول من المساواة والعدالة الاجتماعية . وكانوا جميعا من رواد الاصلاح الاجتماعى ومن المثقفين ثقافة عالية ومن المتصلين بالشئون العامة فى الدولة . وكان اطلاعهم واسعا فى المسائل الاقتصادية والسياسية وكان معظمهم متأثرا بالاتجاه الاشتراكى ولاسيما الاشتراكية الزراعية التى أذاعها الاشتراكى الأمريكى « هنرى جورج » فى كتابيه « أراضينا وسياسة الأرض ، والتقدم والفقر » ولاسيما مانادى به من أن قيمة الأرض من خلق المجتمع وترتفع هذه القيمة بتقدم المجتمع وتطوره وزيادة مطالب الحياة فيه . وقام معظم أنصار هذه المدرسة بعمل شروح وتعليقات على نظريات ماركس وميل ومن اليهم من مفكرى العصر .

وقد انضم « جورج برناردشو » الى هذه الجماعة فى أواخر عام ١٨٨٤ والتحق بها فى السنة التالية « سدنى وب وزوجته والسيدة آن بزانت » وكانوا جميعا من أنشط أعضاء الجمعية وأقواهم شأنا .

ولم يكن هدف الفابيين تكوين حزب أو منظمة سياسية أوالاشتراك فى الحركات العمالية أو الدعوة الى التكتل الطبقى والقيام بالمؤامرات والانقلابات ولكنهم كانوا جمعية اصلاحية ترمى الى نشر الوعى الاصلاحى وتقديم خدمات اجتماعية فى كل ماتدعو اليه النظرية الاشتراكية المعتدلة . والعمل على نشر الاشتراكية كما يفهمونها وليس

كما يفهمها ماركس أ المدارس الاشتراكية القائمة . ولذلك أعلنوا للمسئولين آن نظام الحرية الاقتصادية المطبق على نطاق واسع يوفر رغد العيش لفئة قليلة على حساب شقاء الكثيرين وأن مطالب تطور الحياة الاجتماعية تستدعى ضرورة التفكير فى اعادة تنظيم المجتمع بطريقة تضمن السعادة والرفاهية للجميع . وقد وضح اتجاههم نحو تحقيق اشتراكية المجتمع فى البرنامج الذى نشره «Shaw» بمناسبة التحاقه بالجماعة فى سبتمبر عام ١٨٨٤ وقد دعا فيه الى «تأميم الأرض» وحث الحكومات على أن تتدخل بكل قوتها وكافة أجهزتها فى شئون الانتاج وتنظيم العلاقات الاقتصادية .

وقد ساهمت هذه الجماعة عندما اتسع نطاقها فى كثير من الأمور السياسية وعملت على نشر أفكارها وانضم اليها الكثيرون من مختلف الهيئات والاتحادات العمالية والشعبية الرامية الى الاصلاح . وقام أعضاؤها بنشر الكتب والمقالات والقاء المحاضرات التى تهدف الى شرح وتبرير النظرية الاشتراكية المعتدلة ، وترسم الطريق السوى لتنفيذ البرنامج الاشتراكى عن طريق التشريع والادارة . وحصر مندوبوها فى المؤتمرات السياسية الدولية .

وقد اتبع معظم الفابيين فى كتاباتهم التقليد الماركسين وذلك بأن أقاموا مذهبهم الاشتراكى على أسس اقتصادية وتاريخية . غير أن المادة التى اعتمدوا عليها فى تحليل الحقائق ليست هى المادة التى استخدمها ماركس . فلم يأخذوا بوجهة نظره فى أن العوامل الاقتصادية هى القوى الحقيقية التى تؤثر فى التطور التاريخى . وأن جميع التغيرات التى تحدث فى شئون السياسة والأخلاق والدين والاجتماع انما ترجع الى تغيرات مماثلة فى العلاقات الاقتصادية . ولم يتخذوا من المادية التاريخية تبريرا لنظريتهم الاشتراكية ، ولكنهم اعتمدوا على هذه الحقائق التاريخية والاقتصادية فى البرهنة على أن التطور الطبيعى للمجتمعات يسير فى حركة مستقيمة نحو تحقيق الاشتراكية والديمقراطية معا . وقد شرح « وب » هذه الفكرة فى البحث الذى نشره عام ١٩٢٠

وعنوانه « دستور الهيئة الاشتراكية فى بريطانيا العظمى » وفيه يحمل على ماركس وعلى دعاة الثورة وهواة التمرد ويناشد الطبقات المستنيرة للعمل على بث الفضائل وتقوية دعائم التعاون بين مختلف الطبقات وينتهى من دراسته الى القول بأن حوادث التاريخ تكشف لنا عن التقدم المستمر المزدوج فى النظامين : الاشتراكى والديمقراطى . وفى ضوء هذا الاعتبار تعتبر الاشتراكية هى روح بنيان المجتمع الديمقراطى .

هذا ، وقد اعتمد الفابيون فى تبرير مذهبهم الاشتراكى على نظرية « القيمة » فقد اعتبروها من خلق المجتمع وليست من خلق العمال وحدهم وهدف الاشتراكية فى نظرهم هو اتاحة الفرص لكل فرد بأن يأخذ نصيبه من جميع القيم التى يخلقها المجتمع لأفراده دون ايثار طبقة على الأخرى . والسبيل الواضح لتحقيق هذا الهدف هو تحويل ملكية الأراضى الزراعية ورأس المال المنتج الى ملكية المجتمع على أن تكون الحكومة هى الممثلة للمجتمع من حيث هو شخصية معنوية ولا تنتقل الى طبقة معينة وهى طبقة العمال . وكان الفابيون يثقون ثقة لاحد لها فى أهلية الحكومة الديمقراطية فى أوربا وأمريكا لتنفيذ البرنامج الاشتراكى الذين يهدفون اليه .

وبالرغم من أن الفابيين كانوا اشتراكيين ، غير أنهم كانوا استعماريين فلم يقفوا فى سبيل الروح القومية ونزعتها الاستعمارية ، ولم يحاربوا سياسة الامبراطورية الاستعمارية . وعملوا من جانبهم على صبغ هذه السياسة بالصبغة الاشتراكية وحثوا الحكومات على أن تجعل من سياستها الدولية وعلاقاتها بالمستعمرات سياسة اشتراكية . وظهر أثر ذلك فى ظهور فكرة الـ « Commonwealth الكومنولث البريطانى » ومنح الاستقلال الذاتى لكثير من أجزاء الامبراطورية مثل كندا وجنوب أفريقية والهند . وحققت هذه المدرسة للشعب البريطانى خدمات اجتماعية وانسانية عاجلة وقامت بطائفة من الاصلاحات الاجتماعية والعمرانية ودعت الى تعزيز الناحية الروحية والوجدانية والقضاء على الاتجاهات غير القومية التى تثيرها دولية العمال .

٢ ــ المدرسة النفسية

تأثرت طائفة كبيرة من مفكرى الانجليز بالدراسات النفسية وعالجت موضوعات علم الاجتماع فى ضوء قوانين وحقائق علم النفس . ومن أنصار هذا الاتجاه « هوبهوس Hobbouse » الذى عنى بدراسة التطور الاجتماعى وأرجعه الى زيادة قدرة العقل على بحث المشاكل وسيطرته على ظواهر الطبيعة وتمكنه من كشف القوانين التى تنطوى عليها هذه القوى الطبيعية . فكل كشف جديد يعبر فى نظره عن انتقال الانسانية الى مرحلة أرقى . وفى ضوء هذه النظرية يعتبر التطور الانسانى نزوعا الى الكمال وارتقاء فى معايير القيم . وبذلك يقترب « هوبهوس » من أصحاب فلسفة التاريخ .

وتظهر الاتجاهات النفسية بصورة واضحة عند طائفة من المفكرين الذين درسوا العلاقات الاجتماعية وحاولوا أن يكشفوا عن القوى المؤثرة فى هذه العلاقات . وأشهر هؤلاء العلامة « الكسندر سذرلاند A. Sutherland » الذى أرجع القوى المؤثرة فى العلاقات الاجتماعية الى المشاركات الوجدانية . والعلامة « بنيامين كد Kidd » الذى أرجع هذه القوى الى الدين . ومنهم كذلك « جراهام والاس G. Wallas الذى وجه مزيد عنايته الى التحليل النفسى للطبيعة الانسانية . والعلامة « وليم مكدوجال W. Macdougall » الذى وضع أسس علم النفس الاجتماعى والعلامة « والتر باجهوت W. Bagehot » الذى درس أثر قوى النفس والطبيعة فى شئون السياسة وذلك فى كتابه
(Physics and Politics)

٣ ــ المدرسة الجغرافية : وهى التى اهتمت بدراسة أثر العوامل الجغرافية والعوامل البيئية على الفرد والمجتمع . وخير من يمثلها العلماء : ريد كوان Reid Cowan ، وجيمس فرجريف Farigrieve وماكيندر Mackinder واهتم بعض أنصار هذه المدرسة بدراسة الوحدات الاقليمية دراسة جغرافية اجتماعية . ومن هؤلاء : هبرتسون Hebertson وفاركارسون Farquharson ، وهربرت فلور H. Fleure

٤ ــ مدرسة الوراثة وشئون النسل : وهى مدرسة تابعة لهربرت سبنسر بيد أن أنصارها تخصصوا فى دراسة قوانين الوراثة البيولوجية وأثرها فى الوراثة الاجتماعية ، ومبلغ تطبيق هذه القوانين على المجتمع. وأقوى دعائم هذه المدرسة « فرانسيس جالتون وتلميذه كارل بيرسون F. Galton; K. Pearson وقد اهتم التلميـذ بدراسة شـئون التناسل ووسائل تحسينه ، وقام باحصائيات واسعة النطاق وعرض المشـكلات الاجتماعية المتصلة بهذا الموضـوع . وتعـرف نظرياته « بالأوجينية Eugenics » . وهذه الدراسات وثيقة الصلة بالدراسات السكانيـةالتى حمل لواءها كارسواندر ووليم بفردج Carrsaunders ; W. Beveridge وترجع فى أصولها البعيدة الى « مالتس » .

٥ ــ مدرسة الاقتصاد السـياسى وأتباعها : وهى المدرسة التى أسسها « سدنى وب S. Webb » عام ١٨٩٥ . وانضم اليها كثير من أعضاء الجمعية الفابية . والحق أن انجلترا أنتجت مالم ينتجه بلد آخر من الفكرين الذين تخصصوا فى الدراسات الاقتصادية وتعمقوا فى مختلف ميادينها وربطوا بينها وبين مختلف مظاهر الحياة الاجتمـاعية وأشهر هؤلاء « هوبسن Hobson وسدنى وب وزوجته بتـريس Sidney; Beatrice Webb» وباربارا هاموند B. Hammond وبيجـو Pigou وهنرى كلاى H. Clay وكول H. Cole

وتخصص بعض أنصار هذه المدرسة فى الدراسات السـياسية وأشـهرهم : ميتـلاند وفجيس ولاسـكى Maitland; Figgis; Lasky ومنهم من تخصص فى الدراسات التاريخية والتاريخ الاجتماعى وتطور الثقافة والنظم الانسانية وأشهرهم : توينبى وبولارد وميرس ومارفن «Toynbee; Pollard; Myres; Marvin» (١) .

ومن الذين أرخوا للنظم الاجتماعية كذلك : « جوش وجم وморلى وفولر وسـدنى وبتريس وب « Geoch, Gomme, Morley Fuller, Sidney Beatrice Webb » ويمكننـا أن نضيف الى ما تقـدم بعض أعلام المفكرين الذين أثروا فى الفكر الاجتماعى المعاصر وأشـهرهم

(1) Barnes: An Irtord to the Hist of Sociology. p. 60 3 Sqq.

أصحاب الأفلاطونيـة الحديثة : « جرين ويوزانكيـة وبرادلى ; Green Bozanquet; Bradley» ثم بعض الفلاسفة المعاصرين أمثال شلر ،وبرنار رسل ، وهويهد ، وولز ، وبرنارد شو;Shiller; Russeil; Whitehead» Welis; B. Shaw» (١)

وتخصص بعض المفكرين فى دراسة العلاقات الدولية ومشـكلات العالم والصعوبات التى تهدد مختلف التكتلات الدولية وأبرز من كتب فى هذا الميدان مترانى ، وزمرن ، وهوبسن ، وولف ، وبرنز (٢) .
«Mitrany; flimmern; Hobson; J. Bryce; L. Woolf; Burns»

٦ ـ مدرسة الاجتماع الحربى «Sociology of War» لايمكننا ونحن بصدد الحديث عن علم الاجتماع فى انجلترا أن نغفل البحوث التى يقوم بها العلامة « رمنى Jay Rumney » . فهو من علماء الاجتماع البعيدين عن الدعاية والظهور . يمتاز بانتاجه الخصب وبحثه الدقيـق ولاسيما فى « سسيولوجيا الحرب » أى دراسة الحرب باعتباره ظاهرة اجتماعية . فقد أدرك أن الحرب لاتقوم اتفاقا أو مصادفة ولكنها ترجع الى قوى كامنة فى طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية وأن هناك أمورا تخرج هذه القوى الى الفعل . فدرس المؤثرات النفسية المهيئة لقيـام الحروب وعرض للمشاكل والصعوبات الاجتماعية التى تنشأ أثنـاء الحروب وبعدها ومدى مايصيب المجتمعـات غالبة ومغلوبة من تفكك وانحلال خلقى واجتماعى . وعرض كذلك للمشكلات الاقتصادية ودرس اقتصاديات الحرب والتحول الى الانتاج الحربى ثم الرجوع بعد الحرب الى الانتاج المدنى وأثر كل هذه التحولات فى القيم الفكرية والاخلاقية. وقدم « رامنى » فى كل هذه النواحى بحوثا ممتعة مزودة باحصائيـات وحقائق مستمدة من تاريخ الحربين العالميتين الأخيرتين . هذا ، وينبغى الاشارة الى أن علم الاجتماع الحربى قد تقدم أخيرا فى انجلترا وأمريكا وروسيا . وتستمد معظم الدراسات الحـربية دعائمها مما ذكره داروِن وسبنسر واتباعهما أمثـال جمبلوفتش وراتزنهوفر ونفيكوف وفاكارو

(1) (2) Gurvitch; Moore; Twentieth Century Soc. p. 574.

بصدد دراسة الأصــول الحيوية للــكيان الاجتمــاعى وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى والبقــاء للأصلح . فقد طبقوا هــذه المبادىء على دراسة ظاهرة الحرب وزادوا على ذلك أن قوة الدفاع لاتتوقف نحسب على اعداد الجيوش من النواحى المادية والفنية والاســتراتيجية ، بل يجب على القائمين بشئون الدفاع الاهتمام بالمسائل الاجتماعية ودراسة نفسية الجيوش . فلا يقتصرون على ما تقدمه لهم العلوم الطبيعية من خدمات لاستغلال الطاقة المادية بل ينبغى العناية كذلك بما تقدمه العلوم الانسانية وخاصة الاجتماعية من معلومات تفيد شئون الحرب .

٧ ــ مدرسة « هوبهوس Hobhouse » احتل « هوبهوس » ( ١٨٦٤ ــ ١٩٢٩ ) فى الفكر الانجليزى المكانة التى كان يحتلهاهربرت سبنسر : فهو خليفته غير مدافع ، وهو الفيلسوف الذى أنتجته انجلترا بعد هربرت سبنسر ليحمل مشعل الدراسات الفلسفية والاجتماعية التى سبق أن حملها ذلك الفيلسوف العظيم . شغل « هوبهــوس » كرسى الاجتماع فى جامعة لندن من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩٢٩ . وترك انتاجا زاخرا بشتى النظريات الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية والســياسية ضمنها مؤلفاته التى أشهرها :

The Metaphysical Theory of the State.

The Rational Good.

Elements of Social Justice.

Social Development; Its nature and Conditions.

Social Evolution and Political Theory.

Democracy and Reaction.

Development and Purpose.

Liberalism — Moral in Evolution.

هذا فضلا عن المقالات القيمة التى نشرها فى صحيفة «Sociological Review»

وكان ( هوبهوس ) موضــع التقدير من معاصريه ومعاونيه . فقد ذكر تلميذه « جنزبرج » فى المقــال الذى كتبه عن أســتاذه فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية « ان عمله كان عظيما ورائعا ، وهو من أوائل

رواد علم النفس المقـارن ، وساهم مسـاهمة فعالة فى وضـع أسس الدراسات الاجتماعية العلمية ، وقد وضعته دراساته وبحوثه فى الفلسفة والاخلاق والاجتماع فى الصف الاول من مفكرى العالم » .

استأثرت نظرية التطور بمزيد عناية ( هوبهوس ) بل تعتبر هـذه النظرية هى قطب الرحى من فلسفته الاجتماعية . والتطور فى نظـره هو أساس كل العلوم الحديثة وهو حجر الزاوية من النظام الاجتماعى الحديث الذى يعتبره مظهرا من التطور العام . والمجتمع فى نظره وحدة عضوية «Organicunit» خاضعة لعملية التطور . وكانت هـذه العملية تسير سيرا آليا تلقائيا فى المجتمعات البدائية كما هـو الشأن بصدد تطور الحياة الحيوانية . بيد أن التطور ، بعد أن انتقل بالمجتمعات الانسانية الى مرحلة أكثر ارتقاء ، أصبح خاضعا للعقل والشعور بالذات «Consciousness and Self-Consciousness» بمعنى أن التطـور فى المجتمعات البدائية كان محدودا بالعوامل الطبيعية والميكانيكية.وكانت هذه المجتمعات خاضعة لقوانين تنازع البقاء والبقاء للأصلح والانتخاب الطبيعى ثم تطورت حياتها الاجتماعية الى أن أصبح العقل هو القـوة الموجهة للتطور والمسيطرة على ظروف الحياة .

وكان ارتقـاء ملكات العقـل وقدراته رد فعل لما افتقده الانسان فى تطوره البيولوجى ، أى أنه عوض الانسان عما أصابه من ضـعف جسمى وفيزيقى .

وفى هذا الصدد يقول : ان أهم خصائص هذا العصر أن الحضارة لأول مرة لها اليد الطولى ، وأن الظروف والاعتبارات الطبيعية أصبحت خاضعة لسيطرة الانسان وسيطرة العقل الجمعى ، وأن المؤسسات انما تقوم بوحى من النظام الاجتمـاعى مما يجعلنا نسلم بأن ثمة تقـدم اجتماعى مستمر (١) .

ولمـا كان نمو العقل الانسانى وقوة ضبطه «Conscious Control» وسيطرته على ظروف الحياة هو المبدأ الأساسى فى عملية التطور ، فلابد

(1) Social Evolution and Political theory p. 163.

من البحث عن منهج علمى لقياس هذا النمو . ويرى « هوبهوس » أن « قانون الأطراد » Correlation هو المنهج الذى بفضله يستطيع العقل أن يربط بين الحالات العقلية البدائية والحالات العقلية الراقية وبفضله يمكن قياس درجات النمو التى قطعها البنيان الاجتماعى فى تقدمه وارتقائه (١) .

ولما كان العقل والشعور هو الذى يحد التطور فى المرحلةالارتقائية فلابد اذن أن ينطوى هذا التطور على عملية غائية تستهدف فى نهاية تحليلها تحقيق الانسجام التام والتناسق الكلى فى الحياة الاجتماعية Social Harmony

ومتى تحققت حالة التناسب هذه فى المجتمع ، وصل الى ماصطلح على تسميته « بالخير العقلى Rational Good » وهى أقصى مراحل التقدم الاجتماعى حيث تتحدد حقوق وواجبات الأفراد وتسود العدالة وتتحقق الديمقراطية بمفاهيمها العريضة . فالتقدم الاجتماعى «Social Progress» هو نهاية المطاف من عملية التطور الاجتماعى وهو فى آخر تحليله ينطوى على زيادة تكيف الأفراد بالنسبة للمجتمع ، وتناسق الأشكال المختلفة للتنظيم الاجتماعى بالنسبة لبعضها البعض ، وتناسق المجتمع ككل بالنسبةللبيئة المحيطة به.وفى ضوء هذهالاعتبارات يمكن اعتباره تقدما مستمرا لمبادىء الوحدة والنظام والتعاون والانسجام والتناسق بين الكائنات البشرية (٢) . والمجتمع المثالى الذى يتجه اليه هذا التقدم هو المجتمع الذى تتحقق فيه حالات التناسق المشار اليها ولا يمكن أن نعزو هذا التقدم الى عوامل آلية أوتوماتيكية ولكنه خاضع للعقل والذكاء والارادة . ولذلك يقرر ( هوبهوس ) أنه من الممكن اتخاذ نمو العقل الجمعى ومبلغ سيطرته على ظروف الحياة مقياسا لهذا التقدم (٣) .

وهذا ماحدا به أن يجعل التقدم الاجتماعى هو الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع . ويفرق ( هوبهوس ) بين التقدم الاجتماعى والتطور

(1) Barnes; An Introduction to the Hist, of Soc. 617.

(2,3) Hobhouse; Social Evolution p. 127 (3 - p. 101).

الاجتماعى . فيقصد بالتقدم النمو المطرد الارتقائى فى الحياةالاجتماعية بفضل نمو القدرات العقلية . أما التطور فينطوى على معنيين : فقد يكون تقدما الى الأمام «Advance»، وقد يـــكون تراجعا «Retrogression» أى نكوصا الى الخلف . والتقدم الاجتماعى فى نظره لايعتمد كما سبق الاشارة على العوامل الآلية والبيولوجية وانما هو نتيجة للعـــوامل النفسية والقوى العقلية والشعورية والدوافع الاجتماعية فهو منطبيعة ثقـافية . «Cultural Item»

وفى هذا الصدد يقول«Progress is not Racial; but Social» (1)

وبجانب هذا التحليل العميق لمبادىء الحياة الاجتمـاعية ، درس هوبهوس الناحية السياسية وأولاها مزيدا من العناية . فدرس الأشكال السياسية : الملكية المطلقة والملكية الاقطاعية والامبراطورية . ودرس الديمقراطية والعدالة والمساواة وفكرة المواطن . وكشف عن الدعائم الأساسية التى ترتكز عليها الأشكال السياسية وتطور هذه الدعائم . وقرر فى هذا الصدد أن الأشكال السياسية فى تطورها خضعت لثلاثة مبـادىء :

١ ــ القرابة Kinship وهى الرابطة التى كانت مسيطرة فى المجتمعات البدائية والأشكال الاجتماعية التى ظهرت فى فجر الحيـاة الاجتمـاعية .

٢ ــ القوة والسلطة Authority وهى دعامة المجتمعات المطلقة القديمة حيث كان الدين وقوة السيادة الشخصية هما العاملانالمسيطران على النظام السـياسى .

٣ ــ المواطنة وبمعنى أدق « الرعوية أو الصفة المدنيـة Citizenship وترتكز هذه المرحلة على قوتين : المسئولية الفردية فيما يتعلق بالحقوق والواجبات المدنية ، والمسئولية الحكومية المعبرة عن ارادة مجمـوع الأفراد وهى التى تتبلور فى القانون والادارة . وفى هذا الشكل لا يمكن

(1) Hobhouse; Social Evolution and Political Theory p. 39.

التعبير عن العلاقة بين الحكومة والمحكومين بالقوة والتسلط والالزام كما هو الشأن فى المرحلة الثانية ، ولكن يمكن قياسها بمبلغ الرضاء المتبادل بين الطرفين ومبلغ تنفيذ كل منهما لتعهداته والتزاماته التى لا تستهدف الا الخير المشترك والمصلحة الجماعية . والحكومة فى هذا الشكل ليست هى منبع السلطة ومصدر التشريع والقانون ، ولكنها مجرد مفوض أو وكيل عن الشعب لادارة شئونه . والقانون فى هذا الشكل لم يكن هو مجموعة الأوامر والنواهى الصادرة عن ارادة السيد الدكتاتور ، ولكنه التعبير الواضح عن ارادة الأفراد والمترجم عن رغباتهم ومصطلحاتهم فى الحياة الاجتماعية . ويعبر الأفراد عن ارادتهم هذه بواسطة الهيئات الانتخابية . وحقوق المواطنين فى هذا الشكل لا تقل شأنا عن واجباتهم ، وهى عبارة عن ضمانات تحفظ مصالح الأفراد قبل الحكومة كما تحفظ مصالحهم المتبادلة بنسب متكافئة . فهى اذن مقياس الخير المشترك وهى دعامة أساسية مميزة للدولة الحديثة القائمة على مبدأ « المواطنة أو الرعوية » والخاضعة « للسيادة غير الشخصية (1) » .

***

## ٨ ـ مدرسة جنزبرج Ginsberg

يعتبر «جنزبرج» من علماء الانجليز البارزين فى ميدان الدراسات الاجتماعية » شغل كرسى الاجتماع بمدرسة الاقتصاد السياسى فى جامعة لندن منذ وفاة أستاذه « هوبهوس » . تابع دراسات أستاذه ، ونشر مؤلفات وبحوثا كثيرة ، وألقى طائفة من المحاضرات العلمية القيمة قام « معهد علم الاجتماع » بنشرها . وأهم تراثه العلمى ما يأتى :

The Simpler peoples (with Hobhouse; Wheeler).

Dialogues on Metaphysics.

The Psychology of Society (1921).

On the place of Sociology (Conf 1935).

---

(1) Hobhouse; Moral in Evolution; p. 60 Sqq.

وقد أعيد نشر هذه المقالات فى كتاب عنوانه : Studies in Sociology (1932)

The Scope of Sociology (Soc. Review 1927).
The Inter change between Social Classes.
The Claims of Eugenics.
The Inheritance of Mental Characteristics.
Causality in the Social Sciences.
Concept of Evolution in Sociology.
Sociology (1934).

وتحتوى البحوث المشار اليها على دراسات تحليلية مركزة فى كثير من موضوعات علم الاجتماع . ويعتبر كتابه « نفسية المجتمع » أغناها بالموضوعات التى عرضها على بساط البحث وهو يعتبر فى جملته مقدمة لعلم النفس الاجتماعى درس فيه الغرائز وحللها وحلل طبيعة الارادة والعقل وناقش نظرية العقل الجمعى وعالج موضوع العادات والعرف والتقاليد ومقومات التراث الاجتماعى والرأى العام والنماذج الاجتماعية مثل المجتمعات المحلية والهيئات والمؤسسات . ودرس خصائص ومقومات الوحدة العنصرية والقومية والتزم فى هذه الدراسات الخطوط الرئيسية لفلسفة استاذه « هوبهوس » .

وفى بحثه عن « منزلة علم الاجتماع » نادى بضرورة تطبيق المنهج المقارن فى الدراسات الاجتماعية . فان اتساع نطاق استقراء الحقائق وجمعها وتحليلها ومقارنتها فى أدوار تاريخية مسلسلة أمر ضرورى لتحديد الوظيفة التى تؤديها العوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية فى تاريخ الحضارة ، والوقوف على مبلغ تطور هذه الوظيفة واختلافها باختلاف المجتمعات وباختلاف العصور (1) »

وفى مقاله عن « ميدان علم الاجتماع وموضوعه » ضغط على الاعتبارات الآتية :

١ ــ يجب أن يحدد الباحث فى هذا العلم طبيعة وخواص النماذج المختلفة للأنماط أو الجماعات والنظم التى تنطوى عليها ويجب عليه أن يتتبع مراحل تطورها ونموها فى مختلف العصور وباختلاف الشعوب .

(1) Gurvitch; Moore; Twentieth century Sociology p 580.

٢ ــ يجب على الباحث ، بفضل استخدام المنهج المقارن وبفضل الاستعانة بالمقاييس الكمية ما وسعه ذلك ، أن يحدد العلاقات المتبادلة بين النظم والظواهر الاجتماعية وبين درجة نموها ويقف على مبلغ انتشارها .

٣ ــ وعلى الباحث أن يصل الى قوانين عامة معبرة عن مثل هذا النمو . أى يجب عليه الوصول الى طائفة من القوانين الاجتماعية التى تسير وفقا لها ظواهر المجتمع ونظمه .

٤ ــ ويجب على الباحث أن يشرح هذه القوانين ويحللها ويترجم لها فى ضوء قوانين الحياة والعقل الأكثر عمومية . ويبدو فى هذه النقطة مبلغ تأثره بعلمى النفس والبيولوجيا .

ويعتبر بحثه فى « العلاقات المتبادلة بين الطبقات » أول بحث فى انجلترا يتناول موضوعات « الحراك الاجتماعى أو المرونة الاجتماعية Social Mobility والتنظيم والتدرج الطبقى والمراكز والأوضاع والرتب الاجتماعية » .

هذا فضلا عن البحوث القيمة التى تتناول اليوجينية « تحسين النسل » والنواحى العقلية فى الحياة الاجتماعية ، والتطور الاجتماعى ، ومقومات الثقافة والتراث الاجتماعى وعناصره « اللغة والدين والعلم وما اليها » مما لا يتسع المقام لتفصيله .

# الفصـــل الرابع

## المدارس الاجتماعية فى أمريكا

عندما استقرت الأوضـــاع فى أمريكا بعد الحروب الأهلية وقامت الجامعات أنشأت هذه الجامعات كراسى لأستاذية علم الاجتماع وشجعت المشتغلين بمسائله . لأن الأمور السياسية والاقتصادية والعمرانية كانت تتطور فيها بسرعة فائقة وكانت الحاجة ماسة الى تنظيم علمى وعملى فى شئون الحياة الاجتماعية بالاجمال . وقد استعار مفكرو أمريكا فى بادىء الأمر أصول نظرياتهم من المدارس الاوربية المعروفة مثل مدارس « كونت ودور كايم وسيمل وسبنسر » وأضفوا عليها بعض خصائص الحيـــاة الأمريكية . واختـــاروا من نظريات الغرب ما يتفق وظروفهم وما يساعدهم على حل المشاكل التى تواجههم . وكانوا دائما يحاولون أن يعالجوا الموضوعات فى ضوء مشاكلهم الخاصة ووفق نزعتهم المعروفة فى تفضيل العمـــل المنتج السريع على النظر العقيم حتى استطاعوا أن يؤقلموا العلم ويكسبوه شخصية مميزة .

ولعلهم وجدوا القدر النظرى الكافى فى بحوث الغرب فكفاهم هذا القدر مؤونة اعادة الجدل النظرى من جديد حول المســـائل الفلسفية المتعلقة بأصول النظم والكشف عن طبيعتها ومراحل تطورها والمشكلات النظرية المتصلة بمقومات الحيـــاة الاجتماعية ومبلغ خضوعها للدراسة الوضعية العلمية . ولعلهم لاحظوا كذلك أن الجدل النظرى الذى أثير بصدد المشاكل المشار اليها لم يقدم لشعوب أوربا أية فائدة مرجوة . فقد انشغل العلمـــاء زهاء قرنين بالمساجلات الفلسفية المتعلقة بشئون الاجتمـــاع وتركوا الصعوبات والمشـــكلات التى تواجه الشـــعوب والجماعات والأفراد بدون حلول مريحة وموفقة . فكأنهم لم يقـــدموا

لشعوبهم ومواطنيهم آية خدمة فى ميدان الاصلاح الاجتماعى فى وقت كانت هذه الشعوب فى مساس الحاجة الى توجيه الزعماء وقادة الرأى وكبار المفكرين والعلماء . لمس علماء الاجتماع فى أمريكا هذا النقص الذى بدا فى حركة أوربا العلمية والفلسفية فلم يتورطوا فيه وآثروا الاتجاه الى البحث العملى فى ميدان التجارب أو فى الحقل الاجتماعى . لأن النزول الى الميدان يكشف للباحث عن المشاكل والأمراض التى تتطلب العلاج السريع . فمعظم هؤلاء العلماء فهموا علم الاجتماع بمعنى علم الاصلاح الاجتماعى أو علم الطب الاجتماعى وهو علم وقائى وعلاجى فى الوقت ذاته . وحتى علماء الصف الأول الذين تشبهوا بفلاسفة أوربا وعاودوا البحث فى الأصول الفلسفية والنظرية لحقائق الاجتماع لم يلجأوا الى ذلك حبا فى البحث النظرى المجرد لذاته ولكنهم كانوا يريدون الانتفاع بما ينتهون اليه من حقائق فى أعمال التنسيق والتنظيم الاجتماعى وأعمال الرعاية والانعاش والخدمات الاجتماعية ومحاولة الارتقاء بالأوضاع والنظم القائمة . أى أن أغراضهم كانت أغراضا عملية تطبيقية قبل كل شيء وأرادوا أن يمهدوا لها بقدر يذكر من الدراسة النظرية التحليلية . وعلى العموم لم يحدد علماء الاجتماع فى أمريكا شيئا يعتد به فى الناحية النظرية ، ولم يتركوا تراثا علميا يبلغ ما بلغته النظريات الأوربية من العمق والتركيز والترسيب .

هذا ، وقد حمل لواء الحركة الاجتماعية فى مستهل قيامها علماء يعتبرون من الرعيل الأول فى أمريكا أجدرهم بالذكر : العلامة « لستر وارد L. Ward » الذى اعتبر علم الاجتماع علم العلوم «Scientia Scientiarum» وهو فى هذا الصدد ينقل فكرة أوجست كونت الذى ذهب الى أن قيام علم الاجتماع يحقق وحدة المعرفة الوضعية وهو العلم الذى يتزعم العلوم الانسانية لأنها جميعا تمده وتغذيه وتؤدى اليه بالضرورة . وتأثر هذا المفكر الأمريكى بأفكار المدرسة الفرنسية ( دور كايم ) فقد اعتبر المجتمع قوة روحية خالقة

(Sociogenétique) تخلق القيم الأخلاقية والعقلية والمعايير الجمالية وتصطلح على الأوضاع والظواهر التى تسود حياة المجتمع .

ومن أوائل رواد الاجتماع العلامة ( سمول Small ) الذى كان رئيسا لقسم الدراسات الاجتماعية فى جامعة شيكاغو . اهتم بدراسة مظاهر التطور والتغير الاجتماعى . بيد أنه لم يدرس هذا التطور فى ضوء المبادىء والتصورات الفلسفية كما فعل أوجست كونت أو أصحاب فلسفة التاريخ فى ألمانيا ولكنه درس هذه الظاهرة موضوعيا وتتبع ماطرأ على العلاقات والظواهر الاجتماعية من تغيرات وتحولات واتخذ مدينة شيكاغو حقلا لدراسته وميدانا لملاحظاته واستقراءاته . غير أنه أرجع القوى المؤثرة فى هذا التطور الى المحركات النفسية والرغبات الفردية . ووضع فى هذا الصدد نظريته المعروفة بنظرية الميول الستة Sixfold interests وهى حب الصحة والجمال والثروة والألفة والعلم والأخلاق. وهذا يدلنا على مبلغ تأثر هذا الفكر بالاتجاه النفسى ومبلغ ماتورط فيه من الخلط بين حقائق الاجتماع ومطالب النفس الانسانية .

ومن رجال هذه الطائفة كذلك العلامة « سمنر Sumner » الذى اهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية وتطورها وحاول أن يخضعها لقوانين. ونحا فى دراسته الناحية التطبيقية ولم يدرسها فى صورها المجردة كما لجأت الى ذلك المدرسة الألمانية . ووضع نظريته فى تصنيف المجتمعات حيث قسمها الى جماعات داخلية وأخرى خارجية وذلك على أساس تصنيفه للعلاقات والعمليات الاجتماعية . وأولى مزيد اهتمامه لدراسة العادات والعرف والتقاليد ومختلف مظاهر السلوك الجمعى (Folkways) ومعظم بحوث هذا العالم مستمدة من الملاحظة والتجربة ومن الميدان الاجتماعى . وقد أسبغ هذا الاتجاه على الدراسات الاجتماعية صفات خاصة حددت شخصية علم الاجتماع فى أمريكا . ويعتبر العلامة « جدنجز Giddings » كذلك من المساهمين فى خلق علم الاجتماع الأمريكى فبحوثه ودراساته لا تخلو من أصالة وجدة رغم تأثره بكثير من علماء الغرب .

ويمكننا أن نضيف الى هؤلاء علماء آخرون ساروا بالدراسات الاجتماعية نحو النضج والاكتمال والتخصص بعد أن اجتازت هذه الدراسات مرحلة النشأة والتكوين بفضل علماء الصف الأول . وأشهر رجال هذه الطائفة « زنانيكى ووليم توماس » اللذان وضعا بحثا عن الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا ، والعالمان « بارك وبرجس » اللذان وضعا كتابا عنوانه « مقدمة فى دراسة علم الاجتماع » (1) يعتبر أحسن ما كتب بشهادة كثير من النقاد المتخصصين . فقد عالج فيه المؤلفان موضوعات تتعلق بالصراع والتنافس والتمثيل الاجتماعى والسلوك الجمعى والشخصية الاجتماعية . ويجد فيه القارىء مادة غنية وملاحظات واحصائيات أفادت ميدان البحث الاجتماعى . وبفضل هذا الكتاب وصل علم الاجتماع فى أمريكا الى درجة كبيرة من النضج والاكتمال .

ولقد كان لانتشار النظم الفاشية والنازية والشيوعية فى أوربا وما فرضته هذه النظم من حجر على الحرية الفكرية ثم قيام الحرب العالمية الثانية ، أثر فى هجرة عدد كبير من علماء الاجتماع البارزين من أوربا الى أمريكا . وكان من الطبيعى أن تقوم حركة واسعة النطاق لنقل التراث الاوربى الى أمريكا وترجمة الكتب المؤلفة بغير الانجليزية حتى يستطيع المواطنون فى أمريكا الوقوف فى سهولة ويسر على نظريات الغرب ودراساته . وقد كانت كتب الاجتماع فى مقدمة التراث الأوربى الذى ترجم الى الانجليزية لأن المجتمع الأمريكى كان فى مساس الحاجة الى هذا اللون من الدراسة والبحث . لأن الأمريكيين بطبيعتهم لا يميلون الى الدراسات الفلسفية والميتافيزيكية بل يميلون الى الدراسات المتصلة بشئون الحياة وخاصة الحياة الاجتماعية . هذا ، الى أن ظروفهم الخاصة وتطور حياتهم بسرعة فائقة ألزمهم بضرورة دراسة المحركات الاجتماعية التى أدت بهم الى ما استحدث من أوضاع . فساعد ذلك على نمو وتقدم الدراسات الاجتماعية العملية . ولعل الأمريكيين وجدوا فى البحوث الاجتماعية الغربية القدر النظرى الذى

---

(1) Park ; Burgess; Introduction to the Study of Sociology

يكفيهم فى الدراسة والبحث وأرادوا أن يكملوا النقص الملحوظ فى الناحية العملية فوجهوا عنايتهم اليها . وكان فى مقدمة كتب الاجتماع التى ترجمت الى الانجليزية مؤلفات : كونت ودور كايم وتارد ولوبون من الفرنسيين ، وسيمل وتونيس وفوق فيزى وفونت من الألمان . وعن هذا الطريق استطاع علماء أمريكا أن يستفيدوا من هذه الحركةالعلمية ويسهموا فيها ويسيروا بنظريات الغرب الى مرحلة أكثر تطورا ورقيا . وكان على رأس هذه الطائفة « بارك » من جامعة شيكاغو ، و « بارسون وسروكن » من جامعة هارفارد ، و « ماك ايفر » من جامعة كولومبيا .

وقد كان لضخامة الامكانيات الأمريكية ومبلغ ما رصدته من مكافآت واعانات دراسية ، أكبر الفضل فى زيادة الاقبال على خدمة الميدان الاجتماعى ، وفى اغراء المزيد من العلماء الأجانب للهجرة الى أمريكا ، وفى استقبال طوائف من المشتغلين بمسائل علم الاجتماع أو من الراغبين فى الاستزادة من هذا الميدان . وقد ساهمت فى هذه المنح المالية الحكومة المركزية وحكومات الولايات والهيئات الأهمية والمؤسسات والأفراد (١) .

ولقد لعب « مجلس الأبحاث الاجتماعية » دورا هاما فى الاشراف على هذه البحوث والدراسات وتوجيهها ومساعدتها بوسائل متعددة . وكان أكبر أثر علمى لهذه المساعدات نشر دائرة معارف العلوم الاجتماعية والقاموس الاجتماعى للعلامة «Fairchild» وذلك فضلا عن المنح والاعانات التى قدمت لأصحاب رسائل الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية وللقائمين بالعمل فى الميادين المحلية للاصلاح والخدمات الاجتماعية .

وأهم موضوعات الدراسة التى استأثرت بمزيد عناية علماء الاجتماع فى أمريكا فى الوقت الحاضر ما يأتى :

---

(١) كان العلامة أو جبرن Ogburn مشرفا على بعض هذه المنح وقامت مؤسسة « روكفلر الامريكية » بدور كبير فى هذا الصدد . وهذا ما تؤديه الآن مشروعات النقطة الرابعة .

١ ــ دراسات تاريخية فى علم الاجتماع . وقد تقدم هذا النوع من البحث فى الثلاثين سنة الأخيرة . وكان فى طليعة القائمين به العلامة «Giddings» فى كتابه «Principles of Sociology» والعلامة «Sorokin» فى كتابه «Social and Cultural Dynamics» والعلامة هوارد بكر H. Becker فى بحوثه عن أسس الدراسة ومناهج البحث فى علم الاجتماع .

٢ ــ دراسات فى أثر العوامل الجغرافية والبيئية فى المجتمع . وكان القائمون بها تلاميذ مدرسة « راتزال » وأشهرهم :
Miss Ellen Churchill; Ellesworth Huntington; Russell Smith.

٣ ــ الدراسات الاكلوجية Sociology of Ecology وهى دراسات تتعلق بالبحث فى البيئة الاجتماعية . وقد تقدم هذا النوع من الدراسة فى الربع الأول من القرن العشرين وكان الدافع اليه سرعة نمو المدن الصناعية وزيادة المؤسسات وتعقد العلاقات الاجتماعية فيها وتغير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية والسياسية وتبعا لزيادة عدد السكان . واهتم القائمون بهذه الدراسة بالمسائل المتصلة بالهجرة من الريف الى المدن والتركز السكانى فى بعض المناطق والمسائل المتصلة بانتشار الجرائم ولا سيما جرائم الأحداث ، وانحلال الروابط الأسرية ، وانخفاض المعايير الأخلاقية ومستويات الذوق العام . وأشهر من كتب فى هذه الموضوعات العالمان «Mackenzie; James Quinn»

٤ ــ دراسات اتنلوجية وانثروبولوجية وبحوث فى أصول الثقافات ومدى انتشارها . وكان الدافع الى هذه الدراسات زيادة تيارات الهجرة . فقد شهدت أمريكا مالم تشهده قارة أخرى من حيث الهجرة الخارجية . ووجه القائمون بهذه الدراسة عنايتهم الى تحليل أصول الأجناس وكشف مهادها وتتبع تفرعها وانشعابها ودراسة نفسية الجماعات والعلاقات الاجتماعية التى تسودها . واهتم كثيرون من أنصار هذه المدرسة بدراسة العادات الشعبية الدارجة والتقاليد ومظاهر العرف . ويطلقون على هذا المبحث « Folk Sociology » واهتم بعض

المفكرين بدراسة « الجغرافية الانسانية Anthropogeographie » ومن أشهر أعلام هذه الدراسات العلماء :

Park ; Burgess ; Mckenzie ; James Quinn ; Clifford Shaw ; Milla Alihan ; Nels Anderson.

٥ ــ مدرسة الاجتماع البيولوجى ( المدرسة الحيــوية ) وتعتبر هذه المدرسة فرعا من مدرسة هربرت سبنسر . واهتم بعض أنصــار هذه المدرسة بعقد المقــارنات بين المجتمع والــكائن الحى بالطريقــة التقليدية المعروفة عن هذه المدرسة . وأشهر هؤلاء Reuter ; Fairchild ; Willcox ; Wolfe ; Thompson واتجه بعض أنصار هذه المدرسة الى دراسة المشكلة السكانية تحت تأثير العوامل البيولوجية وتأثروا الى حد ما بالنزعة التشاؤمية التى سيطرت على بحوث مدرسة مالتس . واهتم العالمان « Hankins ; Carl Kelsey » بدراسة آثر الوراثة فى مشكلات المجتمع واهتم علمــاء كثــيرون بدراســة مشــاكل تحســين النسل Davenport ; Conklin ; Gaddard ; Hooton وعنى بعض البيولوجيين بدراسة مشاكل الجنس (Race) ورواسب فكرة التفوق العنصرى فى مظاهر الحياة الاجتماعية . وأشهرهم
« Boas ; Coon ; DixonHankins ; Franz » ويكاد ينفرد « هانكنز » دون علماء الاجتماع الأمريكيين بالمجهودات العلمية التى بذلها للتقريب بين وجهة نظر البيولوجيين وبين علماء الاجتماع .

٦ ــ علم الاجتماع النفسى Psycological Sociology خدم هذا الميدان علمــاء كثــيرون أشــهرهم « Cooley ; Ross ; Giddings » واهتم المتــأخرون من أنصــــار هـــذه المدرســـة بتحليـــل العلاقات الاجتماعية فى ضوء مبادىء وقوانين علم النفس.وأشهر هؤلاء Eliot ; Groves ; Martin ; Allport ; Kimballyoung ; يحتل العالمان « Ellwood ; Bogardus » مركزا ممتازا بين علماء الاجتمــاع النفسى

وتمتاز بحوثهما بالتقريب بين علمى النفس والاجتماع وتطبيق النظريات العلمية النفسية على المجتمع .

٧ ــ واهتمت طائفة من علماء الاجتماع فى أمريكا بدراسةالعمليات الثقافية وتطور النظم ونموها . وأشهر هؤلاء العلامة (Tozzer) من جامعة هارفارد ؛ والعالمان « توماس وأجبرن Thomas ; Ogburn » وأتباعهما . ونضيف الى أنصار هذه المدرسة بعض المتأثرين بفلسفة سمنرو بواس (Summer ; Boas) أمثال لبرت وكلر ولسلى (Lippert ; Killer ; Leslie »

٨ ــ مدرسة الاقتصاد الاجتماعى . وقد اهتم أنصارها بدراسة الناحية الاقتصادية وأثرها فى تنفيذ برامج الانعاش الاجتماعى واهتموا كذلك بالنواحى الاصلاحية والارتقاء بأحوال الطبقات المادية وقاموا بتجارب تطبيقية فى الميدان الاجتماعى لاثارة امكانيات الجماعات وقدراتها والانتفاع بالطاقة المادية الكامنة فيها . ولذلك يسمون أنفسهم « الاقتصاديين الاجتماعيين Social economists » وأحيانا أخرى اسم « الاجتماعيين التجريبيين Practical Sociologists » .
وأشهرهم Jameso Ford ; Devine ; Queen ; Burgess ; E. Abbott ; R. Woods ; Philip Klein ; Mac Iver ; Parsons ; M. Schneider.

٩ ــ مدرسة الاجتماع الجنائى . وهو العلم الذى يدرس الجريمة فى نشأتها وتطورها ومقوماتها والظروف المهيئة لها ؛ وأثر الوراثة الفردية والاجتماعية فى زيادة موجاتها . ويدرس عوامل الانحراف لدى الأحداث وكيفية القضاء عليها والوسائل الوقائية والعلاجية التى تتخذ حيالها . ويدرس كذلك التشريعات الجنائية ومبلغ أثرها فىتقويم الانحرافات ويدرس الطرق التى تتبع فى مراقبة المنحرفين ومحاكمتهم ونظم السجون وما ينبغى أن تكون عليه من النواحى الاجتماعية والسيكلوجية . وقد تقدمت هذه الدراسات فى أمريكا أخيرا بفضل بحوث مشاهير العلماء الآتى اسماؤهم :

Sutherland; Gillin; Parsons; W. Healy; Sanford Bates; Haynes; Blacke MacIver; Teeters; Shaloo; Waite; Reckless.

١٠ ــ بحوث فى الأسرة وعلم الاجتماع العائلى . فقد استأثرت ظواهر الزواج والطلاق والحقوق والواجبات الأسرية وانحلال الروابط الأسرية وتفكك العلاقات بين الأقارب بعناية الكثيرين لاسيما من أنصار مدرسة الاجتماع التجريبى وأشهر من كتب فى هذا الميدان :

Calhoun; Baberç Groves;
Cavan; Reed; Zimmerman; Elmer; G. Howard; Lichtenberger
Burgess; Cottrell; W. Waller; Nimcoff; Mowrer; G. Hamilton.

١١ ــ دراسة اجتماعية للوحدات الاقليمية (Regionalism) وقد اهتم بها العلامة (Odum) وانتشر هذا النوع من الدراسة فى جامعات الولايات الجنوبية . وتتناول بحث اقليم يمتاز بوحدته المورفولوجية وخصائصه الثقافية ونظمه الاجتماعية وسلوكه السياسى . وينظر أصحاب هذه المدرسة الى « الوحدة » موضوع البحث باعتبارها « اقليما اجتماعيا أو بيئة اجتماعية »(Zone ecologique) ليست لها حدود سياسية أو ادارية . فهى تتميز بظواهرها الاجتماعية وتياراتها الفكرية وما يسودها من الاتجاهات السوية أو الشاذة ومعاييرها فى الذوق والفن والأخلاق والرأى العام . ولاشك أن هذه الأمور وماإليها تتعدى حدود المدن والأقسام الادارية أو الوحدات السياسية . وكماأن لهذه لأخيرة ( عواصم ادارية ) تعتبر مركزا لنشاطها العمرانىوالادارى والسياسى ؛ فكذلك لكل مساحة اجتماعية أو ( بيئة اجتماعية ) عاصمة أو مركز لنشاط الظواهر والأنماط الاجتماعية سواء كانت هذهالظواهر سوية أو شاذة . ومن الملاحظ دائما ؛ كما أثبت أصحاب هذه الدراسات ؛ أن هذه الانحرافات تأخذ فى الضعف والتراخى كلما بعدت عن مركز انتشارها أو عن (البؤرة الاجتماعية (Social Core) التى تشع منها وتأخذ فى الانتشار .

١٢ ــ دراسة التغير الاجتماعى Sociology of change ( وتعتبر هذه الدراسات شعبة من مباحث الديناميك سوسيال ) واهتم القائمون بهذا البحث بدراسة المخترعات الحديثة وأثرها فى التغير الاجتماعى وتطوير الحياة الاجتماعية فى مختلف المجالات ؛ ودراسة

ما طرأ على الحياة الاجتماعية من مظاهر التقدم والتحسن المطـرد فى الأحوال المادية والمعنوية ؛ ودراسة ما لوحظ فى بعض المجتمعـات أو الطبقات من معوقات تؤدى بها الى التأخر الاجتماعى والثقافى بصـفة خاصة (Culturallag) . وأقوى من كتب فى هذا المبحث العـالمان « أوجبرن Ogburn ; وسروكن Sorokin » . (1)

١٣ ــ دراسات عملية تطبيقية فى الميـدان الاجتمـاعى . وهـذه الدراسات متأثرة فى بعض اتجاهاتها بفلسـفة « البراجمـاتزم » وهى الفلسفة التى تفضل العمل على النظر . والعلماء الذين لمعت أسـماؤهم فى هذا الميدان هم John Dewey ; Horton ; Faris ; Cooley » George Mead ; » . وقد اتسع نطاق هذه الدراسات العمـلية وحمل لواءها ؛ باحثون من رجال الصف الثانى واتجهوا الى عمـل مسـوح اجتماعية لبيئات محـدودة أو مدن معينـة للوقوف على احتيـاجاتها الاجتماعية ومحاولة القضاء على الانحرافات غير السوية التى تنتشرفيها نتيجة للتغير الاجتماعى السريع وتعقد العلاقات الاجتماعية بين مختلف الهيئات والطبقات . وكان ذلك نتيجة موجات الهجرة الخارجيـة التى كانت تترى على أمريكا والانتقال الى التصنيع الثقيل وتركز السكان وتوطنهم حول مراكز الصناعة وحقول المواد الأولية التى اكتشـفت . وهذه الدراسات على غرار المسوح الاجتماعية التى قامت بها مدرسة « ادنبره » بزعامة « جدز وبرانفورد وشارل بوث » وقد أشرت فيما سبق الى ان الفضل يرجع الى العلامة الانجليزى « جدز » فى التنبيه الى أهمية هذه الدراسات التطبيقية . ومن « برجه فى ادنبره » انتقلت هذه الدراسات الى أمريكا عن طريق تلميذه « شارل زبلن » وهو من مواطنى مدينة شيكاغو . واتجهت هذه الدراسة فى بعض النواحى الى الوقوف على أثر القوميات والأقليات الاتنلوجية فى الحياة الأمريكيـة بصفة عامة وفى المجالات الاقتصـادية بصفة خاصة . ومن هذا القبيل

(1) Ogburn ; Social Change — Sorokin ; Social and Cultural Dynamics.

ما قام به العلامة « زنانيكى Znanieki » فى دراساته عن الفلاح البولندي وآثره فى اقتصاديات الولايات الجنوبية .

١٤ ــ مدرسة الاجتماع الثقافى Sociology of culture. كثرت فى البحوث المتأخرة استعمالات غير دقيقة للمصطلح الانجليزى « Cuitural lag » . غير أن العلامة « اوجبرن » يضفى على هذا المصطلح مفهوما خاصا فيقول : ان الظواهر الثقافية لا تتغير بدرجة واحدة ولا بسرعة واحدة ، وأن بعضها فى مظاهره الحركية قد يتخلف. فمثلا نجد أن الأنماط الصناعية قد تغيرت بيد أنها فى هذا التطوير كانت أسرع من تطور الأنماط التربوية والجمالية . ولما كانت الحياة الاجتماعية تتطلب توحدا فى المواقف والاتجاهات ؛ وتجانسا فى القيم ؛ وتوافقا ضروريا بين مختلف الأنماط الاجتماعية ؛ فمن هنا نشأت الحاجة الى ضرورة دراسة الميدان الثقافى دراسة علمية والوقوف على القوانين التى تحكمه . وقد أتاحت هذه الدراسة الفرصة لقيام فرع جديد فى نطاق علم الاجتماع العام وهو علم الاجتماع الثقافى . ويجدر بنا أن نشير الى أن العلامة الأمريكى « Théodore Abél » بذل قصارى جهده فى تدعيم هذا المبحث ولخص الموضوعات التى تدخل فى نطاقه على النحو الآتى :

أ ــ الثقافة هى التعبير الفنى الدقيق « للتراث الاجتماعى » ولذلك فهى ليست وليدة فرد وليست من ابتكار العقل الخالص ، انها حقيقة جمعية .

ب ــ يمكن التعبير عن مختلف مظاهر السلوك الانسانى بمصطلحات ثقافية وبذلك يتسع نطاق مباحث علم الاجتماع الثقافى .

حـ ــ لايقتصر مفهوم الثقافة على النواحى المعنوية ، بل تشمل كذلك الأمور المادية . أى أنه لا يضع حدا فاصلا بين مظاهر حضارية وأخرى ثقافية فهذه وتلك تحدد الاطار العام لعلم الاجتماع الثقافى .

١٥ ــ دراسات اجتماعية فى الحروب واقتصادياتها . وذلك من

حيث نشأتها ودوافعها وأسبابها الكامنة فى طبيعة المجتمعات والنظريات التى قيلت بصددها . ثم دراسة اقتصادياتها وكيفية الانتقال بالمجتمعات من الانتاج المدنى الى الانتاج الحربى وبالعكس . وهذه الدراسة فى مجموعها على غرار الدراسات التى يقـوم بهـا العـلامة الانجليزى « رامنى Jay Rumney »

* * *

## ثانيا ـ أشهر علماء الاجتماع فى أمريكا

لا بأس من أن نعرف القارىء بطائفة من علماء الرعيل الأول الذين خدموا ميدان علم الاجتماع وأسهموا فى اقامة دعائمه ، وأنشأوا أقساما له فى الجامعات الأمريكية وأجدرهؤلاء بالذكر العلماء : استكنبرج ، سمنر ، لستروارد ، سمول ، ماك ايفر .

### ١ ـ استـــكنبرج *Stuckenbery*

لم يسهم العلامة « استكنبرج » فى الوظائف الجامعية ، ولذلك ظل مجهولا لدى الأوساط الأكاديمية الى حين . ولد فى هانوفر ( المانيا ) عام ١٨٣٥ وتوفى بأمريكا عام ١٩٠٣ . قدم الى أمريكا وهو شاب حيث تلقى دراساته الأولى ، ثم عاد الى ألمانيا ليستكمل دراساته ويتخصص. وعمل هناك أستاذا للفلسفة وظل حتى ١٨٩٤ . وقبل أن يغادر ألمانيا جمع أصول كتابه « علم الاجتماع عند المسيحيين «Christian sociology» وهو أول من كتب كتابة علميـة منظمـة عن النظـريات الاجتماعيـة المسيحية . وقد طبع هذا الكتاب فى الولايات المتحدة حيث عكف على ترسيب أفكاره وتعميقها والتخصص فى ميدان علم الاجتماع . وقد ظهر كل ذلك واضحا فى انتاجه العلمى الذى نشره بعد ذلك . وأهم كتبه :

(1) The Social Problem (1897).
(2) Introduction to the Study of Sociology (1898).
(3) Sociology ; The Science of Human Society (1903).

درس فى كتابه الأول بعض النظريات الاجتماعية المسيحية وعاد الى مناقشة طائفة من الآراء التى عالجها فى كتـابه عن علم الاجتمـــاع

المسيحى . ولذلك يعتبر هذا الكتاب هو خلاصة الفلسفة الاجتماعية التى ينبغى أن يسير عليها كل مجتمع مسيحى .

وفى كتابه المقدمة ، درس المقدمات الضرورية لعلم الاجتماع : من حيث نشأته والدعائم التى يرتكز عليها وميادين دراساته ومناهج البحث فيه . أما كتابه الثالث « علم الاجتماع » فهو أوسع كتبه وأدقها وأكثرها تفصيلا ، نشره عام وفاته وجاء فى مجلدين . عالج فيهما موضوعات على جانب من الأهمية وركز اهتمامه على دراسة القوى الاجتماعية المؤثرة فى التطور ، ومراحل التطور الاجتماعى فى مختلف الميادين الاقتصادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية ، وتطور المثل والقيم الاجتماعية ، وتطور أساليب وطرق الوصول اليها وتحققها فى واقع الأمر . ولذلك كانت بحوث الاجتماع الأخلاقى هى أهم البحوث التى يدور حولها كتابه وخصوصا الجزء الثانى .

ويمكننا أن نقول ان البحث فى كتابه الكبير يدور حول ثلاثة موضوعات أساسية وهى :

طبيعة المجتمع وخصائصة الموروثة ، ومدى ظهور هذه الطبيعة الموروثة فى عمليات التطور والارتقاء الاجتماعى ، ثم المجتمع كما ينبغى أن يكون (١) .

وبالرغم من غموض بعض آراء هذا المفكر ، فاننا نجد فى ثنايا دراساته ما يمكننا أن نسميه حقا « بعلم المجتمع » .

ونلخص فيما يلى بعض أفكاره التى تهمنا فى دراساتنا .

ويتكلم « استكنبرج » بشىء من الأصالة عن مفهوم « الجمعية Sociation » وذلك لتوضيح العلاقة بين الفرد والمجتمع . وهى نقطة أساسية فى دراسة علم الاجتماع ومحاولة ابراز شخصية العلم وأهليته بالاستقلال . وقارن بين المصطلح المشار اليه وبين كلمة « association » التى لا تدل فى نظره الا على الاتحاد المادى . ولما كان

---

(1) Stuckenberg; Sociology : The Science of Human Society (II ; p. 292).

المجتمع لا يتكون من أفراد بوصفهم أفرادا ؛ ولكنه يتكون منهم فى حالة الاجتماع ، كأن مفهوم « الحياة الجمعية Sociation » أدق بكثير من أى مفهوم آخر يستعمل لوصف « حالة الاجتماع » . وفى هذا الصدد يقول ما معناه أنه يستعمل هذا المصطلح لتعيين القوى التى تعمل بالتبادل بين مشاعر الأفراد وتدعوهم الى الحياة الجمعية وتجمع بين أحاسيسهم وضرورياتهم وأفكارهم والمشاركات الوجدانية التى تسودهم . ومن هنا تبدو أصالة الحياة الاجتماعية وتظهر طبيعة المجتمع الجوهرية التى تختلف عن طبائع أفراده (١) .

وبعد أن يقرر « استكنبرج » أهلية علم الاجتماع بالنشأة والاستقلال يبحث فى العلاقة التى تربطه بالعلوم الاجتماعية الجزئية ويقرر فى هذا الصدد أن علم الاجتماع علم عام ضرورى وأولى « à Priori » وليس علما تركيبيا « Sythésis » أو مجموعة من العلوم الاجتماعية الخاصة . انه العلم الأساسى والجوهرى الذى يضع القواعد المنطقية والدعائم الفلسفية والنظرية التى تقوم عليها العلوم الاجتماعية الجزئية . فهو العلم العام الذى تنشعب منه هذه العلوم ؛ وهو الجنس وهى الأنواع التى تندرج تحته ؛ وهو الجزع وهى الفروع التى تنشعب منه (٢) . والعلاقة بينه وبينها شبيهة بالعلاقة بين العلم فى ذاته والعلوم الأخرى ؛ وبين الفلسفة من حيث هى ومختلف الفلسفات ؛ وبين التاريخ ومختلف فروعه وأزمنته ؛ وبين اللغة فى ذاتها ومختلف اللغات ؛ وبين الأدب وفروع الآداب ؛ وبين الفن ومختلف مظاهر الفنون . أى أنها علاقة تربط بين الكل من حيث هو وبين الأجزاء التى تنطوى تحته .

ثم يوجه مزيد عنايته الى تحديد ميدان العلم . ويقارن فى هذا الصدد بين مباحثه والمباحث الأخرى التى قد تختلط به وخاصة مباحث علم السياسة . ويقرر فى هذا الصدد أن ميدان علم الاجتماع هو

---

(1) Stuckenbery: Introduction to the Study of Sociology, p. 27.

(2) «It is the Genus of which they are the Species ; the trunk on which they are the branches.» Introd to the Study of Soc.

دراسة كل مظاهر الاجتماعات الانسانية (١) . ودراسة تجمعات الأفراد وهم فى التفاعلات النفسية المتبادلة وما يترتب على هذه العمليـات من آثار معقدة . أما علم السياسة فموضوعه « الدولة » من حيث نشأتها وتكوينها وتنظيماتها الداخلية والوظائف التى تؤديها ، والعلاقات القائمة فيها سواء بين الحكام والمحكومين أو بينهم وبينها بوصفها شخصية معنوية . ويدرس كذلك نظم الحكم وأشكاله وتطور مظاهره والدساتير والأحزاب والتشريعات وظواهر الوعى القـومى وما عـدا ذلك من الظواهر السياسية المعروفة . بيد أن دراسة الدولة ليست مقصورة على علم السياسة ، اذ أن علم الاجتماع يدرسها كذلك من حيث أنها مظهر من مظاهر الاجتماع الانسانى . أى أنه يدرسها من وجهة نظر خاصـة تختلف الى حد كبير عن وجهة نظر علم السياسة . بمعنى أنه فى دراسته للدولة لا يركز اهتمامه على دراسة التنظيمات الداخليـة والشـئون الدستورية والتشريعية ، ولكنه يدرس علاقة الدولة بالمجتمع بصـفة عامة ومنزلتها فى التطور الاجتماعى ، والوظيفة الاجتماعية التى تؤديها ، وأثرها العام على الاجتماع الانسانى . أى أنه يدرس الدولة بوصـفها « حقيقة اجتماعية » فى حين أن علم السياسة يعالجها بوصفها « ظاهرة سياسية » (٢) ولا أدل على ذلك من أنه يعتبر « السيادة السياسية » هى جوهر الدولة والدعامة الأولى التى ترسى عليها قواعدها . فالدولة فى نظره هى « السلطة فى المجتمع » سواء كانت هذه السلطة مركزة فى يد فرد ، أو فى مجموعة مختارة ، أو يمارسها المجتمع ككل . وهى نمو تاريخى وثمرة تطور سياسى شاق تمتـد جذوره الى روابط القـرابة والدم . ويقرر أن هذا التطور السياسى قد مر بمـراحل ثلاثة هى على التتابع :

١ ـــ المرحلة قبل السياسية وكانت قائمة على روابط القرابة والدم.

The consanguine ; the pre political.

---

(1) « Every Kind of Human Association ».

(2) Stuckenberg ; Sociology, II, p. 65 sqq.

٢ ــ المرحلة السياسية أو القومية وتقوم على الحريات والقـانون والوعى الجماعى

The political or national period.

٣ ــ المرحلة الدولية وترتكز على القانون الدولى

« The International »

واذا تركنا جانبا تفصيلات الموضوعات التى عالجها هذا المفكر ، ونظرنا الى الغايات البعيدة التى كان يرمى اليها ؛ نجد أن الغرض الفذ الذى كان ينشده هو اصلاح المعتل من شئون المجتمع ؛ والقضاء على كثير من المشكلات الاجتماعية التى عاصرته ؛ ووضع التخطيط الأمثل لنظام اجتماعى عادل . ولذلك فان نظرياته الاجتماعية هى فى الحقيقة برنامج فى الاخلاق الاجتماعية . وقد خصص لها معظم اجزاء مجـلده الثانى من كتاب « علم الاجتماع » وقرر بصورة واضحة أن تحليـله للاخلاق الاجتماعية هو أهم أجزاء بحثه وفيه تبدو أصالته العلمية .

وقد جاء هذا التحليل عملا فذا وجهدا علميا رائعا . بدأه بنقـد الأصول الميتافيزيقية للاخلاق ونقد آراء الفلاسفة القدامى والمحدثين وتسفيه آراء البيولوجيين والتطورين . وينتهى الى دراسـة الأخلاق بوصفها ظواهر اجتماعية ؛ تنبع من طبيعة المجتمع وتتطور وفقا لتطور معاييره وقيمه . فليس ثمة مبادىء أخلاقية مطلقة ومستقلة عن الزمان والمكان والطبيعة الانسانية وليس ثمة مبادىء أخلاقية مقدسة فى ذاتها ؛ ولكنها ثمرة التجربة الاجتماعية وتعبير واضح لمثل المجتمع وقيمه ومظاهر سلوك أفراده وهيئاته ولذلك فهى خاضعة للقوى الاجتماعية وقوانين التطور الاجتماعى . ومن ثم فان المنهج السـليم لدراسـة الأخلاق الاجتماعية ، لابد أن يرتكز على دراسة عوامل التقدم الاجتماعى ومبلغ فاعليتها فى طبيعة الانسـان وطبيعة الظواهر الاجتماعية وسير التطور الاجتماعى . ولابد أن يؤدى بنا هذا المنهج الى « تحديد طبيعة المثال الاجتماعى وامكان تحقيق هذا المثال » وفى ضوء هذا الاعتبار ؛ فانه فى امكان عالم الاجتماع أن يرسم أفضل نظام اجتماعى صالح لحياة

الفرد والجماعة . وفى امكانه كذلك أن يعد الفرد لحياة مثمرة متفاعلة مع البيئات الاجتماعية المحيطة به . ويكون ذلك بفضل التربية الاجتماعية الصحيحة وتحقيق التكيف والتمثيل بين الفرد ونظم المجتمع .

وعلى الدولة أن تعين علماء الاجتماع على تحقيق التنظيم والتقدم الاجتماعى نحو المثل المنشودة ، عليها أن تلعب الدور الهام بوصفها العامل الفعال أو العنصر الموجه ، وبوصفها صاحبة المسئولية ولديها من الامكانيات ما تستطيع بفضله تحقيق الأهداف المنشودة . فعالم الاجتماع هو الذى يستطيع أن يقرر ما هو صالح وصائب ، وعلى الدولة أن تنفذ وتروض ارادة الشعب على قبوله . ويجب ألا يحمل الشعب على الاذعان بالقوة ، لأن القوة يصح أن تطغى على الحقوق والحريات المصونة بيد أن تدخل الدولة أمر ضرورى لا مفر منه ، لأن الخير الاسمى هو اصلاح المجتمع وتحقيق كماله .

* * *

## ٢ ـ سمنر *W. G. Summer*

ولد العلامة « وليم جراهام سمنر » عام ١٨٤٠ وتوفى عام ١٩١٠ ؛ وهو من علماء الرعيل الأول فى أمريكا الذين تفخر بهم جامعة «ييل «Yale»» وكان صاحب مدرسة وتتلمذ على يديه الآلاف من رواد الدراسات الاجتماعية فى الولايات المتحدة . بدأ حياته واعظا دينيا ، بيد أنه سرعان ما غير اتجاهه وترك الدراسات المتصلة بالتيولوجيا ووجه عنايته الى دراسة السياسة والاقتصاد وشئون الاجتماع . ولذلك يمكننا أن نقرأ بقايا رواسب اتجاهه الأول فى كثير من أجزاء بحوثه . ولعل بحثه الذى عنوانه « موقف الطبقات الاجتماعية ازاء بعضها البعض » صدى لهذا الاتجاه الأول (١) .

وتبدو طريقته الجدلية اللاهوتية واضحة الى حد كبير فى كتابه الرئيسى « الأساليب الشعبية Folkways وقد جمع « سمنر » الى قوة الحجة ووضوح البيان فى مباحث الدين ، التعمق والأصالة وسعة

(1) Summer ; What Social Classes owe to each other ?

الأفق فى معالجة شئون المجتمع . وجاءت مقالاته وكتاباته نموذجا رفيعا لفن النثر والكتابة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لا سيما أن أسلوبه كان أنيق العبارة موجز الفكرة شديد التماسك . وهذه الخصائص رفعته فوق المستوى الذى وصل اليه معاصروه . وشبه كثير من النقاد تعاليمه بوصايا الزعيم الأمريكى « جفرسون » الذى لقبه مواطنوه بسقراط أمريكا .

وبالرغم من المركز الذى شغله سمنر فى علم الاجتماع الأمريكى ؛ غير أن اتجاهه الأول الذى أشرنا اليه ، كان مركب النقص أو نقطة الضعف فى أهليته الأكاديمية . ولذلك انقسم معاصروه بصدد الحكم عليه الى طائفتين : طائفة يتزعمها العلامة « Small » وترى أن مركز سمنر فى تطور وتقدم علم الاجتماع ولاسيما فى أمريكا غير واضح ، وجهده غير محدد . وهذا الاتجاه يفسر لنا موجة الغضب الذى تملكت العلامة سمول حين اختير «سمنر» عام ١٩٠٧ رئيسا « للجمعية الاجتماعية الأمريكية Am. Soc Society والطائفة الثانية يتزعمها العلامة « Keller » وترى أن سمنر كان مبتكرا ومجتهدا فى كثير من الاعتبارات وكان استاذا فى المنهج .

ويبدو أن وضعه كأستاذ فى الجامعات هو الذى خلع عليه هذه الأهلية الأكاديمية ، أى أن سمعته الأكاديمية ومنزلته العلمية فى ميادين السياسة والاقتصاد يمكن أن ترد بكل بساطة الى قوة المركز العلمى الذى كان يشغله . فقد أضفى عليه هذا المركز الشىء الكثير أو على الأقل أظهره لجمهرة المثقفين . ولذلك نراه يفخر دائما بمنزلته الجامعية الأكاديمية ويدعى التفوق على زملائه وينسب لنفسه الفضل فى ادخال علم الاجتماع ضمن المناهج الجامعية .

ويؤخذ على العلامة « سمنر » أنه لم ينشر فى فجر استقلال العلم مؤلفات منهجية فى دعائم العلم وحقائقه وموضوعاته ، ولم يسهم فى المساجلات الفلسفية التى أثيرت حول نشأته وأهليته بالاستقلال . كما فعل علماء آخرون معاصرون له فى مختلف البلاد الناهضة فى مجالات

العلم والفلسفة أمثال هربرت سبنسر واميل دوركايم وجـورج سيمل وجبرائيل تارد وحتى كتابه الشهير « الشعبيات أو الأساليب الشعبية « Folkways » لم ينشر الا بعد وفاته بثـلاثة أعوام . لهذه الاعتبـارات وما اليها قد يبدو للذين لايعرفون سمنر فى بحوثه ولا يعيشـون معه فى أفكاره ، أن يتشككوا فى وضعه بين قائمة الرعيل الأول من علمـاء الاجتمـاع .

هذا ولم تظهر عظمة بحوث سمنر الا بعد أن نشر تلميذه « كلر » Keller معظم ما قام به من دراسات فى كتاب كبير يقع فى أربعة أجزاء عنـوانه « علم المجتمـع » The Science of Society وذلك فى عامى ١٩٢٧ — ١٩٢٨ .

وعلى العموم ، فان موقف سمنر فى الاجتماع الأمريكى يتلخص فى أنه أول مدرس للاجتماع فى الدولة من حيث الزمن والقدرات العلمية. ويعتبر كتابه Folkways » أروع كتاب فى موضوعه لأنه يعالج ميدانا هاما من ميادين الاجتماع . وتمتاز كتاباته الأخرى بأنها موسوعة للحقائق الوصفية والمادية أكثر من كونهـا عرضا نظريا مجردا . ويبدو أنه كان جماعا أكثر منه محللا وناقدا .

والى القارىء أهم المسائل التى عالجها .

أولا — آراؤه فى أصل الانسان .

بذل العلماء منذ أكثر من قرن جهودا علمية للكشف عن أصل الانسان ونشأته الاجتماعية الأولى والقوى المحركه لتصرفاته سواء كانت هذه القوى مجمعة مثل التعاون والأخاء أو قوى منفرة مثل الصراع والعداء. واشترك فى هـذه الجهـود كثير من علماء الانثربولوجيا والاتنجرافيا والجيولوجيا والآثار . ووصل هؤلاء فى دراساتهم الى طائفة من القضايا والمبادىء العامة بيد أنها فى حاجة الى كثير من التحقيق العلمى ولذلك فهى أقرب الى الفروض منها الى النظريات .

انتفع العلامة « سمنر » بهذه المادة وعالج الموضوع فى ضوء ماوصل اليه من حقائق . فذهب الى أن هناك شبه اجماع بين علماء الانثربولوجيا على أن الأنسان انحدر من فصيلة حيوانية راقية وهو فى نشأته وانحداره

يمثل عملية تطورية بطيئة . ولعل فى خضوع الانســان لقوانين الوراثه الحيوانية ما يؤيد هذا الترابط . والعلامة « سمنر » فى هذا الصدد تلميذ أصيل لتعاليم دارون وسبنسر . بيد أنه يضيف الى الحقيقة السابقة أن الانسان ولو أنه انحدر من فصيلة حيوانية راقية ، غير انه يمتلك قدرا من الخصـــائص والمقومات الروحية التى لا توجد أصلا فى الحيوانات الراقية . وبذلك يتعين أن يكون للانسان طبيعة جديدة مغايرة للطبيعة الحيوانية . وهـــذا التحفظ يقر به الى حد كبير من أنصـــار النظـــرية الاجتماعية .

ويعرض « سمنر » النظريتين الشهيرتين فى الأنثروبولوجيا وهما : النظرية القائلة بأصل واحد للجنس الانسانى (monogenetic والنظـــرية القائلة بأصول متعددة (Polygenetic origin) ويناقشهما ويتساءل : اذا كانت الانسانية ترجع الى جنس واحد وأصل مشترك ، فهل تنطوى طبيعـــة الرجل الافريقى على كل الاستعدادات والقدرات التى تنطوى عليها طبيعة وعقلية الرجل القوقازى ؟ وهل كانت الانسانية فى فجر قيامها جنسا واحدا وينطوى الأفراد على خصائص متماثلة ثم حدث أن خضعت الفصائل الانسانية لظروف مختلفة جعلتهم يتفاضلون كيفيا ؟ ويجيب على هذا التساؤل بأن ثمة صراعا بين علماء الانتجرافيا والبيئة والوراثة حول هذا الموضوع ونجد أن كل فريق جمع قدرا من الحقائق التى تؤيد وجهة نظره بحيث يستحيل علينا أن نجزم برأى فى الموضوع . ويذهب فى هذا الصدد الى أن الحقائق الانثروبولوجية تتلاقى فى نقطة أساسية وهى أن هناك ثلاثة أجناس رئيسية وهى : الجنس القوقازى والمغولى والأسود (١) وقد تفرعت هذه الأجناس الى فروع كثيرة ومجموعات عنصرية تصل حسب أحدث الاحصائيات الى ٦٠٠ مجموعة . وهذه المجموعات تمثل انصهارا لامثيل له عاصر البشرية منذ نشأتها فلا يمكن والحـــالة هذه تمييز أحد عناصر هذه المركبات الكيمائية أو وضـــع حدود فاصلة بين جنس وآخر . وعلى هذا النحو فالحديث عن الجنس النقى الخالص أو

(1) Caucasoid ; Mongoloid ; Negroid.

الجنس الأمثل حديث خرافه . ولذلك يجب اســتبعاد فكرة شعب الله المختار أو فكرة الجنس السامى . لأن فكرة هذا شأنها أدت الى الحروب والى التمييز العنصرى الذى لاتزال تعانى وطأته بعض الأقليات العنصرية فى أرقى الأمم حضارة .

ويرى « ســمنر » أن هنــاك عوامل كثيرة خففت من حدة الفكرة العنصرية والتعصب لمبدأ الجنس . من ذلك التزاوج بين الأجناس المتشابهة فى خصائصها والمتقاربة فى أوصافها وسماتها . فقد أدت هذه العملية الى اختلاط الدماء ومن ثم اختفت الأفكار التى كانت تثار حول « نقاوة الدم » ومبلغ ارتباط هذه النقاوة بالحرص على مقومات الحضارة . والتجربة خير شاهد على ذلك . فالملاحظ أن أقوى الشعوب فى الوقت الحاضر هى الشــعوب التى اختلطت فيها دماء الأجنــاس عن طريق الاختلاط والتزاوج [1] .

وقد اتسع نطاق هذه العملية فشملت الأجناس المختلفة . وتدلنــا الاحصائيات على أن الارتباطات الزوجية بين السود والبيض والصفر فى نمو متزايد كما يحدث ذلك على نطاق واسع فى جنوب افريقية وفى البرازيل وفى الفلبين . وقد كان لهذا النمو أكبر الفضل فى القضاء على كثير من مساوىء التعصب العنصرى وأهمها :

١ ــ القضاء على الامتيازات العنصرية ومظاهر الاضطهاد التى كانت ترتكب باسم الجنس ؛

٢ ــ القضاء على عملية الافناء التى كانت تقوم بها الفصائل البيضاء ضد الأجناس السوداء والصفراء .

٣ ــ القضاء على مظاهر الاحتكار التى زاولتها الأجناس البيضــاء ضد الأجناس الأخرى مثل نظم الرق والسخرة والاجارة وما اليها من مظاهر الاستغلال التى كانت وليدة الفكرة العنصرية .

---

(1) Bogardus ; The Development of Social thought, p. 326.

٤ ــ ضعف فكرة السيادة التى طالما أصرت الفصائل البيضاء على ممارستها ضد الشعوب المستضعفة جنسيا .

٥ ــ ونتج عن ذلك تضييق نطاق الاستعمار وتصفيته فى معظم البلاد المستعمرة

بيد أن بعض الكتاب الاستعماريين لا ينظرون الى ظاهرة التزاوج بعين الرضى والارتياح . وينعون عليها بأنها ستؤدى ان آجلا أو عاجلا الى انتصار الجنس الأحط وافناء الجنس الأرقى . لأن ارتباطات التزاوج تتم عادة فى ظروف اجتماعية غير طبيعية وسرعان ما يعتريها عدم التوافق والانسجام نظرا لغموض الميول واختلاف الأنماط الثقافية والتراث الاجتماعى وعدم التكافؤ من حيث القدرات والاستعدادات العقلية . فتكون النتيجة هى سرعة نمو وزيادة الحالات الباثولوجية التى تؤدى الى مركب النقص العنصرى . وهى ظاهرة خطيرة اذا استشرت فى مجتمع أتت على مقوماته .

وغنى عن البيان أن هذه الأفكار هى التى تحدد حالات الصراع بين الأجناس وتجعل تحقيق السلام فى ظل وحدة عنصرية عزيز المنال . ولا شك أن علماء الانثروبولوجيا والاتنجرافيا مسئولون مسئولية مباشرة عما وصلت اليه الاضطرابات العنصرية . فقد نشروا مؤلفات كثيرة بعضها مغرض لا يخدم الأغراض العلمية الفذة ، والبعض الآخر مشحون بطائفة لا حصر لها من الحقائق المتصلة بأصول اللغات والأديان والحرف . بيد أن معظم هذه الحقائق معروض بطريقة قد تكون مضللة ومرتكزة على فهم غير واضح للمبادىء السيكولوجية والاجتماعية التى تنطوى عليها .

والشعوب نفسها مسئولة كذلك عن تحديد الدور الذى يلعبه « الجنس » فى تاريخها الاجتماعى وأنماطها وأوضاعها الاجتماعية . فقد أجرمت فى هذا الصدد جرما كبيرا ، فكل جنس يعتقد فى نفسه أنه مركز الانسانية وأصلها ، ويحكم على باقى الأجناس بالضعف والتحقير . وهذه النعرة تدفعه الى المبالغة فى أهمية أصله وعاداته وتقاليده وتراثه القومى وتسفيه تراث الشعوب الأخرى . فمثلا كان اليونان والرومان يسمون

من عداهم بالبرابرة وحكموا على شعوب الشرق أحكاما قاسية ، واعتبر اليهود أنفسهم فى عصر ما شعب الله المختار ، ووصفوا اليونان والرومان بالوثنية والالحاد ، والجنس الجرمانى يعتقد أنه أسمى الأجناس وهو الجدير بحمل مشعل الحضارة وما عداه أجناس منحطة ومستضعفة .

هذه هى مجمل الآراء التى ناقشها سمنر فى بحوثة الانتجرافية .

ثانيا ــ آراؤه فى العادات والتقاليد

عالج سمنر هذا الموضوع فى كتابه « الشعبيات أو الأساليب الشعبية Folkways » (1) ويعتبر هذا الكتاب دراسة اجتماعية تحليلية لأهمية العادات والعرف والتقاليد وتناول فيه تفسير أصل وطبيعة ووظيفة هذه العناصر المختلفة لمقومات التراث الاجتماعى ثم محاولة الارتقاء ببعض العادات الهامة المميزة للجماعة .

وتتلخص نظريته فى أن الانسان وهو ذلك الكائن المحكوم والمسير فى طريق مرسوم محدد بمقتضى الغرائز التى ورثها عن طبيعة أسلافه الحيوانية ، وبمقتضى قدراته الطبيعية والنفسية المميزة بين اللذة والألم والخير والشر والصواب والخطأ ، أمكنه أن يكون بالتدريج عن طريق الخطأ تارة والمحاولة طريقة أخرى ببعض قوالب وأساليب للسلوك الفردى والجماعى ، وجد بالتجربة أنها تؤدى الى انتصاره فى معركة الحياة وفى غمرة تنازع البقاء والصراع فى سبيل تأكيد الوجود الاجتماعى .

وقد تكونت هذه المجموعة الكبيرة من العادات الجماعية والأساليب الشعبية العامة أولا على هامش الشعور وبطريقة تلقائية عادية (Usual) ثم اكتسبت بمرور الزمن وعن طريق المداومة والاستمرار قوة عظيمةوأثر بالغ وضغط كبير أصبحت تمارسه تحت ستار قوة الدين والجزاء الالهى وضغط الرأى العام وأحكام العادة والتطبع .

وعندما تتأصل هذه الأساليب الشعبية فى الذات وتصل الى مستوى المشاعر والأحاسيس وتصبح فى ذاتها فكرا وتعبيرا عن فلسفة الجماعة

---

(1) Usages ; Manners ; Customs ; Mores ; Morals ; Traditions.

ومرتبطة بالناحية العقيدية وبمبلغ تقدمها وتطورها ، تنتقل الى ما نسميه « العرف Mores » . وعندما ترتكز على سلطة الجماعة وتمارس نشاطها وقوتها فى ضوء هذا الاعتبار ، ترتقى الى مرتبة « المعاييروالقيم» وتصبح القوة الرئيسية التى عن طريقها تتم عملية الانتخاب المجتمعى « Societal Selection »وهذه هى أسمى مراتب الضبط الاجتماعى لأنها أصبحت مقياسا أو حكما على ما هو صواب أو خطأ من مظاهر السلوك والعمل والتفكير . فقوالب العرف على هذا النحو ، مزودة بقوة جبر والزام وهى مستعدة لكى تعود بين الحين والحين من عالم التجريد الى عالم الفعل لتصدرأوامرهاوتوجيهاتهاووصاياها ،ولتكتسب صفةالتجديد والبعث ولتكون فى حاضر مستمر . انها تقابل الفرد فى طفولته الأولى فتطبع عقله ومشاعره على معتقدات خاصة وأفكار وأذواق معينة ، وتقوده فى مختلف مراحل نموه وتقدم له نموذجا كاملا لما ينبغى أن يكون عليه المواطن فى أسرته وعشيرته ومجتمعه . فاذا انصاع لها واقتنع أصابه نجاح اجتماعى ، واذا قاوم وتبرم ، فان المجتمع يلفظه ويسحقه بالأقدام .

وغنى عن البيان أن القوة التى تمارسها قوالب العرف ، مستمدة من قوتها الجمعية ومن كونها أصبحت أداة « للاختيار الاجتماعى ».

وبالرغم من هذه القوة ، فان حدودها حدود تسامح لأنها تقبل التطوير . بيد أن ذلك لا يكون الا فى أضيق الحدود . ولا أدل على ذلك من أن الفرد المثقف لا يستطيع أن يجرد نفسه من تأثير هذه الأفكار السابقة ، ولا يقدر أن يضع نفسه فى موقف حيادى مستقل عما تفرضه هذه القوالب الاجتماعية . لأنه يعتقد أنه غريم فى محاولاته . ومثل الفرد فى هذا الصدد كمثل من يحاول أن يتخلص من أثر الجاذبية أو قوة الضغط الجوى وهو يعلم أنه لن يملك من ذلك فكاكا .

وفى ضوء هذا الاعتبار ، لا تعتبر « القوى الأخلاقية » قوى مطلقة وتسعفية ، ولكنها نسبية ومحلية ، وهى تمثل نبعا ذاتيا وفيضا من التكوين الطبيعى والعاطفى والاجتماعى لبيئة محلية معينة .

ولا يفوت « سمنر » وهو يدرس « أساليب العوام » أن يدرس مبلغ تأثرها بالاكتشافات والمخترعات العظيمة ورد الفعل الذى أحدثته

هذه الأمور فى تكوين المركب الجمعى وفى اتجاهاته وأساليبه وأوضاعه فى التفكير والعمل . فالأفراد يتأثرون بمختلف المظاهر الثقافية والحضارية ولاسيما النواحى المادية ويخضعون لها . وبذلك أسهمت هذه العوامل فى صنع المجتمع وخلق الأفراد .

وتطرق « سمنر » فى دراساته لطائفة من الموضوعات الاجتماعية مثل نظام الطبقات والتنظيم والتنسيق الاجتماعى ومظاهر الانحلال الأخلاقى وقد أعجبنى ماانتهى اليه من دراساته لأساليب العوام وأخلاق الشعب حيث نقل قضية العالم وستر مارك وهى « أن المجتمع هو مهد الشعور الأخلاقى » .

« Society is the Birth Place of moral consciousness »

### ثالثا ــ آراؤه السياسية :

لم ينشر سمنر مؤلفات أصيلة فى البحث السياسى بالرغم من أنه كان أستاذا لعلم السياسة . وقد جاءت شهرته فى ميدان النظريات السياسية والاجتماعية من قيامه بدراسة بعض نظم الحكم . ويبدو أنه كان من أنصار نظام الحرية أو سياسةالباب المفتوح فى شئون السياسة والاقتصاد. غير أنه كان يندد بما تنتهى اليه هذه السياسةفى نهاية مطافها حيث تصل الى الاحتكارية والامبراطورية فكثيرا ما هاجم هذه الانحرافات لاسيما النظام الامبراطورى من حيث قيامه على الاستبداد السياسى وارتكازه على نظرية الحق الالهى المقدس .

واذا أردنا أن نلقى نظرة كلية على فكره السياسى ، نجد أنه تأثر فى هذا الصدد بدراساته الاجتماعية الميدانية . فمثلا نراه لا يرجع الى التصورات المطلقة والمبادىء الكلية المجردة فى بحثه لأصل الدولة كما فعل فيلسوف مثل هيجل ولكنه وضع تصورات واقعية وعملية . فقد اعتبر الدولة شخصا أخلاقيا « Ethical Person » فالدولة ليست الا مجموع ذواتنا « All of us » انها فى حقيقتها عدد من الأفراد اجتمعوا فى ظروف غامضة وبطريق المصادفة وأمكنهم بفضل الأغلبية أن يضعوا من الأنظمة مايحقق خدمات هذا الكل .

وعندما يتكلم عن أشكال الحكم المختلفة نجده لا يقرر أفضلية شكل منها بصفة مطلقة . فهو فى هذا الاعتبار ، شبيه بالعلامة منتسكيو الذى قرر مبدأ النسبية فى تقييم النظم السياسية . وعلق ذلك على مبلغ رضاء الشعب عن مصيره . فهذا الرضاء هو مقياس مشروعية السلطه لأن الشعب هو الذى يقرأ فى نظام الحكم صورة لدرجة نموه السياسى وحساسيته القومية والوعى الذى قطعه فى هذا الطريق . والحق أن أفضل حكومة هو دائما أكثر أشكال الحكم تكيفا بالشروط الاجتماعية والاقتصادية والعقلية التى تحكم الشعب المحكوم .

وبالرغم من تقرير هذه القضايا الحيادية ، فانه يمتدح نظام الحكم فى الولايات المتحدة ويرى فيه النظام الأمثل . فكأنه من أنصار الحكومة الجمهورية الدستورية القائمة على أساس التصويت والتمثيل النيابى . ويقول بصددها أنها أصدق أشكال الحكم وأكثرها ائتمانا وآبرهابتنفيذ الوعود والعهود التى تقطعها على نفسها . انها فى نظره ، حكومة الذات لأن كل فرد يقرأ فى طبيعة تكوينها صورة لحرياته المدنية والسياسية ولأنه يشارك فيها بمبلغ اسهامه فى توجيه الرأى العام .

وقارن « سمنر » بين الديموقراطية والجمهورية . فالأولى ترتكز على مبدأين هما : تحقيق المساواة ، وتحقيق مشاركة المواطنين مشاركة فعلية مباشرة فى كل عملحكومى . أما الثانيةفترتكزعلى تحقيق الحريات المدنية . وقرر أن الديموقراطية خاطئة فى مبدأيها . بيد أن تحليله لحقيقة الديمقراطية يشعرنا بأنه اقتصر على تصور الديموقراطيات المدنية القديمة التى سادت بلاد اليونان ولا ينطبق بعمق على النظم الديموقراطية الحديثة .

### رابعا ـ نظريته فى القيم الاجتماعية

قبل أن يتكلم عن القيم (Values) ، يمهد لذلك بدراسة تحليلية للبواعث الأساسية التى تدفع بالانسان الى السلوك الجمعى . وقسم هذه البواعث الى أربعة قوائم (Categories) وكل قائمة تعبر عن مجموعة حاجات ضرورية وغريزية تتطلب الاشباع وهى :

١ ــ الحاجة الى اشباع الضروريات الطبيعية ( المأكل ، المسكن ، الملبس ) .

٢ ــ الحاجة الى اشباع الغرائز الجنسية .

٣ ــ الحاجة الى اشباع حب العظمة والاستعلاء والظهور .

٤ ــ الحاجة الى التخلص من حالات الخوف والفزع التى تتربص بالانسان الدوائر والتى لازمته منذ فجر حياته الأولى .

واعتبر « سمنر » هذه الدوافع هى القاعدة التى ترتكز عليها القوى الاجتماعية المنشطة لحياة الجماعة (١) .

ويرى ان الدوافع الطبيعية الأولى قد أدت الى الانتاج والعمل وجمع الثروات . وأدت الدوافع الجنسية الى التنظيم الأسرى الذى كان أول دعامة من دعائم التنظيم الاجتماعى ، وأول النظم التى أرست المصطلحات والقوالب الاجتماعية وذلك مثل العادات والعرف والتقاليد وآداب السلوك والمراسيم المتعلقة بالزواج والطلاق والحقوق والواجبات الأسرية ، وعدم المساواة بين الزوجين وسيادة الرجل ومركبات النقص عند المرأة .

وأدت غرائز الاستعلاء الى حب الظهور والتعالى والغطرسة والتمييز الطبقى وسيادة التيارات المنفرة . ويرجع الى هذه الأمور وما اليها أبعد الأثر فى نمو الارستقراطية القديمة ونظم الاقطاع والانعزال المحلى لبعض الطبقات والامتيازات الطائفية والمذهبية والعنصرية والاجتماعية.

وأدت ظاهرة الخوف الى عبادة الأرواح والشياطين والأجداد والأسلاف وأرواح الموتى . ومن ثم نشأت العبادات والطقوس والاتجاه الى فكرة تأليه بعض الكائنات وتقديسها ثم تأليه الرموز والأفكار وأخيرا قيام فكرة الدين المجرد .

ويستنتج « سمنر » من هذه الدراسة أربعة قيم يهدف اليها النشاط

---

(1) Bogurdus ; The Development of Social thought p. 329.

الاجتماعى وهى : القيم الطبيعية والاقتصادية والأخلاقية والعقلية . ويرى أن الوضع الاجتماعى لشعب من الشعوب انما هو الوضع الذى يحدده الانسجام التام بين هذه الفضائل أو القيم الأربعة . وأن أفضل المواطنين فى المجتمع انما هو ذلك الشخص الذى تجتمع فيه الفضائل المذكورة بنسب متعادلة وتبدو منسجمة فى تكامل أهدافها .

خامسا ــ نظريته فى الطبقات

يقسم « سمنر » المجتمع الى خمس طبقات وهى (1) :

١ ــ الطبقة الاجتماعية الوسطى Social Mediocrity وهى أهم طبقات المجتمع وعماد معاشه وقوامه .

٢ ــ الطبقة الطفيلية فى المجتمع ( الطبقات المعولة فى المجتمع )وهى فصائل غير منتجة ومتثاقلة فى عملها وتعتبر عبء على المجتمع ، ولكنها ليست شريرة أو خطيرة .

ويدخل فى عدادها المرضى والمسنون والعجزة وأصحاب العاهات والشواذ ومن اليهم : « All dependent and defective classes »

٣ ــ الطبقة المنحرفة (The delinquent Classes) وهى طبقة شاذه ضارة بوحدة المجتمع تؤدى الى انحلال الروابط والعلاقات الاجتماعية.

٤ ــ طبقة أصحاب الذكاء والمهارة « People of Talent » والمثقفين ، وهى الطبقة التى تقوم بأهم الأعمال وتشغل معظم الوظائف فى المجتمع. ويتوقف عليها نشاطه وتطوره ومبلغ تقدمه .

٥ ــ طبقة العباقرة « Geniuses Classes » وهم أصحاب الاستعدادات والقدرات الذهنية والفنية الراقية . وقد يظن الكثيرون أنها أرقى طبقات المجتمع وأسماها كرامة وقدرة ، بيد أن أنصاف المثقفين المزودين بالخبرات والتجارب ، والعاكفين على أعمالهم بروح قومية وثابة ، أجدى على المجتمع وأكثر نفعا لمواطنيهم من أولئك العبـاقرة الذين يدعون

---

(1) Summer ; Folkways ; pp. 40 --65.

رفعة الشأن ونباهة الذكر مع أنهم مسرفون فى التفلسف والتخيل ويركبون متن الشطط فى الحكم والتقدير .

هذا ، وقد يبدو للكثيرين أيضا أن طبقة العباقرة هى أهم طبقات المجتمع وأخطرها شأنا ، بيد أن هذا الزعم ليس له ما يبرره . فالرجل الصانع الماهر ، والرجل المثقف والمزود بالتجارب ، والوطنى الغيور وذوو المبادىء الأخلاقية القويمة ، كل هؤلاء أجدى وأنفع للجتمع من الرجل العبقرى الذى يدعى نباهة الذكر والاستعلاء فوق المستوى الرفيع لمواطنيه . وقد يبدو للكثيرين كذلك أن الجماعات الشعبية هى أقل الطبقات شأنا وترسب فى قاع المجتمع ، وهذا الزعم ليس له ما يبرره كذلك . فهى لب المجتمع وتحتل مركزه ، وهى حامية العرف والتقاليد ، وحافظة التراث الاجتماعى ، والمعين الذى لا ينضب للجنود المدافعين عن حياضه . ان أحقر أفراد الطبقة الشعبيةهم الجهلةوالمنحرفون والجانحون والمجرمون والمرضى والطفيليون .

سادسا ــ آراؤه فى نظم الأسرة

يرى ( سمنر ) أن الطبيعة زودت الرجال والنساء بجاذبية كانت سببا فى بقاء ودوام الجنس البشرى . وقد أدت هذه الجاذبية التلقائية الى قيام النظم الزواجية . غير أن هناك عوامل أخرى تضافرت مع الجاذبية الطبيعية لخلق ظاهرة الزواج وأهمها غريزة حب البقاء ودوام الوجودالاجتماعىوحفظ النوعوالتعاون على تحقيق مطالب واحتياجات الحياة .

وفرق ( سمنر ) بين الأسرة بصفة عامة أى العائلة ، وبين الأسرة الزواجية . فالأسرة بمعناها العام صورة مصغرة لحياة المجتمع ، انها هيئة يرتبط أعضاؤها معا فى المأكل والمسكن والعمل والخضوع لنظم معينة . وتمتاز هذه الهيئة بالتنسيق بين أفراد يختلفون فى اعتبارات كثيرة . أما الأسرة الزواجية فهى الوحدة الاجتماعية التى تقوم على أساس الرضى والقبول المتبادل بين رجل وامرأة وذلك للتعاون على

تحقيق الضرورات المعيشية ولغرض انجاب الأطفال والمعاشرة الصحيحة فى نطاق الاطار الاجتماعى طالما كان ارتباطهما قائما ومستمرا . وقد رسمت له المجتمعات قيودا قد تكون فى بعضها شديدة ، وقد تكون فى البعض الآخر أقل شدة وذلك وفقا للظروف الاجتماعية واستجابة لمصالح المشتركين .

ويذهب ( سمنر ) الى أن النظام الأمى كان أسبق ظهورا . وهو النظام الذى بمقتضاه يلحق الولد بنسب أمه . أى أن محور القرابة فى فجر الانسانية كان يدور حول الأم وعصبيتها . لأن علاقة الأم بولدها واضحة ومحددة ، لأن الرجال كانوا يعيشون فى معظم الأوقات بعيدين عن نسائهم فى رحلات الصيد وجريا وراء تحصيل الأقوات . ولما استقرت الحياة الاجتماعية الى حد ما ، استطاع الرجل أن يصل الى قمة العائلة بفضل ما حبته به الطبيعة من القوة . ومن ثم ظهر النظام الأبوى الذى بمقتضاه أصبح الأب محور القرابة وعصب الأسرة . فالأسرة الأبويةقائمة فى واقع الأمرعلىمقدرة الرجل فى الحكموالسيطرة أكثر من قيامها على رابطة الدم .

وتكلم سمنر فى مقومات الأسرة الحديثة من حيث الحرص على قوالب العرف والمعايير الأخلاقية والتربوية . وعرض لمظاهر انحلالها ، وناقش فكرة الطلاق وأسباب التوتر فى محيط الأسرة . ونعى علىالتربية الاجتماعية التى يتلقنها مواطنوه فى زمانه لأنها لاتعدهم للزواج ولا ترغبهم فى الحياة الزوجية السعيدة . ونادى بأن سياسة الباب المفتوح فى الطلاق ستؤدى الى انحلال الروابط الاجتماعية وفساد الحياة الاجتماعية بالأجمال . وهذه السياسة أسوأ حالا من سياسة الاباحية فى العلاقات الزوجية . ولذلك نراه يشدد النكير على دعاة التحرر فى شئون الأسرة ( سواء فى الزواج أو الطلاق ) وينادى بتدعيم الزواج الثنائى ( نظام وحدانية الزوج والزوجة ) ويصفه بأنه أشرف تجربة لانكار الذات .

***

## ٣ لستروارد *Lester Ward*

ولد « لستروارد » فى مقاطعة (Illinois) عام ١٨٤١ وتلقى دراسات مدرسية محدودة وعمل وهو فى سن مبكرة فى مزرعة . غير أنه أظهر رغبة فى القراءة والدرس وأطلع على كثير من ثقافات عصره . ودخل خدمة الحكومة واستمر موظفا قرابة أربعين عاما . وبالرغم من مشقة العمل الحكومى ، كان يختلس من الوقت ما يكفيه للقراءة والكتابة والتحصيل . وتخصص فى علم الاجتماع فأجاد ووصل الى قدر من الأصالة . وقد بدأت شهرته فى ميدان العلم عندما نشر عام ١٨٨٣ كتابه علم الاجتماع الديناميكى Dynamic Sociology وهو يعتبر باكورة عمله العلمى . أما آخر انتاجه فهو كتابه « نظرات الى الكون Glimpses of Cosmos » الذى نشره عام ١٩١٣ . وبين هذين الكتابين ، نشر مؤلفات كثيرة لها قيمتها العلمية أهمها :

| | |
|---|---|
| الاجتماع الخالص ( النظرى ) | Pure Sociology |
| الاجتماع التطبيقى | Applied Sociology |
| العوامل السيكلوجية فى الحضارة | Psychi factors in Civilization |

وفى عام ١٩٠٦ بدأ تجربته الأولى والأخيرة لتدريس علم الاجتماع فى الجامعات وكان وقتئذ فى الخامسة والستين . واستمر يحاضر أستاذا للاجتماع فى جامعة (Brown) [1] قرابة سبعة أعوام حتى مماته عام ١٩١٣ . وقد ساعدته زوجته مساعدة مثمرة فى عمله الجامعى لاسيما فى أخريات أيامه كما تدلنا على ذلك الوثائق ومذكراته الخاصة وترجمات حياته التى نشرتها المجلات العلمية فى حينها . وبصورة عامة يمكننا أن نحكم على العلامة ( وارد ) بأنه يقف بين القديم والحديث وينسب الى المدرسة الحديثة بقدر ماينسب الى المدرسة القديمة . فقد هضم وضعية كونت ، وصورية سيمل ، وعضوية سبنسر . وأخذ من

---

(1) Gurvitch ; Moore : Twentieth Century Socio'ogy (American Soc. pp. 359-542).

هذه وتلك بعض مقومات نظرياته ، وأضاف اليها قدرا كبيرا من أصالته وعارض بعضها كما تبنى البعض الآخر ، كما سنرى ذلك من عرض آرائه وتحليلها ونقدها (١) .

أهم نظرياته الاجتماعية

أولا : أصل الحياة الاجتماعية وتطورها :

يرى وارد أن الحياة الانسانية مرت فى ثلاث عصور هى على الترتيب : العصر الفردى ويمتاز بالحياة الانفرادية والانعزالية للافراد ، والعصر الجماعى ويمتاز بقيام الجماعات والقبائل ، والعصر القومى ويمتاز بقيام المدن والحكومات المدنية ونشأة القوميات والدول المستقلة .

ويشرح تاريخ هذه الحياة الاجتماعية على النحو الآتى :

يرى (وارد) أن الانسان كائن غير اجتماعى (antisocial) وأنانى محب لذاته (Completely egoistic) وهو فى هذه القضية يتفق مع الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز ويختلف تماما مع جمهرة علماء الاجتماع الذين يرون أن الانسان كائن اجتماعى بصفة تلقائية . ويرى فوق ذلك أن الانسان عاش فى فجر الانسانية عيشة انفرادية انعزالية ثم اضطرته ظروف الاجتماع أن يكون ترابطات وجماعات صغيرة .وكان الانسان فى هذه الحقبة التاريخية محاطا بالقوى الهدامة سواء كانت عضوية أم غير عضوية . فكان يعتقد أن هذه القوى تتربص به الدوائر وأنه من الناحية الفزيولوجية ضعيف لاحول له ولا قوة ولا يمتلك من الوسائل مايحميه ضد قوى الشر : قوى الكون والطبيعة والحيوانات المتوحشة والأشرار من بنى جنسه .

وقد هداه تفكيره وأرشدته تجاربه أن يستعمل ذكاءه ليعوض هذا النقص الفزيولوجى والفزيقى . واستطاع بفضل المهارة والذكاء أن يتقى

(1) Barnes; An Intro. to the History of Sociology.

هجمات الوحوش وثورة الطبيعة واستطاع أن يحيا ويحمى درايه واستعان بهم فى تحقيق مطالبه الأولى . ومن ثم أدرك أهمية الجماعة وانتقل من العصر الأول عصر الحياة الانفرادية والانعزالية (Autarchic) الى العصر الثانى عصر حياة الجماعة وحب الاجتماع (Aggregate) وبفضل زيادة التجارب والمهارات واتساع المدارك ونطاق استخدام الذكاء ، ازدادت قدراته العقلية وقويت ملكاته وتفتق ذهنه عن ابتكارات ومستحدثات خدمت مطالبه الاجتماعية المتزايدة . وليس ثمة شك فى أن هذا التطور العقلى كان هو الأساس الجوهرى لادراك أهمية الجماعة.

وفى هذا العصر الثانى أخذ الانسان يوازن بين الدوافع الذاتية التى كانت تحركه فى الحقبة الأولى ، وبين الدوافع الغيرية التى أخذت تنمو وتتطور فى العصر الثانى . ويرى ( وارد ) أن هذه المشاعر السيكلوجية هى أكثر القوى الانسانية ديناميكية وكان الانسان خاضعا لها وواقعا تحت تأثيرها أكثر من خضوعه وانصياعه لقواه العاقلة .ويرى وارد أن الأفراد الذين يمتازون بقوة هذه المشاعر هم الذين يسيطرون على المجتمع لأن كل الحركات التاريخية لابد وأن تكون مسبوقة ومصحوبة بمشاعر واهتزازات قوية ، لأن القوى العاقلة ليست كافية وحدها للتسلط على الجماهير وقيادتها .

وفى المرحلة الثالثة لتطور الحياة الانسانية ، استقرت الأحوال الاجتماعية وقامت المدن ونشأت النظم السياسية والادارية وما اليها . فقد عجزت الوحدة القبلية عن مسايرة التطور الاجتماعى ولذلك اتحدت القبائل تحت تأثير ضغط المصالح المشتركة ولضرورة الحماية . ومن ثم قامت الحكومات وأخذت التنظيمات الاجتماعية فى الظهور وارتقت الأوضاع ومظاهر التفكير والعمل وسارت هذه النظم نحو النضج والاكتمال .

بيد أن الحكومات التى قامت للعمل على استتباب الأمن واستقرار الحياة الاجتماعية ، أصبحت أحد العوامل الرئيسية للقيام بالحروب والغزو . فالتعطش للتوسع الاقليمى ، والنزوع الى المجد والعظمة ،

وسيادة النزعات الفردية فى التحكم والتسلط ، هذه الأمور وما اليها سببت ولاتزال تسبب حروبا مدمرة وثورات لايخبو لها أوار . ولايزال العالم يشقى بآثارها المخربة ونتائجها السيئة الضارية فى كل مكان .

ويأمل ( وارد ) أن الانسانية سوف تنتقل الى عصر رابع وهو « العصر العالمى » فسوف تخف النزعة القومية والعنصرية التى تسيطر على المرحلة السابقة ( المرحلة القومية ) وسوف تقل الحروب والتحرشات العسكرية وأساليب الحرب الباردة ، وسوف يمكن التغلب على الاختلافات اللغوية والدينية ، ويمكن اتحاد جميع الحكومات فى حكومة واحدة وتقوم هيئة عالمية لتنسيق المصالح الدولية وحل المشكلات حلا أساسه الرضى والقبول وترتكز على العدالة والحرية والمساواة . أى أن ( وارد ) يأمل فى أن الانسانية ستخطو بعد العصر القومى الذى لاتزال تعانى مساوئه، الى عصر عالمى « Cosmopolitan or pantarchic age » عصر تسوده المشاعر والقيم الانسانية السامية ، وتحركه العواطف الغيرية والمشاركات الوجدانية بين الدول ، عصر سيقذف بالحواجز اللغوية والجنسية والقومية ، وتشهد الانسانية فيه قيام رابطة أو وحدة دولية تؤلف بين شعوب العالم جمعاء وتنسق جهودها فى خدمة أغراض السلم . ويعتبر هذا العصر انتصارا للمشاعر الانسانية والقيم الاجتماعية وتتويجا لجهود الانسانية فى سبيل العمل والانتاج المثمر (١) .

واذا حللنا آراء « وارد » التى أشرنا اليها نجد أنه يتفق مع الفيلسوف الانجليزى (هوبز) فى تصوير طبيعة الانسان ونزعاته ،ويتفق مع ( روسو ) فى تصوير مراحل الحياة الاجتماعية الأولى ، ويتفق مع ( كوندرسية ) فى تصوير مستقبل الانسانية . فقد قسم هذا المفكر الفرنسى تاريخ الانسانية الى عشرة مراحل ، تسعة منها تشرح ماضى الانسانية وحاضرها والمرحلة العاشرة تصف مستقبلها وسماها مرحلة

---

(1) Lester Ward : Dynamic Sociology 1, 467.

الآمال . وسيتم فيها تحقيق الرقى الذاتى بالنسبة للمواطن ، والمساواة الفعلية بالنسبة لجميع المواطنين فى الأمة الواحدة ، وبالنسبة لجميع الدول فى الجامعة الانسانية الكلية .

ثانيا ــ فلسفة الديناميك سوسيال

أدرك ( وارد ) جدب التفكير الاجتماعى فى زمانه ولاحظ اهتمام العلماء بالفلسفة الستاتيكية ولاسيما أتباع سبنسر من الأمريكان .ورأى أنه من الضرورى قبل أن يرسى مقومات علم الاجتماع ، أن يكشف عن القوى الديناميكية الفعالة التى تعتبر روح الحياة الاجتماعية وسر تقدمها . لأن العلم الذى لايخدم الانسانية ، علم ميت عقيم لاحياة فيه. ولانقاذ علم الاجتماع من الجمود والعقم الذى ينتظره ، يجب العناية بمعالجة موضوعات الديناميك سوسيال وكشف القوى الاجتماعية والقوانين الديناميكية المسيطرة عليها . وهذه الاعتبارات هى التى حدت به أن يبدأ انتاجه العلمى بكتابه « الديناميك سوسيال » . وبالرغم من أنه أولى المباحث الديناميكية مزيدا من العناية والاهتمام ، فانه لم يقصر فى الدراسات الاستاتيكية ، فقد عالجها كذلك بقوة وعمق . وهو فى هذا الاتجاه تلميذ غير مباشر للفيلسوف « أوجست كونت » الذى اعتبر الديناميك أسمى وأهم من الستاتيك ، واعتبر القوانين الديناميكية أعم وأشمل من قوانين الستاتيك . هذا ، الى أن القوانين الستاتيكية تتوقف فى كشفها وادراكها على القوانين الديناميكية التى يجب أن نصل اليها أولا .

وتتلخص نظرية ( وارد ) فى أن العوامل الطبيعية لاتعمل منفردة فى عمليات التطور والارتقاء . لأن الانسان ، وهو أسمى الكائنات الاجتماعية ، يعتبر عاملا ايجابيا فى توجيه هذه العمليات ويستطيع بفضل عقله وذكائه أن يتدخل فى عمليات الطبيعة فقد يؤخرها وقد يعجل بها وقد يغير اتجاهاتها . ويستطيع كذلك أن ينظم عمليات القوى التطورية التلقائية ويسيطر عليها . هذا ، ولايقتصر نشاطه على العالم الطبيعى ،

بل يشمل كذلك العالم الاجتماعى . واذا كان قد استطاع منذ القــدم أن يوجه القوى الطبيعية الى غايات اجتماعية ، فانه يستطيع كذلك أن يوجه القوى الاجتماعية الى أغراض اجتماعية . وهذا المجهود هو المادة التى يتخذها الديناميك سوسيال موضوعا لدراساته ، وهو العمل الحق الذى ينبغى أن يقوم به عالم الاجتماع . لأن علم الاجتماع هو العــلم الذى يصلح لأن يكون آساسا وقاعدة لجميع الجهود الذى تبذل لتحسين قدرات وخصائص الجنس الانسانى والعمل على انعاشه واسعاده .ولاشك أنه فى هذا الصدد انما يقوم بأسمى الوظائف وأرقاها شأنا لأن موضوعه انما يتعلق بسعادة الانسان وكمال الجنس على السواء .

والاعتبارات التى أشرنا اليها هى التى دعتــه الى أن يحمــل على « نظرية الحرية « Laissez Faire » أى أترك الطبيعة تعمل » فهى فى نظره نظرية فاسدة لأن الطبيعة عمياء وتتطور تلقائيا ولايمكن لعملية التطــور أن تحقق أهداف التقدم الاجتمــاعى الا اذا خضعت لتوجيه الانسان الذى يستطيع بفضل ذكائه أن يكيفها وفق الغايات الاجتماعية أما اذا تركت هذه العملية بدون توجيه فانها تتعارض مع مطالب التقدم « لأن المجتمع هو القادر على أن يحسن نفسه بنفسه » والتقدم فى نظره لايمكن أن يكون أداة طيعة لقوانين التطور العامة ، ولكنه يرجع الى القوى الاجتماعية الكامنة فى كل تنظيم اجتماعى .

وفى هذا الصدد يفرق ( وارد ) بين التطــور الطبيعى ، والتقــدم ( الصناعى ) الواعى . فالأول أعمى ، أما الثانى منتج ومثمر . والأول عملية تكوينية genetic أما الثانى فعملية هادفة وغائية « Telelogical » ويمتاز الأول بازدياد واتساع نطاق عملية التبــاين « differenciation » أما الثانى فيرتكز على عمليات التقدير والاحصاء «calculation» ولذلك فان التقدم المقصود الصناعى «artificial» أسمى وأجــدى من التطور التلقــائى وأكثر تحقيقا للأهداف والغايات التى ينشدها المجتمع[1]

---

(1) Bogardus ; The Development of Social thought p. 308.

ويرى ( وارد ) أن الديناميك الاجتماعى يدرس من ناحيتين :

الناحية الأولى ، وصف وتحليل الظواهر السائدة فى مجتمع ماتحت تأثير القوانين الطبيعية والاجتماعية . أى تقرير ماهو كائن فقط وليس لهذه الدراسة أية صلة بما ينبغى أن يكون فهى دراسة تقريرية شارحة تشخص حالة المجتمع وتصف ظواهره ونظمه كماهى ، وهى موضوع علم الاجتماع النظرى أو الخالص Pure Sociology والناحية الثانية، هى دراسة تطبيق المطالب والأغراض الاجتماعية على الحالات القائمة ورسم أفضل الطرق لتحقيق ماينبغى أن تكون عليه ظواهر المجتمع ونظمه وهذه الدراسةهى موضوع علم الاجتماع التطبيقى « Applied Sociology » الذى يجب أن يقوم مكملا للاجتماع الخالص لكى يدرس كيفية تطبيق القوى الديناميكية على عمليات التطور الطبيعى والعمل على تحقيق الأهداف والغايات الاجتماعية .

ويحدد ( وارد ) ميدان العلمين المشار اليهما على النحو الآتى : ان علم الاجتماع الخالص يصف التطور التلقائى للمجتمع ، بينما يعالج الاجتماع التطبيقى أثر الوسائل الصناعية ومبلغ تدخل القوى الديناميكية فى التعجيل بعمليات التقدم . والاجتماع الخالص ( النظرى ) يعالج موضوع التقدم الارتقائى النازع الى الكمال « Achievement ; Perfection » أما الاجتماع التطبيقى فيعالج ما يقطعه المجتمع من خطوات التحسن « improvement »

وبالرغم من أن الاجتماع التطبيقى يدرس مظاهر تدخل الانسان للتعجيل بالاصلاح الاجتماعى ، فهو فى ذاته ليس اصلاحا اجتماعيا (Social Reform) بمعنى أنه لايطبق مبادىء الاصلاح ، ولكنه يبحث فى كيفية تطبيقها .

«It does not itself apply sociological Principles; it seeks only to show how they may be applied.»

فهو العلم الذى يضع لنا المبادىء التى ترشدنا للعمل (1) فى الميدان

(1) L. Ward; Applied Sociology pp. 5. sqq.

الاجتماعى ، أما استغلال هذه المبادىء فى التطبيقات الاجتماعية فهو « الاصلاح الاجتماعى »

ثالثا ــ قوانين الديناميك الاجتماعى

انتهى « وارد » من دراساته الديناميكية الى تقرير أربعة قوانين أو مبادىء عامة ترتكز عليها الحركة الاجتماعية وهى :

١ ــ القانون الأول ويسميه «تنافر القوى Difference of Potential وقد استعار هذا الاصطلاح من العلوم الطبيعية . ومؤداه أن تنافر الامكانيات واختلاف الاستعدادات عند الأفراد يؤدى الى اضطراب الاستقرار الاجتماعى وزعزعة ثبات المجتمع . وهذه الظاهرة تجعل من الضرورى تقرير المسئولية والضبط الاجتماعى «Social Laibility» ويعزو هذه الظاهرة فى غالب الأمر الى اختلاف الثقافات وصراعها. وبالرغم من خطر ظاهرة الاختلاف والتنافر ، فانها تؤدى الى التقدم . لأن التقدم لايحدث الا من انتشار عناصر غير متماثلة .

« Progress results from the fusion of unlike elements. »

ويبدو تنافر القوى فى احتكاك العقول وصراع الأفكار ، وهذا الصراع يؤدى الى الاختراع والابتكار فاختلاف القوى وتنافرها يؤدى الى صراعها ، وهذا بدوره يؤدى الى خلق أفكار جديدة . أى أن عملية صراع الأفكار تشبه عملية التفاعل الكيميائى . فكما أن المركب الناتج من التفاعل الكيميائى يختلف كل الاختلاف عن العناصر الداخلة فى تركيبه ، فكذلك صراع الأفكار واتحادها وتفاعلها يؤدى الى خلق أفكار مستحدثة . وهذا هو الدافع الى التقدم . ومن هذا التحليل يبدو مبلغ تأثر ( وارد ) بالاتجاه الآلى الميكانيكى .

٢ ــ القانون الثانى ويسميه قانون الابتداع والتجديد « Innovation » وهو نتيجة لازمة لعمل القانون الأول الذى يقوم على صراع القوى المتنافرة .

٣ ــ القانون الثالث ويسميه « قانون الفعل Law of Conation

ومؤداه أن المجهود الاجتماعى الذى يبذله الفرد لاشباع رغباته والمحافظة على حياته والتكيف ببيئته يعتبر من أهم مقومات ودوافع التقـــدم الاجتماعى . فالسعى المتـــواصل الذى يبذله الفـــرد لتحقيق حاجاته ، ومحافظة الأم على طفلها ، والضحايا التى يقدمها الآباء تأمينا لحياتهم وحياة المجتمع ، والمجهودات البنائية للتكيف البيئى ، كلها مظاهر للتقدم الاجتماعى لأنها تهدف الى سعادة الأفراد . فلفظ « Conation » يتضمن مجموعة من القوى الفاعلة النشيطة التى توجه الحياة اليومية وهى بصفة غير شعورية تؤدى الى اسعاد الأفراد وتقدم الجنس الانسانى (1) .

٤ ـــ القانون الرابع هو قانون التغير الاجتماعى الغائى «Social Telesis» ومؤداه أن الغائية الاجتماعية يمكنها أن تحول الشهوات والرغبـــات الخاصة الى اتجاهات اجتماعية نافعة . اذ لو تركت هذه الشـــــهوات بدون توجيه جمعى مرسوم تتجه اتجاهات ضارة نحو غايات وأهداف شريرة . وهو يشبهها بالنار ، فقد تكون قوة مدمرة ، وقد تكون قوة ايجابية نافعة . والمجتمع هو صمام الأمن فاذا أمكن لأفراده أن يعملوا متعاونين لتحقيق أغراض جمعية ، لوصلوا الى أفضل النتائج ، وبالعكس اذا مزقتهم التيارات الفردية والروح الأنانية الخبيثة. فالمجتمع لابد أن يعمل بفضل ذكاء أفراده لحماية نفسه والحرص على مقوماته ، ولابد أن يسهم جميع الأفراد فى العمل المثمر فلا يصح أن ملايين تشقى فى العمل والجهد ، وأخرى تعيش طفيلية كسيحة لاتعمل . أما اذا ترك المجتمـــع نفسه للتقدم الطبيعى فانه لن يسلم من ظواهر الجهل والفقر والبؤس ».

ولكى يســـتطيع المجتمع أن يســـير بخطى ثابتة وئيدة نحو التغير الاجتماعى الغائى المنشود لابد أن تكون سيادته لنفسه . ولذلك نصب (وارد) نفسه مدافعا عن نظرية « سلطة المجتمع Sociocracy »

ولا يعنى بهذا النظام حكما ديمقراطيا أو حكما ينفرد به بعض أفراد الشعب ، ولكنه نظام سياسى بمقتضاه يحكم المجتمع نفسه ، ويشـــعر

(1) Conation ; the faculty of volition and Action ; or the product of this faculty.

فيه كل مواطن بأنه محكوم ومقيد برغبات المجتمـــع وغاياته ، وليس محكوما برغباته الخاصة (1) .

### رابعا ـ نظريته فى القوى الاجتماعية

ان تحليل وارد للتطور الاجتماعى والحركة الاجتماعية يرتكز على تصوره للقوى الاجتماعية التى تعتبر أجهزة هذه الحركة . وأول هذه القوى فى نظره هى « الحاجة أو الرغبة Desire » فهى أساس كل الأفعال ومظاهر السلوك .

«Desire is the essential basis of all actions».

والرغبات متعددة ومعقدة وهو يقسمها الى مجموعات ثلاث :

الأولى : الحاجات والرغبـــات المتعلقة بالنـــاحية الغـــاذية والمعيشية Nutritive

الثانية : الحاجات والرغبات المتعلقة بالنـــاحية الانجابية والتناسلية Reproductive

الثـــالثة : الحاجات والرغبـــات المتعلقة بالنـــــاحية الاجتماعية Sociogenetic

والغرض من المجموعة الأولى حفظ قوام الفرد وصـــيانته وحماية حياته ويسميها أيضا (The Ontogenetic forces) والغرض من المجموعة الثانية حفظ النوع وتقويته والعمل على بقـــائه ويســـميها (The phylogenetic forces والغرض من المجموعة الثالثة الحرص على مقومات المجتمع الروحية والعمل على تقدمه .

وسنتكلم بايجاز عن كل مجموعة منها .

١ ـــ القوى الغاذية ( المتعلقة بوجود الانسان : Ontogenetic forces

يقول « وارد » ان الحاجة الى الطعام كانت الرغبة الأولى والأساسية لكل الكائنات . وهى لاتزال مسيطرة على الجنس الانسانى وستستمر

---

(1) « Sociocracy Connotes a rulership of the people in which eachperson is governed primarily not by his own interests; but by the interests of Society ».
American Journal of Sociology-18-737,754.

كذلك طوال حياة الانسانية . وقد أمضى الجنس الانسانى آلاف السنين منذ طفولته الأولى الى وقتنا هذا فى تعقب مصادر الطعام وجمع أقصى مايمكن جمعه من الأقوات . وعندما نضب معين الغذاء الطبيعى أو كاد ؛ اضطر الانسان الى أن يعمل ويكد ويبتكر وسائل جديدة للحصـــول على الأقوات الضرورية خشية أن يموت ويهلك جوعا . وكان من الطبيعى أن يهاجر بعض الأفراد من مكان الى آخر جريا وراء وســائل العيش وسعيا وراء الأقوات ، وأن يعمـــل البعض الآخـــر على زيادة الكفاية الانتاجية للبيئة التى يعيشون فيها .

وفى ضوء ماأشرنا اليه ، يقرر « وارد » أن الحاجة الى الطعام هى التى دفعت الانسان الى العمل . فالعمل فى نظره ليس هو الحالة الطبيعية للانسان ولكنه شيء غير طبيعى دفع اليه الانسان دفعا ، أى أن الشعور المستمر بالجوع هو الذى حول الانسان الى كائن عامل .

ونظرية « وارد » فى هذا الصدد تختلف عن نظرية المفكر (Veblen) الذى كان يرى أن الانسان مزود بغريزة حب العمـــل الانســـانى (Workmanship) وأنه مدفوع تلقائيا الى أن يعمـــل ويـــكد وذلك لتحقيق حوائجه وتنشيط القوى الكامنة فيه ولكى يهـــرب من الملل والسأم (ennui) الذى يعتريه اذا تقاعس أو تكاسل .

وانفعال الانسان بالعمل واستمراره فى الكد هو الذى أدى به الى الاختراع . ولولا ماوصل اليه الانسان من مظاهر الابتكار والاختراع، لما استطاع أن يشق طريقه فى الحياة ويضع أولى لبنات الحضارة . فقد تمكن بفضل وسائله المحدودة الأولى أن يذلل متاعب الحياة الاجتماعية، ويحمى نفسه وذريته ، ويؤمن مستقبله ، ويحطم القيود الطبيعية التى كانت تقيده وتأسره . فقد عرف الزراعة واســـتئناس الحيوان ودجن الطيور وتخزين الأطعمة للانتفاع بها فى أوقات القحط وأتقن الحرف اليدوية وصنع أدوات الحفر وأسلحة الهجوم والدفاع . وعرف فضل الملكية الخاصة . وكان حرصه على ملكيته هو أول وازع لاســـتعمال القوة وقيام الخصومات والمشاحنات . وهذه بدورها كانت أول وازع

لتقرير القوانين ووضع التشريعات الملزمة والمزودة بقوة الجزاء . وقد تفنن الأفراد فى أساليب التكالب على الثروات والاستئثار بالملـكيات الخاصة . وحتى العصر الحاضر لم ترتفع قيم الأفراد الأخلاقية ومعاييرهم بصدد الحصول على مزيد من الثراء .

وهذه الأساليب تصور لنا مبلغ «الخداع الاجتماعى Social Deception» الذى يمارسه الأفراد ضد بعضهم البعض الآخر . فقد كان لهذا الخداع دعائم الفضل فى تعزيز النظام الطبقى والرأسمالى . اذ نلاحظ انقسـام المجتمعات المعاصرة الى فئات طبقية يمزقها الحسد الاجتماعى وترتكز العلاقات بينها على أساس « الخداع » . فكما أننا نخدع الحيـوان لكى نذبحه أو نستأنسه ، فكذلك نخدع الانسان لكى نسخره ونمتص عرق جبينه ونثرى على حسابه . والعجيب أن المجتمع يجل هذه الطبقات التى لاهم لها الا الخداع والنفاق الاجتماعى . ولذلك ينبغى أن يضع المجتمع حدا لمثل هذه الفئات الزاحفة الى الثراء ويقرر التشريعات التى من شأنها أن تقضى على المساومات الرخيصة التى تعتمد عليها هـذه الطبقات فى معيشتها .

ان الثروة فى ذاتها قوة أساسية فى تطور الحضارة وهى عمـاد التجارة والصناعة ومظاهر الترف ، بيد ان تركزها فى ايد قليلة يؤدى الى عدم المساواة وانعدام العدالة . فكم من طفل يصبح بين غمضة عين وانتباهتها من أصحاب الملايين ، وآخرون يولدون معدومون . وهـذا هو اخطر عيب فى النظام الرأسمالى وهو أنه يقيم مفارقات غير طبيعية بين الأفراد ، ويخلق بينهم قوى منفرة لا أساس لها لأنهـا ترتكز على اعتبارات وهمية وصناعية . واذا كانت الرأسمالية قد خلقت بين الأفراد « عدم المساواة » بصفة صناعية ، فان الاشتراكية تحاول كذلك أن تخلق بين الأفراد « مساواة » صناعية ليس لها مايبررها (١) .

ومن عيوب الرأسمالية أنها أتاحت الفرصة لنمو الطفيليات الاجتماعية

---

(1) Capitalism creates artificial inequalities ; Socialism Creates artificial equality.

« Social Parasities » فقدأضحت المجتمعات منقسمة الى طبقتين :طبقة عاملة كادحة وطبقة غير عاملة « طفيلية » أى أن هناك طبقتين احداهما تعيش على أكتاف الأخرى وذلك بفضل ذكائها ومهارتها واتقانها أساليب النفاق والخداع الاجتماعى . وأهم هذه الأساليب :اللصوصية والوساطة والاتجار بالحرب والاشتغال بالسياسة والدين والتبشير والاحتكار . ومن العجيب أن أفراد هذه الطائفة أكثر تعاونا لتحقيق مصالحهم . أما الطبقة العاملة فانه من المؤسف حقا أنها لاتفهم معنى التعاون ولا ترقى الى ادراك قيمة منزلتها فى الجهاز الاقتصادى وذلك لأنها لم تتلق قسطا وافرا من التربية والتعليم . هذا الى أن ظروف العمل والاجهاد المستمر لن يهيىء لها الفرص للارتقاء بأحوالها الخاصة ومستوياتها العقليــــة والأخلاقية والروحية . ومن ثم لن تصل هذه الطبقة الى مستوى ذكاء الطبقة الطفيلية ولن تســتطيع ادراك المرامى البعيدة لأســاليب النفاق والخداع الاجتماعى التى تمارسها . ان هذه الطبقة لسوء الحظ مرهقة بالعمل وبالحصول على ضروريات الحياة بشق الأنفس وبالنضال المميت ضد الطبقة الطفيلية التى تسرف فى تجويعها وارهاقها .

٢ ــ القوى الايجابية *Phelogenetic forces* .

تنجه هذه القوى الى تحسين النوع والارتقاء بقدراته بيولوجياحتى يكون أصلب عودا وأعز منعة فى مستقبله . وليست هذه القوى مقصورة على الانسان ، بل هى موجودة فى عالم الحياة . غير أنها تخضع لدرجات ومفارقات تبعا لوضع الكائن ودرجته فى سلم التطور الارتقائى . ففى أحط درجات الكائنات الحية لانجد تمييزا بين ذكر وأنثى ، وفى بعض الفصائل لا يظهر الذكر الا بصفته مجرد ملقح .

أما مملكة الانسان فانها تخضع لظاهرة الانتخاب الجنسى . اذ يمتاز الذكر فيها بتكوينه البيولوجى ووضوح وظائفه .

ويعتبر هذا التطور فى الانتخاب الجنسى أحد الفروق الجوهرية بين الحيوانية والانسانية ويمكن تفسير هذا التحول بأن الكائن كلمــا ارتقى فى سلم التطور كلما كان تركيبه العضوى أكثر حساسية .

ويختلف تفاعل هذه القوى الايجابية فى مملكة الحيوان عنها فى مملكة الانسان .فالحيوان يزاول اتصالاته الجنسية بدافع الغريزة العمياء وبدون حياء وخجل وبعيدا عن التحديدات الأسرية ، أما الانسان فيزاول ذلك بقدر من الوعى والشعور والخيال ويخضع للمسئولية ورقابة الضمير . والذكر فى مملكة الانسان يستطيع عن طريق الاغراء والأغواء والتفاعل الوجدانى والعاطفى أن يثير ويشبع آلاف الرغبات لدى الاناث ومن ثم استطاع أن يأسرها من هذه الناحية ويجعلها أداة طيعة لرغباته ويفرض حمايته عليها من أقدم العصور وأصبحت هى بدورها تخشاه تطيعه وتستميله لتحقيق رغباتها وحمايتها .

وقد أتاحت هذه القوى التناسلية لقيام أول مظهر من مظاهر الحب وهو الحب الجنسى . وهو حب حيوانى شهوانى فى طبيعته ، حب تحركه الغريزة العمياء والقوى غير الشعورية . وقد تطور هذا الحب الى حب زواجى بين الزوج والزوجة عندما استقرت الأوضاع الاجتماعية فى الخلايا الانسانية التى كونها الانسان الأول .

ويقرر « وارد » طائفة من المفارقات ومظاهر عدم المساواة بين الجنسين بالرغم من أنهما يعيشان معا ويتبادلان المصالح المشتركة . وأهم ما أشار اليه فى هذا الصدد ما يأتى :

١ ــ عدم المساواة فى الملبس والتزين .
٢ ــ عدم المساواة فى الواجبات الملقاة على كل منهما .
٣ ــ عدم المساواة فى الحقوق التى يقررها المجتمع لكل منهما .
٤ ــ عدم المساواة فى التربية .
٥ ــ عدم المساواة أمام الفرص السياسية والاجتماعية .

وبالرغم مما قطعته المرأة من تطور ، وبالرغم من حصولها على طائفة من الحقوق ومساواتها بالرجل فى كثير من الاعتبارات ، ونزولها الى ميدان العمل والجهاد ، بالرغم من كل هذا ، فلا تزال رواسب الاهمال والتنكر لمركزها الاجتماعى ، وبقايا التقاليد الموروثة ، عالقة بالأذهان وتؤثر أبلغ الأثر فى علاقات الذكر بالأنثى .

### ٣ ـــ القوى الاجتماعية *Sociogenetic forces*

قسم وارد القوى الاجتماعية الى ثلاثة : أخلاقية وجمالية وعقلية .

( أ ) القوى الأخلاقية وهى فى نظره اما أن تكون عنصرية تتعلق بالجنس «Race» أو فردية . الأولى ترتكز على العادات والتقاليد والشعبيات ، والثانية ترتكز على الأنانية والأثرة . ويرى أن تقرير الواجبات أمر ضرورى لاستقرار أخلاقية الجنس ، كما أن تقرير الفضائل أمر ضرورى لارتقاء مستويات وتعزيز فلسفة نسانيات « Humanitarianism » التى تهدف الى الاصلاح والارتقاء بقيم الانسانية . وهذا الاصلاح يتطلب بدوره اعادة تنظيم المجتمع بحيث يمكن تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد ممكن من أفراده ويمكن القضاء على معظم المتاعب والصعوبات التى يشقى بها الأفراد .

(ب) القوى الجمالية وتشمل الموسيقا والرقص والهندسة والنحت. وتتوقف أهمية هذه القوى على مبلغ تذوق الأفراد لها ومبلغ تراثهم لمزاولتها كما تتوقف على أصحاب الاستعدادات والمواهب ومبلغ اسهامهم فى الرقى بها .

وتمثل هذه القوى ناحية انسانية هامة وتؤدى وظيفة اجتماعية ضرورية لاستكمال قواه المنشطة وضمان ارتقائه . لأن المجتمع لا يقل فى حاجته الى الفنون الجميلة عن حاجاته من المطالب المادية والمدركات العقليــة .

(حـ) القوى العقلية وهى القوى الدافعة الى حب التعليم وتحصيل المعارف والرغبة فى تعليم الغير والوصول الى المعرفة وحقائق الأشياء ويقسمها « وارد » الى ثلاثة أنواع وهى :

١ ـــ تحصيل المعرفة — To acquire Knowledge

٢ ـــ الوصول الى حقائق الأشياء — To discover truth

٣ ـــ تعليم الغير — To impart imformation

ويرى أن الرغبة فى تحصيل المعارف قوية جدا عند النشء . هذا الى أنه من السهل طبع عقولهم على ما نريده من المعلومات والحقائق ويرى أن هناك أربعة مناهج أساسية تستخدم فى التعليم والتثقيف وهى: المحادثة ، التدريس ، القاء المحاضرات والكتابة
conversing ; teaching ; lecturing ; writing.)

وبجانب القوى المشار اليها ، توجد قوة العقل وهى القوة الجامعة الموجهة للحياة الاجتماعية . وقد ميز « وارد » بين الأحاسيس والمشاعر Feelings والانفعالات والعواطف emotions ; والرغبات والشهوات «appetites» باعتبارها قوى محركة باعثة لمختلف وجوه النشاط الانسانى ، وبين العقل بوصفه أداة التفكير ومصدره ، وقاعدة عامة لتوجيه كل هذه البواعث النشيطة والقوى المحركة للانسان بوصفه كائنا حاسا وعاقلا .

## خامسا ــ نظريته فى شئون الأسرة

اهتم « وارد » بدراسة المشاعر والأحاسيس الانسانية واعتبرها قوى مؤثرة فى سلوك الانسان ونشاطه الاجتماعى . ورتب على ذلك نظريته فى ( الحب ) فقد رأى أن هناك استعدادا طبيعيا أساسيا مزودا به الجنس الانسانى وهو سر بقائه ودوامه وهذا المبدأ الأساسى هو «الحب الطبيعى» . وقد تطور هذا الحب منذ فجر الانسانية وتشعب الى فروع كثيرة أهمها : الحب العاطفى بين الرجل والمرأة ، والحب الزواجى بين الزوج والزوجة ، والحب الأبوى بين الأب والأولاد ، والحب الأمى بين الام ورضيعها ، والحب القائم على صلات الدم بين العصبيات وذوى القربى والأرحام ، وحب الجنس القائم على الصلات العنصرية والاتنلوجية والاجتماعية بين الأجناس . وبالرغم من هذه الانشعابات والتطورات ، فان الحب الطبيعى مازال هو العصب الجامع والدعامة الأساسية لدوام بقاء الجنس الانسانى .

ويتكلم عن الحب العاطفى ( الروماتنيك ) باعتباره أول خطوة فى ظهور نظام الزواج . وقد نشأ هذا الحب فى نظره من عدم مساواة المرأة بالرجل واعتمادها عليه . وهو أول خطوة تخطوها المرأة نحو الحصول على مركزها الأول الذى كانت تشغله قبل أن تخضع لقوة الرجل .وهذا الحب ضرورى قبل الزواج بالمعنى المعروف . وهو يدل على مركب النقص فى الجنسين على السواء بمعنى أنه عندما تقع امرأة فى حب رجل أو العكس فان هذه الظاهرة تدل على أن كلا منهما تنقصه صفات يريد أن يكملها من الآخر . بيد أنهما لايحسان هذه الرغبة بل ينقادان اليها بصفة غير شعورية . ولذلك يجب أن تتاح الفرص لنمو هذا المظهر من الحب بالدرجة التى يسمح بها المجتمع ، لأنه مفتاح الحياة الزوجية السعيدة . وعندما ينتهى هذا الحب بالزواج ، فانه ينتقل الى عاطفة زواجية . وهذه تختلف كل الاختلاف عن عاطفة الحب لأنها أكثر استقرارا وبعيدة عن ثورة الانفعالات التى يثيرها الحب العاطفى .

ويرى ( وارد ) أن هناك مرحلة من الشيوعية الجنسية مرت بها الانسانية قبل أن ينتشر بين الجنسين « الحب العاطفى » وقد ظهرت رواسب هذه الاباحية الجنسية فى العلاقات الزواجية وفى أفكار الرجال عن الزواج . ولعل الصعوبات والاضطرابات التى يعانيها الزواج الثنائى ( نظام وحدانية الزوج والزوجة ) ترجع فى معظمها الى بقايا نظام الشيوعية الجنسية لأنه من الصعب حقا أن ينتقل الأفراد من اباحية مطلقة الى الاقتصار على زوجة واحدة ، فان ذلك ينطوى على تقييد حرية الرجل وعلى رغبته الأكيدة فى حب التغيير . ولذلك فان نظام وحدانية الزوجة ينطوى على قوة أخلاقية كبيرة ويحتاج الى مران طويل وتهذيب لعواطف الانسان . ولاشك أن تركيز الانسان لانفعالاته وعواطفه وشهواته حول كائن واحد فقط يدل على سمو المعايير الأخلاقية والقدرة على ضبط النفس وكبح نزواتها . ومن ثم ، فان نظام وحدانية الزوجة هو النظام الأمثل الذى تسعى المجتمعات المعاصرة الى تدعيمه والحرص على مقوماته والبعد به عن عوامل الانحراف .

ومتى تم الزواج وانتقل الحب العاطفى الى حب زواجى تظهر فى جو « الأسرة الزواجية » مظاهر أخرى من الحب وهى : الحب الأبوى والأمى وحب ذوى القربى . ويرى « وارد » أن حب الأم يرجع الى أصول بيولوجية وهو ثمرة اللذة الجنسية التى تمارسها الأم عن طريق الرضاعة . ولذلك يعتبره « تجربة الثدييات » وهو فى نظره أهم مظاهر الحب لأنه يؤدى بيولوجيا الى حفظ النوع . أما المظاهر الأخرى فترتكز على عنصر الدم وترمى الى تأكيد الشعور بالقرابة الدموية ، ولذلك يعتبرها « تجربة انسانية » (١) .

ويرى « وارد » أن أقدم مظهر للحصول على زوجات هو الاستيلاء على المرأة بالقوة . وكان هذا النظام قائما على أساس احتكار الأقوى للنساء ، أما الرجل الضعيف فقد كتبت عليه العزوبة لأنه لايقوى على منازلة الأقوياء فى سبيل الحصول على امرأة . ويرى أن الزواج فى فجر الانسانية كان مرتبطا بالضرورة الاقتصادية ، ولكن أشكاله تطورت فأصبحت المرأة سكنا للرجل . ومهما كان من تطور طرق الزواج وأشكاله وانتقاله عبر التطور من شيوعية جنسية الى نظام التعدد ثم الى الوحدانية فانها كلها تشترك فى مبدأ عام وهو ملكية الزوج للزوجة .

وعرض « وارد » الكلام عن حقوق المرأة ومظاهر عدم المساواة بينها وبين الرجل وقرر أن أنانية الفرد حالت وقتا طويلا دون المساواة الحقة . هذا ، وقد وقفت العادات والتقاليد والقوانين والرأى العام حجر عثرة فى سبيل الاعتراف بمركزها الاجتماعى وتقرير مساواتها بالرجل . بيد أنها استطاعت أن تشق طريقها معتمدة على نفسها حتى وصلت الى المساواة المنشودة وأصبحت تقاسم الرجل مختلف مظاهر العمل والنشاط الاجتماعى .

---

(1) Ward ; Pure Sociology pp. 351-416.
Groves ; The Family and its Functions.

## ٤ ـ سمول Small

ولد العلامة ( سمول Albion Woodbury Small عام ١٨٥٤ وتوفى عام ١٩٢٦ وهو من علماء الرعيل الأول الذين أرسوا دعائم علم الاجتماع فى أمريكا وهو يعتبر من وجهة النظر العامة « دائرة معارف » فقد عالج مختلف موضوعات هذا العلم ومشكلاته الجوهرية وتعمق فى بحث بعض المسائل المتصلة بالميتودولوجيا والانتروبولوجيا وتحليل الثقافات ، واهتم فى أخريات أيامه بدراسة مناهج البحث ( الميتودولوجيا ) واعتبر نفسه متخصصا فى هذا الفرع وحجة فيه. ونظرا لما بذله من جهد علمى شاق وما أظهره من وجوه الأصالة فى الرأى يمكننا أن نضعه بين « العلماء الكبار » أمثال كونت وسبنسر وسيمل ودور كايم .

كتب مقالا عن علم الاجتماع فى دائرة المعارف الأمريكية أوضح فيه أن علماء الاجتماع فى أمريكا لم يكونوا متخصصين فى هذا العلم منذ حداثة تكوينهم وفى اتجاهاتهم الجامعية الأكاديمية ولكنهم جاءوا الى العلم من ميادين ثقافية مختلفة كالتاريخ والاقتصاد والسياسة والدين وهذه الحقيقة تنطبق عليه كما تنطبق على كثيرين غيره من علماء الاجتماع فيقول عن نفسه انه لم يكن متخصصا منذ البداية فى علم الاجتماع ، ولكنه كان ثمرة لاتجاهات ثقافية متعددة .

بدأ حياته واعظا ثم درس التيولوجيا منذ عام ١٨٧٦ الى عام ١٨٧٩ (١) وأرسل فى تلك السنة مبعوثا الى المانيا ليستكمل دراساته فى جامعتى ليبزج وبرلين واستمر حتى عام ١٨٨١ . وتتلمذ هناك على مشاهير علماء الاقتصاد والاجتماع مثل شمولر Gustav Schmoller ، وفاجنر Adolf Wagner واهتم بدراسة المشكلة الاقتصادية ومشكلة الطبقات والصراع الطبقى وعندما عاد الى أمريكا تابع دراساته التاريخية والاجتماعية ووضع أول بحث بعنوان « أصول القومية الأمريكية » (٢) ، ومن ثم أصبحت

---

(١) كان يدرس فى معهد Newton Theological Institution

(2) Origins of American Nationality.

الدراسات التاريخية والسياسية والاقتصادية هى شغله الشاغل .وأضاف الى ذلك اهتمامه بأسس الدراسة ومناهج البحث الاجتماعية التى كرس لها أخريات أيامه .

أولا ــ مصادر فلسفته الاجتماعية :

لا يمكننا أن نجد له نظريات متكاملة فى معظم أجزاء بحثه، ولكننا نجد مبادىء وآراء استعارها من الأساتذة السابقين وطورها أو أمركها . فمثلا نجد انه تأثر فى كتابة « الاجتماع العام General sociology بأصحاب النظرية العضوية أمثال « سبنسر وشافل » ويبدو أنه قرأ لهذا الأخير كثيرا وتمثل كتاباته بكل كفاية . فقد أسرف مثله فى « المماثلة » بين المركب الحيوى والمركب الجمعى . ونجد هذا التأثر واضحا كذلك فى الجزأين الثالث والرابع من كتابه « مقدمة فى دراسة المجتمع » . غير أنه يفضل التطوريين فى أنه استخدم منطق « المماثلة Analogy » بصورة متزنة وبطريقة مثمرة تعطى صورة واضحة للعمليات الاجتماعية ومبلغ مشابهتها لنظائرها فى عالم الأحياء .

وتأثر « سمول » كذلك بأساتذته الألمان . فدراسته للصراع بين الطبقات ( كما عرضه شمولر ) جعله يدرك أهمية المحركات المادية فى العمليات الاجتماعية . ودراسته للتاريخ الاقتصادى فى القرن ١٩ أقنعه تماما بضيق أفق الاقتصاديين الكلاسيك. وقد أدى به ذلك الى الاعتقاد بأنه من الضرورى دراسة الناحية الديناميكية دراسة واضحة وترتكز على فهم واضح لأهمية المصالح المادية ومبلغ تأثيرها فى النشاط الاجتماعى . وهذا الفهم يتطلب تصنيف المصالح الانسانية ووضع جدول احصائى يتضمن أنواعها وحدودها ووظائفها ومظاهر صراعها ومبلغ تأثيرها فى الحياة الاجتماعية ومدى تكيف الانسان بها . وقد شغله هذا التصنيف مدة طويلة وكرس له جهده فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر .

ومنذ عام ١٩٠٠ وقف على مؤلفات العلامة النمسوى «راتزنهوفر Ratzenhover ووجد أن هذا المفكر يتفق معه فى دراسته للتكيف والصراع بين المصالح الاجتماعية كما أنهما يتفقان كذلك فى أسس الدراسة. فقد اتخذا « الجماعة the group وحدة للتحليل الاجتماعى ، ووحدة للعمليات والعلاقات الاجتماعية ، ومحورا (core) للمصالح الاجتماعية المنظمة المستقرة . هذا ، الى أنهما انتهيا الى نتائج وحقائق تكاد تكون متقاربة .

وتأثر « سمول » فوق ما ذكرناه بالتعاليم الدينية والأخلاقية التى تلقاها فى دراساته الأولى . ولذلك نجد أن الروح الأخلاقية تسرى فى كتاباته وتفيض على تعاليمه . فكان سعيه الى تحقيق الخير الاجتماعى يزداد على ممر السنين والأعوام ؛ وكانت دعوته الى الرعاية والانعاش الاجتماعى تكتسب صلابة وقوة . وكثيرا ما أعلن أن علم الاجتماع يهب نفسه للاصلاح الاجتماعى ويضع أصوله وتحقيقاته فى خدمة برامج الاصلاح . وكان يرى أن الأخلاق ليست فى حقيقة أمرها دعوة الى الفضيلة لتطهير الأفراد، ولكنها منهج لتحسين النظم الاجتماعية والارتقاء بالحياة العقلية . ولابد أن يرتكز هذا المنهج على تهذيب النظام الرأسمالى واحلال المصلحة العامة محل « نظرية الربح » الذى تعتبر الآن الدافع الأساسى للنشاط الاقتصادى . وقد وضحت هذه الأفكار فى كتابيه « من الرأسمالية الى الديمقراطية ، وصراع الطبقات » (١) .

ثانيا ــ عرض موجز لمؤلفاته ودراساته

هناك حقيقة هامة معروفة عن العلامة ( سمول ) وهى أن كتبه ومؤلفاته منذ أن كان رئيسا لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو عام ١٨٩٢ عبارة عن مجموعة محاضرات ومناقشات كانت تدور فى قاعات البحث . ولا بأس من أن نشير فى هذه الفقرة الى أهم البحوث وأشهر ما تتضمنه من أفكار :

(1) Summer Between Ereas: From Capitalism to Democracy. The Conflict of Classes.

١ ـ الكتاب الأول : مقدمة فى دراسة المجتمع ونشره عام ١٨٩٤
Introduction to the study of society

درس فى هذا الكتاب المقدمات الضرورية للمدخل الى علم الاجتماع من حيث الموضوع والمنهج وأسس الدراسة وميدان العلم . ودرس تطور المجتمع من الحالة البدائية والزراعية الساذجة الى المجتمع الحديث المعقد ، وحلل مقـومات البنيان الاجتماعى والوظـائف الاجتماعية معتمدا على منطق المماثلة بين جسم المجتمع وجسم الكائن الحى . واذا كانت هذه الموضوعات قد تبدو قديمة ومطروقة ، غير أن هذا لا يقلل من شـأن الكتاب فى أنه كان عملا رائعا بالنسـبة للوقت الذى نشر فيه .

٢ ـ الكتاب الثانى : الاجتماع العام ( نشرة عام ١٩٠٥ )
General sociology يعتبر هذا الكتاب من أهم مؤلفات ( سمول ) وأكثـرها تصـويرا للمؤثرات التى غـذت فلسـفته الاجتماعيـة . عالج فيـه موضـوعات أكثـر عمقـا من موضـوعات الكتاب الأول وأكثر تركيزا . ولخص فيه الأدوار التى مر فيها تاريخ علم الاجتماع وعرض بالتفصيل نظريات العلامة « راتزنهوفر » لاسيما تصنيفه للرغبـات الانسـانية وتحليله لمـدلولاتها ودرس العمليات والعلاقات الاجتماعية ومبلغ تفاعلها بالمصالح والرغبات الخاصة .وبذل ( سمول ) مجهودا عميقا وجريئا لارجاع القيم والتصورات الأخلاقية وأصول المشـكلات الاجتماعية الى العمليات والعلاقات الاجتماعية التى يعتبرها الأساس الوضعى للأحكام والقيم الأخلاقية . وبجانب هذه الموضوعات نجد فى الكتاب دراسات سياسية واقتصادية لا تقل شأنا عن الدراسات الاجتماعية .

٣ ـ الكتاب الثالث : آدم سمث والمجتمـع الحديث ( نشرة عام ١٩٠٧ ) .

حلل فى هذا الكتاب فلسفة ( سمث ) الاقتصادية وكشف عن بعض مقوماتها الاجتماعية وانتهى من تحليـله الى اعتبـار ( سمث ) مبشرا

بعلم جديد هو علم الاجتماع الحديث . واعتبر كتابه ( ثروة الأمم ) أول بحث منظم فى الدراسات الاجتماعية لاسيما فى القطاع الاقتصادى ودافع عن نظريات سمث فى الحرية الاقتصادية وأوضح الى أى حد تلتقى مع وجهة نظر الاجتماعيين فى الحرص على مقومات المجتمع وتحقيق التوازن التلقائى بين المصالح الفردية والغيرية وضغط على الجانب الأخلاقى من فلسفة (سمث) وخاصة نظريته فى المشاعرالأخلاقية «Moral sentiments»

٤ ــ الكتاب الرابع « الكمراليست : The cameralists (١)

ودرس فيه النظريات الاقتصادية الألمانية . وعقد مقارنة بين هذه النظريات وآراء المدرسة التجارية . وأثار فى هذا الكتاب سؤالا هاما ملخصه ما هو النظام الاقتصادى الذى نطمئن اليه ؟ والى من نكل أمر هذا النظام ؟؟ .

ويبدو أنه أيد بطريقة أو بأخرى سياسة التوجيه الاقتصادى . أى أنه اهتم بدراسة الاقتصاد من حيث أنه وظيفة من وظائف الدولةوليس عملا فرديا . وأوضح أن النظرية الاقتصادية الألمانية نظرية جمعية فى أرقى صورها . فهى نظرية الحكومة وبفضل الحكومة ولتقرير الثقة فى الحكومة . وأشاد بفضل القوة ؛ فالحاكم يجب أن يكون قويا على شعبه ؛ ويسير فى الطريق الذى يعزز قوته ويؤيد حكمه ويجعله ثابتا ومستقرا ؛ وعليه أن يتخذ من الوسائل ما يستطيع بفضله الحرص على نفسه ضد قوى الشعب من المتطلعين الى الحكم . بيد أن هذه القوة لا تتنافى مع مبلغ حرصه على تحقيق الخير العام واسعاد مواطنيه .

٥ ــ الكتاب الخامس : معنى العلم الاجتماعى (ونشره عام ١٩١٠) The Meaning of Social science

ناقش فى هذا الكتاب ثلاثة موضوعات وهى :

١ ــ بالرغم من زيادة التخصص فى ميدان الدراسات الاجتماعية؛

(١) مدرسة اقتصادية ألمانية أدخل أصحابها نظام الغرف التجارية لأول مرة

وزيادة الانشعابات والتفرع فى علم الاجتماع ؛ فانه من الضرورى أن تتكامل وتتحد كل ميادين المعرفة المتصلة بالمجتمع لأنها كلها تنبع وتصب فى معين واحد هو الحقل الاجتماعى .

٢ ـ لا يمكن اعتبار أى فرع من فروع الدراسات الاجتماعية مستقلا فى ذاته فكل منها يتصل بغيره ؛ اذ لا يمكن وضع حد فاصل بين التجارب الانسانية فى محيط المجتمع والعلاقات المتبادلة بين الأفراد .

٣ ـ ان علم الاجتماع يهدف الى غرضين أساسيين أولهما الوصول الى تقرير دقيق للقيم الاجتماعية ومبلغ تطورها وارتقائها ؛ وثانيهما الوصول الى نظم اجتماعية أكثر مطابقة لروح العصر وأكثر تحقيقا للعدالة الاجتماعية .

٦ـ الكتاب السادس: بين عصرين: من الرأسمالية الى الديمقراطية Between Eras: from Capitalism to Democracy. ونشره عام ١٩١٣
ويعتبره النقاد من أعظم الكتب التى نشرت فى أمريكا . حلل فيه النظام الرأسمالى ونقده وكان متأثرا فى هذا الصدد بأساتذته ( شافل وشمولر وفبلن) واتجه فى تحليله الى موقف قريب من النظرية الاشتراكية فاعتبر أن الطبيعة والعمل هما العاملان الوحيدان والقوتان المؤثرتان فى عملية الانتاج . ونعى على الرأسماليين موقفهم فى الدورة الاقتصادية ؛ وأظهر الافلاس الأخلاقى لاقتصاديات الربح والفائدة . وهاجم بكل قوة مبدأ وراثة الثروات ووصف رأس المال بأنه قوة جمعية ولا يصح أن تكون قوة فردية مركزة فى يد بضعة أفراد . وفند التصورات الوهمية التى ترتكز عليها نظرية الحق المطلق فى الملكية الفردية لاسيما وأن نظام الملكية الفردية كان هو حجر الزاوية فى نظم أمريكا السياسية والاقتصادية .

وشرح فى هذا الكتاب وجهة نظره فى اعادة بناء الهيكل الاقتصادى ووضحت فكرته فى الاقتصاد الموجه تحت اشراف الدولة .

اذ يجب أن يقوم نظام اقتصادى جديد يحل محل اقتصـاديات الربح ويهدف الى تحقيق الرفاهية الاقتصادية والانعاش الاجتمـاعى لمختلف الطبقات . ويجب اعادة النظر فى تشريعات الوراثة وتحديدها بكل قوة. ويجب أن ينال « العمل » قسطه العادل ونصيبه المعقول فى السيطرة على المشروعات الاقتصادية وفى توجيه السياسة الاجتماعية .

ويشبه كثير من النقاد هذا الكتاب بجمهـورية افلاطون من حيث نزاهة القصد والرغبة فى تحقيق العدالة الاجتماعية وانصاف الطبقات الكادحة والفقيرة . وقد وضحت كل هذه المعانى فى مقـال آخر نشره ( سـمول ) فى أخريات أيامه بعنـوان « اجتمـاعيات الربح «The Sociology of Profit » (١) .

٧ ـ الكتاب السابع : وهو مقال عنوانه « خمسـون عاما لعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة . نشره فى مجلة علم الاجتماع الأمريكية عدد مايو ١٩١٦

Fifty Years of Sociology in U.S.A. (1865-1915)

ويعتبر هذا البحث مصدرا صحيحا وحريصا لتاريخ علم الاجتماع فى أمريكا ولاسيما فى صوره الأكاديمية . ويتضمن مادة غنية عن حياة العلماء الأمريكيين ومؤلفاتهم وطرفا من نظـرياتهم . كمـا يتضمن معلومات قيمة عن تطور موضوعات ومناهج العلم وتقدمها . وعرض فى خاتمة مقاله آراءه بصدد مستقبل علم الاجتماع . وقد عاد الى معالجة هذه النقطة بالذات فى مقـال آخر نشره عام ١٩٢٠ « فى منشـورات الجمعية الأمريكية للدراسات الاجتماعية (١) »

الكتاب الثامن : أصول علم الاجتماع ونشره عام ١٩٢٤ .

Origins of Sociology

يدور معظم الكتاب حول مدارس الاجتماع فى المانيـا فى القـرن التاسع عشر . وأولى مزيد عنايته الى دراسة الاتجاهات الألمانية التى كان لها دعائم الفضل فى تشكيل الاجتماع الأمريكى فى المدة من ١٨٠٠

---

(1) American Journal of Sociology (January 1925).

(1) Publications of the American Sociological Society.

الى ١٩٠٠ وجاء هذا العرض عملا ممتازا غير مدافع ، لا يصارعه أحد من المؤلفين السابقين والمعاصرين فى الموضوعات التى عالجهـا فى هـذا الكتاب وأهم هذه الموضوعات:

١ ـ تقدم علم الاجتماع فى المانيـا أثناء القرن ١٩ بفضل دراسات Savigny ; Eichhorn; Niebuhr ;L. Von Rank ; Waitz.

٢ ـ دراسات اقتصادية تتناول نظام أل Cameralism وآثره فى نمو وضعية العلوم الاجتماعية ؛ ادم سمث والمدرسـة الاقتصـاديه الكلاسيكية ؛ تطور الاقتصاديات فى القـرن ١٩ ؛ تاريخ الاقتصـاد المقارن ، نظرية العلامة Karl Knies فى مبلغ تأثير العوامل الأخلاقية فى علم الاقتصاد ؛ نظرية اساتذته ( شافل وشـمولر وفاجنـر ) ومبلغ اهتمامهم بالاصلاح الاجتماعى والاقتصـادى والسـياسى ؛ نظريات شمولر وترتيسك Treitschke فيما يتعلق بتصادم الاتجاهات الفردية والاجتماعية فى المجال السياسى ؛ دراسـة نظريات العـلامة ( فون موهل Von Mohl وجهود اتباعهفى تطوير الاتجاه الاجتماعى فى علم السياسة والفن السياسى فى المانيا .

٣ ـ نمو الحركة الاجتماعية فى الولايات المتحـدة ومبلغ تأثرها بالمدارس الأوربية وخاصة بالفلسفة الألمانية . ثم الاتجاه القومى نحو أمركة علم الاجتماع لخدمة المطالب العملية وحل مشكلات المجتمع .

وبجانب المؤلفات التى أشرنا اليها ، كتب سمول مقالات كثيرة فى مجلات وصحف أمريكا ولو أن معظمها أعيـد نشره فيما ذكرناه من كتب . وترك بحوثا أخرى لم تنشر لسوء الحظ أهمها بحث فى «صراع الطبقات » وآخر فى « تاريخ مناهج البحث الاجتماعى فى أمريكا » . وهذه البحوث عبارة عن محاضرات ودروس ألقاها وهو رئيس لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو .

واذا ألقينا نظرة عامة على مؤلفات ( سمول ) نجد أنها جميعا يمكن أن توضع تحت عنوان « تاريخ النظرية الاجتماعية » فقد كان مؤرخا

من الطراز الأول جمع من الحقائق والوثائق ما يعطينا مادة غنيةلتاريخ علم الاجتماع ولاسيما المدارس الاجتماعية الألمانية . ويكاد ينفـرد ( سمول ) بأنه أول من نقل بعمق ودقة تراث الألمان الاجتمـاعى الى أمريكا وأوضح مبلغ تأثر الأمريكان بهذا التراث العميق .

ويؤخذ على ( سمول ) مآخذ لها اعتبارها منهـا أنه كان كثـير التكرار لارائه يناقشها فى اكثر من موضع وبأسلوب مهوش ؛ وكان غير منظم تعوزه العقلية التأليفيه فقد جاءت كتبه عبارة عن محاضراته ومناقشاته فى قاعات الدرس . وكان ينشرها بدون اعادة تحـريرها ومراجعتها . هذا الى أن آسلوبه كان موضع النقد : يبـدو مهوشـا وغامضا فى كثير من المواضع ؛ ويبدو غير منطقى تعوزه طرقالاستدلال والتسلسل المنطقى فى مواقف كثيرة . وكان فوق ذلك ضعيف الحجـة بالرغم من ادعائه أنه أستاذ متخصص فى مناهج البحث . غير أن هذه الانتقادات الجزئية لا تقلل من الثروة العلمية التى قدمها ( سـمول ) لرواد علم الاجتماع (١) .

* * *

## ٥ ـ ماك ايفـر Mac Iver

اسكتلندى المولد والنشأة ؛ وانجليزى التربية والثقافة ؛ وأمريكى الجنسية . ولد عام ١٨٨٢ وحصل على درجة الماجسـتير من جامعـة أدنبرة عام ١٩٠٣ وهو العام الذى توفى فيه هربرت سبنسر . وهـذا يدلنا على أنه من علماء الرعيل الأول الذين أسـهموا فى المسـاجلات الفلسفية المتصلة باستقلال العلوم الانسانية وتعيين مراكز بعضها من البعض الآخر . فلاشك أن أخبار هذه المساجلات قد وصلت اليه ان لم يكن قد أسهم فيها فعلا . وحصل على درجة الدكتـوراه من جامعـة اكسفورد عام ١٩١٥ وانتقل بعد ذلك الى أمريكا حيث حصـل على درجات علمية متعددة من جامعات « كولومبيا وهارفارد وييل » وشغل كراسى الأستاذية فى علوم السياسة والاجتماع والفلسـفة السياسـية

(1) Barnes : An Introduction to the history of Sociology p. 777 sqq.

فى عدة جامعات أمريكية . وشغل فترة طويلة أستاذ كرسى الفلسفة السياسية والاجتماعية بجامعة كولومبيا . وهو عضو فى هيئات علمية كثيرة .

وضع مؤلفات جليلة الشأن أهمها : الجماعة المحلية ؛ علم الاجتماع ، المجتمع تركيبه وتغيراته ، السببية الاجتماعية . وألف بالاشتراك مع العلامه شارل بيج كتابا عنوانه « المجتمع : مقدمة تحليلية (١) . عالج فى ثنايا هذه المؤلفات طائفة من النظريات الاجتماعية الهامة وألم الى وجهات نظر لا تخلو من أصالة وعمق . والى القارىء أهم الموضوعات التى عالجها .

أولا ــ المصطلحات الاجتماعية

اهتم « ماك ايفر » بمشكلة الترمينولوجيا «Terminology» فى علم الاجتماع لأنه يرى أن هذا العلم كغيره من فروع المعرفة الانسانية لابد أن تكون له مصطلحاته الخاصة ومفاهيمه المحددة . ولذلك ينبغى على علماء الاجتماع أن يضعوا ثبت المصطلحات ؛ وينبغى على طلاب العلم أن يروضوا أنفسهم على استخدام مفاهيم العلم ومصطلحاته فى أوضاعها الصحيحة بعيدا عن اللبس والغموض اللغوى حتى لا تضطرب القضايا العلمية ويتعذر الوصول الى المبادىء الكلية العامة .

ومما يزيد صعوبة تحديد المفاهيم الاجتماعية ؛ أن معظمها مستمد من التعبيرات الشعبية الدارجة ومن المترادفات التى يكثر استعمالها فى الحياة اليومية . ومن البديهى أن وفاء هذه المصطلحات بمدركاتها العلمية ومدى قابليتها للاستساغة العلمية ؛ ومبلغ أدائها للمعانى المقصودة ؛ أمور لابد أن تختلف باختلاف العلماء والباحثين فى وجهات

---

(1) The Community ; Socology; Society : Its Structure ard change; Social Causation.

Society ; An Introductory Analysis.

(١)وقد ترجمة الى اللغة العربية الأستاذ الدكتور على عيسى أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية

النظر وفى المران العلمى وقوة الحجة والمنطق والتمكن من حقـــائق العلم . ولذلك فان الواجب العلمى يقتضينا الاتفـاق على المدلولات العلمية التى نستخدمها حتى لا تضطرب آسالبينا فى المناقشة وتحليل الحقائق ويتعذر علينا أن تتلاقى فى تقـــارب فكرى بصـــدد هذه المصطلحات .

واهتم ماك ايفر بتحليل المصطلحات الأساسية الآتية :

١ ـ المجتمع society وهو ذلك النطاق العـام للعـــلاقات الاجتماعية التى تقوم بين مجموعة من الأفراد.لأن الأفراد فطروا تلقائيا على أن يخلقوا نظاما من شأنه أن يوجه سلوكهم ويضـبطه ؛ ويطلق نشاطهم ويحده ؛ ويضع لهم مقاييس هذا السلوك والنشاط . ان هذا النظـام هو المجتمع ؛ انه « نســق » مكون من العــرف والاجراءات المرسومة والمحرمة ؛ انه النسيج المكون من العلاقات الاجتماعيةالمعقدة والمستمرة فى التفاعل . ومن أخص صفاته .

( ا ) أنه لا يثبت على حال وذلك لدوام تفاعل العلاقات الاجتماعية وتعقدها وقابليتها للتغير المستمر واختلاف مواقف الأفراد بصددها .

(ب) انطوائه على فكرتى التشـابه والتبـاين وذلك لأن الادراك المتبادل لفكرة الانتماء الى « المجتمع » لا يمكن أن تتحقق اذا لم توجد المشابهة أو ما يسمى « بغريزة الحس النـــوعى » بين أفراده . وكذلك لابد أن تتحقق فكرة « التباين » فلو كان الأفراد جميعا متشـابهين ؛ تضاءلت علاقاتهم الاجتماعية حتى تصير كعــلاقات مجتمعــات النمل والنحل . وفى مثل هذه الحالة تقل مظاهر الأخذ والعطـاء وتفـاعل الأحاسيس والمشاعر بين الأفراد .

٢ ـ الجماعة المحلية community وهى عبارة عن جماعة من الأفراد يقطنون بيئة معينة قد تكون ضيقة النطاق كالقرية أو الحى أو المدينة وقد يتسع نطاقها فتشــمل أمة بأسرها . وأهم خاصــة تميــزهم أنهم لا يحققون مصالحهم الخاصة فحسب بل يشتركون أكثر من ذلك فى

المظاهر الأساسية للحياة المشتركة . بحيث يشعر الفرد آن وجوده وحياته بأسرها متحققة داخل هذه الدائرة . وبذلك تتميز الجماعة المحلية عن غيرها من الجماعات . فمثلا لا يستطيع الفرد آن يحيا حياته كاملة داخل مؤسسة تجارية أو دينية بينما يستطيع أن يفعل ذلك فى داخل قبيلته أو مدينته وعلى ذلك « فالصفة الأساسية للجماعة المحلية هى أن كل علاقات الفرد الاجتماعية يمكن أن توجد فى داخلها » هذا ؛ وترتكز الجماعة المحلية على دعامتين : الدائرة المكانية ؛ والعواطف الاجتماعية المعبرة عن شخصية الجماعة .

وتختلف الجماعات المحلية اتساعا وضيقا ؛ كما تختلف من حيث مقدرتها على الاكتفاء الذاتى فقديما كانت الجماعات المحلية البدائية أكثر اكتفاء بذاتها من جماعات اليوم التى تقوم على التبادل الاقتصادى من جهة والارتباط السياسى المتبادل مع غيرها من جهة أخرى . وليس لجماعة محلية معاصرة حوائط تحدها وتفصل بينها وبين غيرها مهما حاول حكام أية دولة أن يقيموا ستارا حديديا حولها . والملاحظ أن جماعاتنا المحلية المعاصرة موجودة فى داخل جماعات محلية أكبر منها حجما ونطاقا . فالقرية فى داخل مدينة ؛ والمدينة فى داخل اقليم ؛ والاقليم فى داخل أمة ؛ والأمة فى داخل الجماعة العالمية . وهى فكرة آخذة فى النمو والازدهار لارتقاء المفاهيم السياسية المعاصرة .

٣ ــ الجماعة أو الزمرة Group وهى عبارة عن تشكيلات جماعية ترتبط فيما بينها بعلاقات مميزة . وذلك مثل الطبقة الاجتماعية ؛ والجيرة وروابط الصداقة وفرق الألعاب الرياضية وما اليها . والغرض الأساسى الذى ترمى اليه هذه « الزمر » هو تأدية وظائف معينة ومحددة .

ثانيا ــ العلاقات الاجتماعية

يقول ماك ايفر ان دراسة العلاقات الاجتماعية هى أهم موضوعات البحث الاجتماعى . بل ان علم الاجتماع فى نظره هو علم العلاقات

الاجتماعية ومجموع هذه العلاقات هو المجتمع ذاته . وتتطلب هذه الدراسة الوقوف على حقائق العلوم الاجتماعية التى تتصل من قريب أو بعيد بعلم الاجتماع والتى تدرس مظاهر النشاط الانسانى . وكذلك نراه يهتم بتحديد العلاقة بين علم الاجتماع وطائفة كبيرة من العلوم الاجتماعية . فالانتروبولوجيا تدرس مقومات الانسان وحرفه الأولى ووسائله المادية التى استعان بها منذ فجر الانسانية وتدرس أساطيره وخرافاته ومعتقداته وتصوراته الروحية . والاقتصاد يدرس الانسان بوصفه ساعيا الى جمع الثروة ونازعا الى انفاقها ويدرس العلاقة بين الثروة ومبلغ تحقيق الرفاهية بالنسبة للفرد والمجتمع والتاريخ يدرس حوليات الانسانية وسجلاتها ويحلل ما تنطوى عليه من حوادث . وعلم النفس يدرس مظاهر سلوك الفرد ومبلغ استجابته للبيئة وانفعاله بظروفها . أما علم الاجتماع فهو وحده الذى يدرس العلاقات فى ذاتها . فكل علم من العلوم التى أشرنا اليها يتميز بالموضوع الذى يتخذه محورا لاهتمامه ؛ أما علم الاجتماع فانه ينفرد بالغاية الكلية التى يرمى اليها . فنحن لا نهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية لكونها اقتصادية أو سياسية أو دينية ولكن لأنها ؛ أولا وقبل كل شىء ؛ اجتماعية . ولتوضيح هذه النقطة يقول ( ماك ايفر ) اذا التقى شخصان فى سوق اقتصادية ؛ فانه من الخطأ اعتبارهما مجرد شخصين تربطهما رابطة اقتصادية ؛ انهما فى الواقع شخصان اجتماعيان ومقدمان على علاقات ليست من طبيعة اقتصادية فحسب . لأن حياة الأفراد متعددة الجوانب : فيها الجانب الاقتصادى والقانونى والأخلاقى والاجتماعى؛ بيد أن الجانب الاجتماعى هو الذى يؤلف بينها جميعا . وما المجتمع الا ذلك الكل المعقد الذى ينتظم مجمل هذه العلاقات المتبادلة بين أفراده . ولا سبيل الى معرفة هذا الكل الهائل الا بمعرفة العلوم الانسانية جميعها .

هذا ؛ ويرى ( ماك ايفر ) أننا فى دراستنا للعلاقات الاجتماعية لا يمكننا أن نفصل بين الجانب السيكلوجى والجانب الاجتماعى .

فعندنا ندرس طبيعة الأفراد من حيث كونهم كائنات ذات سلوك ووعى فردى ؛ فاننا ندرس ذلك من الناحية السيكلوجية . وحينما ندرس العلاقات المتبادلة بينهم ؛ فاننا ندرس ذلك اجتماعيا . ولما كنا لانستطيع أن نفهم الأفراد منفصلين عن علاقتهم المتبادلة ؛ ولا نستطيع كذلك أن نفهم أو نفصل العلاقات عن الأطراف المشتركة فيها ؛ فاننا لا نستطيع أن نفصل بين علمى النفس والاجتماع ؛ لأنهما يدرسان جوانب مختلفة لحقيقة واحدة لا تقبل التجزئة . وهذه الاعتبارات تفرض علينا نحن علماء الاجتماع أن نكون طلاب علم نفس بالاضافة الى عملنا حينما ندرس العلاقات الاجتماعية ؛ كما أن الاعتبارات نفسها تفرض على علماء النفس أن يكونوا طلاب علم الاجتماع بطريقة تلقائية حينما يدرسون سيكلوجية الأفراد . وهذا التداخل ينتهى فى آخر تحليله الى أن الفرق بين علم النفس وعلم الاجتماع هو فرق يتعلق بالناحية التى تستأثر بدراستنا فى العلاقات والحقائق الاجتماعية .

ثالثا ــ الانسان والبيئة

من الموضوعات التى استأثرت بعناية العلامة « ماك ايفر » هى العلاقات الضرورية التى تربط الانسان بالبيئة ومبلغ انفعاله بظروفها وخضوعه لأحكامها .

يقول ماك ايفر اننا اذا وضعنا بذرة فى الارض دفعت بجذورها فى باطن الارض وبفروعها فى الهواء . ومعنى ذلك أنها تنشىء علاقات معقدة كل التعقيد مع البيئة لدرجة أننا اذا نزعناها من التربة هلكت فورا . وهكذا شأن الكائنات الحية الأخرى فأنها لا تقل اعتمادا على البيئة أو تجاوبا معها . فالانسان ؛ بالرغم من استطاعته أن ينتقل من بيئة لأخرى ويغير من أحوال البيئة وفقا لأغراضه ؛ فانه لا يستطيع أن يفلت من أحكام بيئته ومن الصلات الوثيقة التى تربطه بها .

وتتداخل الحياة والبيئة بعضها فى بعض بدرجة قوية . فكل تغيير يطرأ على الكائن الحى من شأنه أن يحدث تغييرا فى صلته بالبيئة ؛

وكل تغيير فى البيئة يستتبع تغييرا فى استجابة الكائن الحى لها . أى أن كل اختلاف فى بيئتنا ينطوى على قدر من الاختـلاف فى عوائدنا وأساليب حياتنا . ومن جهة أخرى فان هذه العادات والأساليب تهيىء لنا فرصا للتكيف كلما اختلفت البيئة التى نعيش فيها . وهـذا التكيف ضرورى لتحقيق « التوازن المتحرك » بين البيئة والفرد .

هذا ، وكانت دراسة العلاقة بين البيئة والظواهر الاجتماعية مثار الاهتمام بين علماء أمريكا وانقسموا بصددها الى مدرستين . المدرسة الايكولوجية «Ecological» والمدرسة الاقليمية «Regional» .

وكان من أنصار المدرسة الأولى « بارك وبرجس » واهتم هؤلاء بدراسة الايكولوجيا وخاصة الظواهر الاجتماعية والثقافية المتعلقـة بمناطق التجمعات الحضرية المختلفة . واهتموا كذلك بدراسـة الآثار الاجتماعية فى الدائرة المحلية وتوسعوا فى دراسة العلاقات القائمة من تنافس وتعاون ومظاهر التخصـص وتوزيع الاختصـاصات والمركزية واللامركزية وخواص التركيب الاجتماعى سواء فى الريف أو فى المدن.

أما المدرسة الثانية وهى المدرسة الاقليمية فأشهر أنصارها العلامة « هوردأودم » وزملاؤه من جامعة « نورث كارولينـا » قسم هؤلاء الولايات المتحدة الى أقاليم طبيعية لكل منهـا له أحواله الجغرافيـة والاجتماعية . وهذه الأقسام تتكامل فيما بينهـا بحيث ينشـأ عنهـا أسلوب متوافق ومتزن للحيـاة الاجتماعيـة . أى أن هـذا التقسيم الاقليمى يهدف الى تحقيق التوازن والتـكامل بين الظروف البيئيـة والاجتماعية لتنمية حياة الجماعة بالاجمال .

والغرض من هذه الدراسات الاكلوجية سواء الخاصة أو الاقليمية هو كشف مبلغ تعقد البيئة ، ومبلغ تغلغلها فى حياة الجماعات والزمر الاجتماعية ، وامكان تفسير الفروق بين الأفراد والجماعات على أساس الفروق البيئية .

ويعرض ( ماك ايفر ) لمظاهر التكيف بين الفرد والبيئة وهى ثلاثة .

١ ـ التكيف الطبيعى : ويحدث بصفة تلقائية شئنا أم لم نشـأ ، مستقلا عن تدخلنا وعن غاياتنا . وما القوة والضعف والصحة والمرض

تفرضها الطبيعة علينا حيثما وجدنا حتى أن الموت نفسه لا يعدو أن يكون مظهرا أخيرا للتكيف الطبيعي . وبالرغم من خضوع الانسان لهذا النوع من التكيف ؛ فانه مهتم جدا بالمشكلات المرتبطة به مثل الموت والصحة والمرض والتغيرات الجثمانية وحالة التغذية ووسائل تحسين النسل والصحة واطالة العمر . وتدل التجارب على اطراد نجاح الانسان فى مسعاه .

٢ ـ التكيف البيولوجى : ويقصد به ماك ايفر التوافق الحيوى بين البيئة والانسان وأثره فى تأدية الانسان لوظائفه . فكما أن السمك مثلا متكيف مع البيئة البحرية ؛ والحيوان المفترس متكيف مع حياة الغابة ؛ فكذلك ينبغى أن يكون هناك تكيف بيولوجى بين البيئة والانسان لأن عدم التكيف أو « سوء التكيف » لا يسمح للكائن الحى بأن يؤدى وظائفه كاملة .

٣ ـ التكيف الاجتماعى : ويعتبره ( ماك ايفر ) امتدادا للتكيف البيولوجى ويمتاز بأنه خاضع لشروط وموجه نحو خلق قيم معينة . وهذا التكيف يؤدى بنا أن نختار بين أمرين : اما البحث عن البيئة التى تلائمنا ؛ أو خلق مثل هذه البيئة . وقد استطاع الانسان بفضل ذكائه ومجهوداته المتواصلة أن يختار بيئته ويعدل فيها بحيث يؤدى تكيفه بها الى تحقيق وظائفه وغاياته .

وللبيئة التى صنعها الانسان مظهران : الأول خارجى والثانى داخلى .

المظهر الخارجى ـ يقصد بالبيئة الخارجية التعديلات الفيزيقية للعوامل الطبيعية مثل بناء المساكن وتخطيط المدن والقرى ووسائل النقل والمواصلات وأدوات الحضارة وأجهزتها . ويدخل فى هذا الصدد ما يسميه علماء الانثروبولوجيا « مظاهر الثقافة المادية » وتقاوم هذه البيئة أجيالا عديدة حتى اذا هلك المجتمع نفسه . والدليل على ذلك تلك الآثار المختلفة والرواسب الباقية من مظاهر الحضارات القديمة التى اندثرت كالحضارة المصرية القديمة مثلا .

المظهر الداخلى ـ ويقصد بالبيئة الداخلية المجتمع نفسه وماينطوى عليه من تنظيمات وقواعد وعرف وتقاليد وعادات . أو بعبارة أخرى كل ما نسميه « بالتراث الاجتماعى » . وبالرغم من أن مقومات هذه البيئة ليست مفروضة بالقوة ( بقوة القانون الطبيعى ) فان الفرد لا يستطيع أن يفلت منها لأنه تكيف بها وأعد نفسه للحياة داخلها .

فالبيئة العامة أو الشاملة التى يعيش فيها الانسان تتضمن بيئة خارجية يعدلها الانسان بطرق مختلفة ؛ وهذا التعديل يتم على نطاق واسع بفضل تقدم الحضارة الحديثة . وبيئة داخلية او اجتماعية يتكيف معها الانسان بالوعى والتعود والمران . وهذان المظهران يتفاعلان باستمرار ويؤثر كل منهما فى الآخر . وذلك يرجع الى أن الانسان دائب السعى لتحسين ظروف حياته ومعيشته واسعاد نفسه وبنى جنسه. وعن طريق جهوده المتواصلة وبفضل استخدام ذكائه يعمل على تغيير ما يستطيع تغييره من ظروف بيئتيه : الداخلية والخارجية .

رابعا : الضبط الاجتماعى

اهتم ( ماك ايفر ) بدراسة موضوع الضبط الاجتماعى لأنه من أقوى المشكلات الاجتماعية الدائمة التى يتعين على علم الاجتماع أن يحلها . ويقصد بالضبط الاجتماعى الطريقة التى يحافظ بها المجتمع على مقوماته ويحمى أنظمته . فهو عبارة عن تنظيم العلاقات بين النظام الاجتماعى والأفراد الخاضعين له . وبمعنى آخر تنظيم العلاقة بين الجزء والكل وبين الوحدة والمجموع .

ولدراسة الضبط الاجتماعى ينبغى أن تتقصى جميع الوسائل التى بفضلها يحكم المجتمع أفراده وينظم سلوكهم ومعايير هذا السلوك وذلك للحرص على النظام العام المرسوم . وبجانب هذه الوسائل هناك أدوات لاحكام الضبط المنشود منها الأسرة وما تنطوى عليه من سلطة أبوية ؛ والجماعة المحلية والتزاماتها ؛ والطبقة الاجتماعية وماعداها من الوحدات الاجتماعية المتعلقة بالتركيب الاجتماعى .

والضبط الاجتماعى يختلف عن غيره من ألوان السلطة القانونية ؛ ومع ذلك فهو ينطوى على قوة لا تقل شأنا عن قوة القانون . وهذا يدلنا على أن هناك قوانين اجتماعية ملزمة أسوة بالقوانين الطبيعية الوضعية وكشف هذه القوانين هو وظيفة عالم الاجتماع . ولا يقل علم الاجتماع فى هذا الشأن عن غيره من العلوم . لأن كل شىء فى الوجود يخضع للقانون ؛ والغرض من البحث العلمى المعاصر فى أى ميدان من ميادين العلوم هو الوصول الى القوانين التى تحكم الأشياء فى قطاع معين . فعالم الطبيعة مثلا يهتم بقوانين الجاذبية والحرارة والضغط . ويهتم عالم الكيمياء بخواص ومعادلات التفاعل الكيميائى. وليس عالم الاجتماع أقل منهم اهتماما فيما يتعلق بكشف القوانين الاجتماعية .

غير أن تصرفات الأفراد ومظاهر سلوكهم لا يمكن أن تنطوى على طاعة آلية لا انحراف فيها عن القواعد المقررة والأوضاع المرعية . ومن ثم يتعين على المجتمع أن يمارس درجة ما من الضغط والضبط على الأفراد الذين يحاولون الخروج والحيد عما يرسمه المجتمع من قوالب وأوضاع .

وينطوى هذا الضبط على ما يسمى « بالجزاء الاجتماعى » . وهذا الجزاء هو عبارة عن العقوبة التى يفرضها المجتمع على كل من يخالف قواعده ووصاياه . ولكل نوع من القواعد جزاءاته الخاصة . فقد يكون حرمان المخطىء من الامتيازات التى يستمتع بها ؛ أو حرمانه من بعض حقوقه ؛ أو غرامة توقع عليه . وقد يكون حرمانه من حريته (وهو السجن ) أو حرمانه من الحياة ( ويقصد بذلك الاعدام ) .وعلى العموم تختلف هذه الجزاءات باختلاف قواعد السلوك المعمول بها فى الوحدة الاجتماعية التى ينتمى اليها الأفراد . وأهم هذه القواعد فى نظره ما يأتى :

١ ــ قواعد السلوك فى الجمعيات والهيئات . ومن أمثلة ذلك معاقبة من يخالف قواعد السلوك فى ناد بحرمانه من العضوية ؛والعامل

الذى يخالف قواعد السلوك فى المصنع يطرد أو توقع عليه غرامة ، والمسيحى الذى يخالف تعاليم الكنيسة يعانى مرارة الحرمان الكنسى ؛ والطبيب أو المحامى الذى يخل بواجبات مهنته يفقد حق مزاولتها ويتعرض للجزاء القانونى .

٢ ــ قواعد السلوك الخاصة بالجماعة المحلية ومن أمثلة ذلك أن الشخص الذى يخرج عن العادات والتقاليد يرمى بالتحقير الجمعى ؛ وقد يحكم عليه المجتمع أحكاما أخرى أشد قسوة كالحرمان من الاشتراك فى طقوس الجماعة أو عدم التعامل معه ، أو الطرد من حظيرتها .

القواعد الخلقية ــ ويقصد بها ماك ايفر مجموعة الأوامر والنواهى التى يتخذها ضمير الفرد معيارا للحكم على الأفعال وتمييز الصواب من الخطأ والخير من الشر . ويقول « ماك ايفر » ان هذه القواعد الفردية ، مستقلة عن قوالب المجتمع وقد تتعارض معها . ويضرب لذلك المثل الآتى : قد يتعمد طبيب اعدام طفل حديث الولادة لأنه مشوه الخلقة أو ناقص التركيب . وقد يكون بهذا العمل قد خرق قواعد السلوك الخلقية الخاصة بالجماعة التى ينتمى اليها الطفل وقد خالف القانون أيضا ، غير أنه فى قرارة نفسه يشعر بأنه تصرف تصرفا سليما من الناحية الخلقية كما يفهمها ويتصورها .

٤ ــ التشريعات القانونية وهى قوانين الدولة وما تنطوى عليه من قوة الأداء والالزام . فالدولة باعتبارها صاحبة الولاية على الصالح العام تتدخل ، بهذه الصفة ، لتقرير ماينبغى عمله أو الاقلاع عنه بقوة القانون وبوسائلها التنفيذية الأخرى .

هذه هي بعض آراء العلامة ماك ايفر . وهي في مجموعها لا ترتفع عن المستوى العادى لأساتذة الاجتماع ، ولا تصل فى أصالتها الى درجة « الفلاسفة الكبار » ويؤخذ عليه أنه كان مدرسيا ، يكثر من ضرب الأمثلة ومناقشة الجزئيات ويستطرد فى عرض المسائل بالتفصيل مما أفقد بعض مواقفه قوة التحليل وعمق الفكرة ودقة المنهج .

## ٦ ـ المدرسة النفسية الاجتماعية

تأثر كثير من رواد الحركة العلمية الاجتماعية فى أمريكا بالنظريات والاتجاهات السيكلوجية الزاحفة الى بلادهم مع الفكر الغربى .ويؤلف هؤلاء الرواد فى مجموعهم لونين متقاربين فى نطاق الدراسات النفسية وهما علم النفس الاجتماعى وعلم النفس التحليلى .

والى القارىء كلمة موجزة عن أهم هؤلاء الرواد :

١ ــ فرانكلين جدنجز F.H. Giddings ١٨٥٥ ــ ١٩٣١

عرض فى كتابه «مبادىء علم الاجتماع» فكرة جديدة هى «الشعور بالنوع « Consciousness of Kind » باعتبارها الدعامة الجوهرية التى ترتكز عليها طبيعة المجتمع البشرى وطبيعة علاقات أفراده . فالمجتمع فى نظره حقيقة نفسية وتسود أفراده علاقات متبادلة من طبيعة نفسية وكل فرد فيه مزود تلقائيا بشعور متبادل نحو النوع أى أنه يدرك تلقائيا أن كل أفراد بنى جنسه يشاركونه المشاعر ذاتها وتقع الأحاسيس والتيارات السيكلوجية فيهم بقوة تكاد تكون متعادلة . وتقترب هذه الفكرة من نظرية « سمنر » فى الجماعات الداخلية « Engroups » التى تكلمنا عنها فيما سبق .

ويتخذ « جدنجز » من الفكرة المشار اليها وهى فكرة « الشعور بالنوع » أساسا لتحديد الطبقات والفئات الاجتماعية باعتبار أن لكل طبقة أو فئة اجتماعية وجدانها الطبقى الخاص والمشاعر المميزة المتبادلة بين أفراد الطبقة أو الفئة .

ويضيف « جدنجز » الى فكرة « الشعور بالنوع » أن العلاقات النفسية المتبادلة بين الافراد ، فى تفاعلاتها المستمرة ، تنتج عواطف وانفعالات نفسية اجتماعية أكثر تعقيدا مثل المشاركات الوجدانية والتقليد والترديد والتعاطف والاتحاد .. ويسمى هذه الانفعالات « الأسس النفسية للتكامل الانسانى » وبفضل تأصل هذه العوامل

---

Franklin. H. Giddings ; Principles of Sociology
Franklin. H. Giddings ; Elements of Sociology

ينشأ فى الحياة الاجتماعية مايمكن تسميته « بروح الجماعة أو العقل الجمعى Social Mind » . وفى هذا الصدد يقترب « جدنجز » من دراسات المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع .

ويبدو اقترابه من « الوضعية الاجتماعية » فى كتابه « عناصر علم الاجتماع » حينما استعمل لفظ « Socius » وهو لفظ لاتينى الأصل معناه « الجمعية » واعتبر هذا المفهوم « الجمعية » وحدة البحث فى علم الاجتماع . ويشرح ذلك بأن الفرد مزود تلقائيا « بالروح الجمعية » ، فهو ليس مجرد كائن عضوى أو كائن نفسى واع ، ولكنه فوق ذلك كائن اجتماعى يرتبط مع غيره بعلاقات تفوق طبيعتيه الحيوية والسيكلوجية ( فقد يكون زميلا فى عمل أو زميلا فى سفر أو سيدا أو مسودا متعاونا أو متنافسا ) ووظيفة علم الاجتماع هى دراسة هذه الروح الجمعية ووجوه نشاطها وانطباعاتها فى ذوات الأفراد .

وزاد اقترابه من الوضعية الحديثة فى علم الاجتماع عندما نشر عام ١٩٢٤ « الدراسة العلمية للمجتمع الانسانى » (١) فقد نادى بضرورة دراسة ظواهر المجتمع دراسة وضعية أى دراسة وصف وشرح وتحليل وضرورة تطبيق المنهج الاحصائى فى هذه الدراسة لأنه أفضل المناهج لكشف حقائق الاجتماع وقد سار تلميذه « المر Elmer » على هذه المناهج فى دراساته الاجتماعية وطبقها بنجاح فى كتابه « الاحصاءات الاجتماعية » . (٢)

٢ ــ شارلس كولى Charles, H. Cooley ١٨٦٤ ــ ١٩٢٩

تتلمذ على نظريات تارد وأتباعه . واتخذ الظواهر السيكولوجية أساسا لتفسير طبيعة المجتمع وطبيعة العلاقات والنظم الاجتماعية . فالمجتمع مركب عضوى نفسى وهو يطبع أفراده على هذه الطبيعة النفسية لأن الفرد لا يولد مزودا بالطبيعة الانسانية ولكنه يروض ويحصل عليها شيئا فشيئا من المجتمع . ولذلك فان كلمتى « مجتمع وفرد » فى نظره لا يعنيان لفظين أو مفهومين منفصلين ، فهما حقيقة نفسية واحدة . ويمكن

(1) F.H. Giddings: The scientific study of human society.
(2) Elmer ; Social statistics.

تشبيه الفرد والمجتمع بانسان ينظر الى صورته فى مرآة « Looking glass self » (١) (Soi en miroir) حقا انه يوجد بالفطرة شعور غريزى بالذات « Self Feeling » ولكن لا يمكن للانسان أن يكون شاعرا بذاته « Self Consciousness » الا اذا أصبح ذاتا اجتماعية « Social Self » فالمجتمع هـو الذى يضـفى على الفرد الشعور الحقيقى بالذات وبفضل الحيـاة الاجتماعية تتحول النزعة الفطرية المتعلقة بالذات الى تأكيد اجتماعى لذات الفرد . وبذلك يصل كولى عن طريق تحليل مشاعر الذات ومراحل تطـورها الى نوع من « الواقعية الاجتماعية Realisme Sociologique (٢) .

ويضرب مثلا : ان الفرد يتصور كيفية ظهوره أمام شـخص آخر ، ويتصور مدى الحكم الذى يصدره عليه هذا الآخر . ويرتب على ذلك مشاعر متصلة بقيم معينة : كالعزة والشجاعة والخوف والخجل . ومن ثم يخجل الفرد عندما يتلعثم ويضطرب أمام رجل مخيف ، أو أمام رجل جسور . وقد يشعر بالقوة أو الكرامة اذا كان موضع التجلة والاحترام من الآخـــرين .

ومعنى ذلك أن الشـعور بالذات يتضـمن مـوقف الذات فى الحياة الاجتماعية من خلال العلاقات التى ينسجها المجتمع حول أفراده

ويذهب « كولى » الى أبعـد من ذلك عنـدما يعرض فى كتابه « التنظيم الاجتماعى » (٣) مفاهيمه التى انتشرت فى الولايات المتحدة وخارجها عن الجماعات الأولية Primary Groups والجماعات الثانوية Secondary Groups ، وهذه الفـاهيم شـبيهة الى حد كبير بمفاهيم سمنر عن « In — out groups » والجماعات الأولية تتميز فى نظر كولى بالترابط والتعاون الداخلى والعـلاقات المباشرة « وجها لوجه Face to face » بين أعضائها وذلك مثل مايحدث فى الأسرة

(1) Charler, H. Cooley; Human Life and the Social Life.

(2) Cuvillier; Manuel de Socioligie.

(3) Charles H. Cooley; Social Organisation.

والخلائل وزمر الندماء وحلقات اللعب والجـــوار وثنائيات المحبين والعشاق ؛ بينما تتميز الجماعات الثانوية بالعلاقات غير المباشرة .

وتتبلور المشاعر النفسية فى نطاق الجماعات الأولى الملتحمة قلبيا فى نوع من الاتحاد أو الامزاج بين الذوات الفــردية ( فى الجمــاعة ) فنبيح عن ذلك كل مشترك لدرجة أن الأنا الحقيقية للفرد تجاوز حدود فرديتها ورغباتها الخاصة وتتحد مع الحيــاة العامة للجمــاعة وتتمثل الرغبات الجماعية التى تسودها أى أن الفرد ينتقل من مجرد « الأنا » الى الـ « نحن » ويصبح هذا المفهوم الأخير هو التعبير الصــحيح عن الحقيقة الاجتماعية . فالفرد يعيش فى مشاعر الكل ، وشخصيته تذوب فى شخصية الجماعة ، والأنا تتلاشى فى الـ نحن . وعن هذا الطــريق تتولد الغيرية وحب الخير والمشاركات الوجدانية والمثل المشتركة ومن ثم يتأصل فى نفوس الأفراد احتــرام النظام الاجتمــاعى والقــانون والحريات والعدالة . وهذا هو ماتقول به المدرسة الفرنسية الاجتماعية من أن الفرد هو نتاج الحياة الجماعية .

### ٣ – روس « Edward Ross »

يذهب « روس » الى أن المصــالح الفردية هى عــوامل الحيــاة الاجتماعية وأن هذه الحياة هى عبارة عن مجموعة من عمليات التأثير المتبادل بين الأفراد كالتعاون والتنافس والتعارض والتصالح والانعزال والاندماج وما الى ذلك . وقد عرض فى كتابه «أسس علم الاجتماع»(١) تصنيفا شاملا للعمليات والعلاقات الاجتماعية المتداخلة مع بعضها البعض والتى يؤدى بعضها الى البعض الآخر . وأهم هذه العمليات :

أ ــ العمليات الاجتماعية المصاحبة لنشأة المجتمع واختلاط أفراده وتزاوجهم وتكاثرهم .

---

(1) Ross — Foundations of Sociology.

ب ــ العمليات الاجتمــاعية الضرورية لقيام النظم واســتقرارها وانتشارها . وضغط بصفة خاصة على التنشــئة الاجتمــاعية والتقليد الاجتمـــــاعى .

حـ ــ نشأة الســلطة السياسية وترويض عنــاصر المجتمــع على قبـــــولها .

د ــ العمليات المصاحبة للصراع والتنافس على السلطة واتســــاع نطاق نذر المقاومة وانقسام المجتمع الى طبقات وهيئات : بعضها يجمعه التعاون لتحقيق غايات مشتركة ، والبعض الآخر تفرقه عوامل الحسد والكراهية والانتهازية والروح الفردية .

وفى نطاق كل عملية من العمليات المشار اليها يعرض طائفة كبيرة من العلاقات المتشابكة والمتفرعة عنها . وقــد ناقش العالمان « برجس وبارك Burgess ; Park » هــذا التصنيف (١) وأخذا على العلامة ( روس ) طريقته فى تفريع العمليات وتداخلها وذهبا الى أنه من الممكن اختصار القائمة الطويلة التى قدمها وارجاعها الى أربع عمليات أساسية هى : التنافس والصراع والتكيف والتمثيل . فكل ما ذكره ( روس ) يمكن أن يندرج تحت هذه العمليات الأساسية (٢) .

ويبدو تأثر العلامة ( روس ) بالنظريات النفســية فى كتابيه : علم النفس الاجتماعى ومبادىء علم الاجتماع . (٣)

فى الــكتاب الأول ، قارن بين علم النفس الاجتماعى وموضـــوعه دراسة الميول السيكلوجية السابقة على تكوين المجاعات ، وبين علم الاجتماع النفسى الذى يدرس الحالات النفسية الجماعية ( سيكلوجية الجماعات ) وهى الدراسة التى سار بها شوطا بعيدا العلامة الفــرنسى « جوستاف لوبون » . وفى الكتاب الثانى تكلم عن الغرائز السيكلوجية

(1) Burgess ; Park — Introduction to the Science of Sociology.
(2) E. Ross — Social Psychology.
(3) E. Ross Principles of Sociology.

وناقش كثيرا من النظريات التى قيلت فى تفسيرها وأهم الغــرائز فى نظره،المقاتلة،حب التجمع،الأبوة،حب الاستطلاع ــ وقد ارتبطت بهذه الغرائز السيكلوجية وتولدت عنها ، أربعة غرائز جمعية معقدة وهى : حب التملك والثروة ، السيادة وحب السلطة ، النزعات الدينية ، المعرفة وما يتصل بها ــ ويبدو أنه لم يكن مقتنعا بهذه النظرية لأنه لم يعرض لها عندما أعاد طبع كتابه المشار اليه .

### ٤ ــ ماكدوجال W. MacDougall ١٨٧١ ــ ١٩٣٨

لمس كثيرا من الموضوعات الاجتماعية فى دراساته الســيكلوجية وحللها فى ضوء حقائق علم النفس . ففى كتابه « مقــدمة علم النفس الاجتماعى » عرض نظــريته فى الغرائز واعتبر الغــرائز الأساسية هى المقومات الطبيعية للنفس الانسانية وهى كذلك الدعائم التى ترتكزعليها الظاهرات الاجتماعية فى طبيعتها ونشأتها ومبلغ تأديتها لوظائفها . فمثلا أرجع ظاهرة التدين الى غرائز الخوف والخضوع والاستسلام ، وأرجع الظاهرات الاقتصادية الى غرائز حب التملك والاقتناء ، وأرجع كثــافة السكان ونمو المدن الى غرائز التجمع والمقاتلة ، وأرجع انتشار ظواهر العمران الى التقليد والمحاكاة والايحاء وما اليها .

وفى كتابه « العقل الجمعى » يقرر أن المجتمع مزود بحياة عقليةتعلو فوق مجموع الوحدات العقلية لعناصره ، أى أنها قوة مضافة الىمجموع عقــــول الأفراد .

هذا ، ويمكننا أن نشير الى من سبق ذكرهم علمــاء كثيرين كانوا متأثرين بالدراسات السيكلوجية وهم يحللون حقائق الاجتماع : فمثلا « الوود » بلور فكرة ماكدوجل فى روح الجماعة الى القول بوجــود قوى اجتماعية بدلا من الغرائز ، وتنطوى هذه القوى على نوعين من الدوافع الأولى تتمثل فى الرغبات والعواطف والميول ، والثانية تتمثل

---

Willian MacDougal — An Introduction to Social Psychology
William MacDougall — Group Mind

فى أجهزة التفكير والذكاء والطاقات العقلية التى تعمل لتحقيق مطالب الدوافع الأولى . لأن الميول والرغبات هى القوى المحركة للانسان فى حياته الاجتماعية ، ووظيفة العقل هو استغلال الانسان وذكائه فى توجيه وتهذيب واشباع الميول والرغبات . ومستقبل الفرد وارتقاؤه انما هو مرهون بمبلغ اشراف العقل واستغلال قدراته المفكرة. فالذكاء أداة يستغلها الفرد لتحقيق التوازن الانساني والاجتماعى ويبدو أنه استوحى معظم هذه التصورات من « لستروارد » الذى سبق أن تكلمنا عن نظرياته « السيكلواجتماعية » بالتفصيل (١) ونجد أيضا العلامة ( وتسون Watson ) الذى يذهب الى أن الظواهر الاجتماعية هى مجرد مظاهر سلوكية . فسلوك الانسان هو الذى يشكل مانسميه بالأنماط الاجتماعية لأن هذا السلوك هو عبارة عن انفعاله نحو البيئة التى يعيش فيها أو الوضع الذى يواجهه ليتكيف ويتلاءم معه ونراه يستعمل ألفاظا لها مفاهيم اجتماعية بدلا من المصطلحات النفسية السائدة . فيستعمل لفظ Invironment ; Situation
ولا يستعمل لفظ مؤثر « Stimulus » ونجد كذلك « جورج ميد G. Mead » فى كتابه
« العقل والنفس والمجتمع » يشبه موقف الفرد فى المجتمع « بالذات فى المرآة » متأثرا بدراسات العلامة « كولى » وكأن الفرد شخصا آخر ويقوم بدور هذا الآخر (Other) ، ثم ينتقل من مرحلة الآخر الى ما يسميه مرحلة الآخر المعمم « The generalised other »
وفى هذه المرحلة يزداد تكيفه بالبيئة التى تحيط به ويصبح ذاتا شاعرا بوجوده ، ويتأكد شعوره بالذات فى غمرة التأثيرات الاجتماعية المتبادلة التى هى عبارة عن محاولات الأفراد لكى يصلوا الى مرحلة « الآخر المعمم » (٢) .

وينضم الى من سبق الاشارة اليهم أنصار مدرسه فرويد فى التحليل النفسى . مثل « ابرام كاردينر A. Kardiner » فى كتابه « الفرد

(1) Charles Ellwood ; Principles of Psychosociology.
(2) George. H. Mead ; Mind, Selfl and Society.

ومجتمعه (١) حيث طبق مبادىء التحليل النفسى كما عرضها فرويد على بعض القبائل التى درسها هو ومعاونوه وخاصة ( رالف لنتون ) وضمنها كتابه « الأساس الثقافى للشخصية » (٢) .

ونضيف الى هذه القائمة أيضا « جاكوب مورينو Moreno ومدرسته . ومورينو هو صاحب الاتجاهات القياسية Sociometry » التى ضمنها كتابه ? «Who shall survive»

وتتخلص فلسفته فى أن الأفراد خاضعون لضغوط اجتماعية عنيفة بحيث أصبحوا أسرى لها وعبيدا لتوجيهاتها . ولاشك أن هذه الضغوط تقتل فيهم التحرر والقدرة على الابتكار والتجديد . ومن ثم تجمد الحياة الاجتماعية وتصاب بالشلل . فالواجب أن نطلق الأفراد ونحررهم من القيود الاجتماعية وتركهم يتصرفون ويتفاعلون على سليقتهم وبصفة تلقائية وهذا مادعاه الى أن يسمى كتابه «من الذى سيكتب له البقاء ؟» وأجابته على هذا السؤال واضحة .. وهو ذلك الفرد المتحرر فى تصرفاته من ضغوط المجتمع ، وهو الذى لايقيم لمثل هذه الضغوط كبير وزن فى علاقاته ومظاهر سلوكه وهذا التحرر يكسبه القدرة على التجديد والابتكار . هذا ، الى أن الكبت الاجتماعى يؤدى الى اصابة الأفراد بالأمراض النفسية العنيفة ولذلك كان « مورينو » ومدرسته يعالجون مرضاهم على غرار فرويد « بالتحليل النفسى » وفق طائفة من الطرق والاختبارات العلمية والعملية التى تؤدى الى كشف خبايا العلاقات الاجتماعية لاسيما غير السوية منها . وفى ضوء هذا الكشف يمكن علاج الحالات موضع الدراسة . وقد تكلمت عن هذه الطرق والاختبارات ( السسيودرامية والسيكودرامية فى كتابى ( المدخل الى علم الاجتماع ) وهذه الاختبارات فى مجموعها لاتتناول علاج المريض بوصفه فردا ، ولكن بوصفه الفرد الاجتماعى فى نسيج علاقاته بالآخرين . وقد ساعدت

---

(1) Abram Karriner; The Individual and his Society.

(2) Ralph Linton — The Cultural Background of Personality.

هذه الطرق والاختبارات الجديدة فى الكشف عن طبيعة بعض العلاقات الاجتماعية ومدى انعكاسها في نفــوس الأفراد ومبلغ ما تمــارسه من ضغوط وكبت في ذواتهم. وأمكن كذلك قياس هذه العلاقات والتعبير عن المسافات الاجتماعية التى تنشئها بين الافراد والجماعات قياسا كميا ورياضيا . بيد أن النجاح فى هذا الطريق لايزال جزئيا سواء بين أنصار التحليل النفسى الخالص أو بين علماء القياس الاجتماعى . ونعلق أمالا كبيرة على مايبذله بعض الباحثين المحدثين بصدد تطوير هــذه الطرق وتعميق الاختبارات القاسية حتى تأتى بأفضل النتائج .

# الفصل الخامس

## المدارس الاجتماعية فى روسيا

ظهرت فى روسيا مدارس اجتماعية كثيرة لا سيما بعد الثــورة البلشفية . بيد ان التفكير الاجتماعى فى روسيا مرتبط ارتباطا وثيقــا بالتاريخ السياسى . وهو فى الوقت نفسه أسير الى حد كبير لطرق معينة فى التفكير ولمنطق خاص ومسير وفق أهداف محددة . وهذه الخاصــة معروفة عن روسيا ، اذ تكاد تنفرد عن بقية بلاد العالم بهذه الظاهرة (١)

ويمكننا أن نلخص أهم اتجاهات التفكير الاجتماعى فيما يأتى :

١ ــ المدرسة الفوضوية : وهى المدرسة التى انتشرت أفكارهاقبيل الثورة وأدت تعاليمها الى تقويض دعائم القيصرية واتاحة الفرصةلانتشار الماركسية ثم قيام النظام البلشفى . ويطلق بعض المفكرين الغربيين على هذه المدرسة اسم « المدرسة العدمية Nihilism » نظــرا لأنهـــا تنادى بانكار القوى المسيطرة على المجتمع : فلا قانون ولا دين ولا دولة فليس ثمة الا قانون العلم وسلطان العقل . وأشهر فلاســفة الفوضوية ثلاثة هم : باكونين وكروبتكين وتلستوى . وسنتكلم عنهم بالتفصــيل فيما بعــد .

٢ ــ المدرسة الماركسية : دخلت تعاليم ماركس روسيا عندما ترجم كتابه رأس المال الى الروسية وتشبع بها المفكرون الثوريون لاســيما وقد مهدالفوضويون لقبولها جملة وتفصيلا . فقدكانت النظم الاقتصادية الســائدة هدفا لانتقــادات مريرة ألمع اليها المفــكر « بوزوســكوف Pososkhov » فى كتابه « الفقر والغنى » فلما قويت الماركسية ،اعتبرت

---

(1) Hecker ; Russian Sociology (London 1934).

المادية التاريخية الجدلية هى القاعدة التى أرسى عليها البلاشفة تحليلهم لطبيعة الحياة الاجتماعية وفلسفة الوجود الاجتماعى . وقد تطـــورت هذه المبادىء الى حد ما فى نظر البــلاشفة المعــاصرين أمثال « لينين وستالين وخروشيشيف » وخرجت عن الصورة التى رســمها ماركس.
ومن أشهر أنصار هذه المدرسة العالم Kovalevsky وهو من علمــاء الاجتماع البارزين . فقد وضع كتابين عنوانهما : علم الاجتماع ، وعلماء الاجتماع المعــاصرين .

٣ ــ مدرسة الدراسات الاتنجرافية والانثروبولوجية . واهتمت هذه المدرسة بدراسة أصول الأجناس وخصائصها ومهادها والانشعابات التى تفرعت اليها . واهتمت بصفة خاصة بدراسة الجنس السلافى فى نشأته ومقوماته وابراز خصائصه وقدراته . وأوقفت قسطا من نشاطها على دراسة اللغات والأغانى الشعبية والقصص الدارجة والعادات وما اليها من مختلف مظاهر الفولكلور (١) .

٤ ــ مدرسة الدراسات القــانونية . وتعتبر من أقــوى المدارس الاجتماعية فى روسيا . وأشهر علماؤها Korkunon ; Leo Pytrazktsky ; Gurvitch ; Pokrovsky ; Danilevsky.

٥ ــ مدرسة الدراسات السياسية . واهتم أنصارها بدراسة علاقة روسيا بالعالم الخارجى وخاصة دول أوربا ، ودراسة المذاهب السياسية وخاصة النظام الشيوعى ونقد الرأسمالية والامبريالية والديمقــراطية السياسية وما اليهــا .

٦ ــ المدرسة التطورية والعضوية . وأنصارها متأثرون بفلســفة داروين ونظرياته فى تنازع البقــاء والصراع والانتخــاب الطبيعى وبقاء الأصلح . وخير من يمثلها العلامة نوفيكوف .

٧ ــ مدرسة فلسفة التاريخ . وتخصص أنصارها فى دراسة تاريخ الحياة الاجتماعية ومراحل تطورها ومحاولة وضع قوانين تفسر هــذا

(1) N. Marinus; Ethnography; Folkloreand Archeology in Soviet Russia.

التاريخ وتربط بين مراحله . وأهم ممثليها « لافروف Лавров » الذى ترك كتابين بعنوان « رسائل تاريخية ، وبحث فى تاريخ الفكر »والعلامة ميخائيلوفسكى فى كتابه « ماهو التقدم ؟ » : والعلامة « بترازسكى » فى كتابه « القانون والعرف » وينسب لهذه المدرسة أكبر الفضل فى معالجة موضوعات هامة من علم الاجتماع والتمهيد لنشأته واستقلاله .

٨ ــ الاتجاهات الوضعية فى علم الاجتماع . وهى مدارس علم الاجتماع بالمعنى الصحيح . وخير من يمثلها « ماكسيم كوفالوسكى Kovalewsky الذى يمثل علم الاجتماع الروسى أصدق تمثيل ،ودى روبرتى De Roberty الذى تتلمذ على « كونت » ثم خرج بنظرية وضعية جديدة ، وسروكن P. Sorokin الذى اهتم بالدناميك الاجتماعى وعلم الاجتماع الثقافى . ولو أن العلامة سروكن ينسب الآن الى أمريكا أكثر من انتسابه الى روسيا بعد أن هاجر ومنح الجنسية الأمريكية وشغل فى جامعاتها أرقى الوظائف الأكاديمية (١) .

## دراسة تحليلية لأشهر علماء روسيا

سأتناول فى هذهالفقرة دراسة طائفة من أشهر علماء روسيا وأبعدهم أثرا وأوفرهم انتاجا فى ميدان الدراسات الاجتماعية .

### ١ ــ باكونين « *BAKUNIN* »

يعتبر باكونين مؤسسا لحركة فوضوية واسعة النطاق انتشرت بين جماعات البروليتاريا فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر . وظهر نشاطه بشكل واضح فى ميدان التنظيم والتحريض وعمل التكتيك فقد كان ماهرا فى تنظيم خطط الجمعيات السرية وتوجيهها وكان يقظا شجاعا يتفانى فى أداء رسالته . غير أن بحوثه كان ينقصها الترتيب والتنظيم .

أقام باكونين نظريته فى الفوضوية على أسس علمية أهمها :

(1) Gurvith; Moore; La Soc. du 20 e Siecle (1945).

١ ـ التطور الانسانى يسير من الحالة التى كان السلوك الانسانى فيها خاضعا للعوامل الطبيعية ومقيدا بالدوافع الحيوانية الى الحالة التى تسود فيها الغايات المثالية ويخضع فيها السلوك الانسانى لأحكام الجزاء الاجتماعى .

٢ ـ تاريخ الانسانية هو عبارة عن محاولة ترويض حيوانية الانسان ، وتهذيب دوافعه تهذيبا مطردا والعمل على نمو انسانيته نموا متكاملا .

٣ ـ تعتبر السلطة السياسية والملكية الخاصة والدين نظما طبيعية بالنسبة للمراحل الأولى من تطور الانسانية ، لأنها ترتبط الى حد ما برغبات الانسان ومخاوفه الطبيعية .

فالملكية الخاصة تنمى اهتمام الانسان بالخيرات المادية ، والسلطة السياسية تدعم هذه الملكية عن طريق الالتزامات والعقود ، والدين يؤدى الوظيفة نفسها بما يقرره من ثواب وعقاب . ويرى « باكونين » أن هذه النظم مقضى عليها بالزوال بفعل القوانين الطبيعية التى يسير طبقا لها التطور الانسانى .

وحارب باكونين بشدة وحماسة جميع أشكال الحكم السياسى حتى ماكان قائما منها على الانتخاب . لأن الاستبداد فى نظره لا يكمن فى شكل الدولة وانما فى جوهرها « Despotism lies not in the form of the state but in its essence » (1) وأعظم الأفكار الديمقراطية شأنا لا يجدى نفعا فى تغيير هذه الخاصة الجوهرية الكامنة فى طبيعة الدولة. وجهل الشعوب وعدم خبرتها يجعلانها عاجزة حيال ماتتخذه الطبقة الأقوى من تنظيمات اقتصادية . هذا ، الى أن هذه الطبقة تستطيع أن تسير أى شكل من أشكال الجهاز السياسى وفق مصلحتها الخاصة .

وفى ضوء هذه الاعتبارات نستطيع أن نقرر أن الدوافع الاقتصادية هى التى حدت بالمفكر « باكونين » الى المناداة بالغاء الدولة والقضاء

---

(1) Coker: Recent political thought, p. 203 sqq.

عليها بوصفها نظاما يسيء الى الشئون الاقتصادية . لأن الدولة تقــوم على نظام الملكية وتعمل على تخليده ، ونظام الملكية بما ينطوى عليــه من امتلاك وسائل الانتاج يبقى دائما جماهير الشعب خاضعة لأصحاب رأس المال . فهدف كل نظام سياسى اذن هو أن يؤكد استغلال المــلاك لطبقات العمال وتنظيم هذا الاستغلال .

وعلى الرغم من أن السبب فى قيام السلطة السياسية هو الابقاء على حالة اقتصادية تقوم على القهر ، غير أن عيبها الأساسى فى نظر «باكونين» يبدو فى مظهريها الخلقى والعقلى . فالدولة من الناحية الأخلاقية تحط من قيمة الأفراد لاسيما فى هذا الطور من الحضارة ويستوى فى ذلك الحاكمون والمحكومون لأنها تتصرف على أساس القوة والقهر وليس على أساس الاقناع والعلم . فالأوامر التى تصدرها الدولة تحل محــل ارادة المواطن وتطغى على ماله من أحكام خاصة . فى حين أن أخلاقية السلوك الانسانى ومعقوليته ليس لهما من معنى الا عندما يقوم الفــرد بأفعال خيرة معقولة ويعترف الفرد نفسه بهذه الخيرية والمعقولية . وكل فعل يؤدى عن طريق الالزام والاملاء ليس له أية قيمة أخلاقية أو عقلية. وفى ضوء هذا الاعتبار تتجه الدولة بالضرورة الى الهبوط بالمســتويات الخلقية والعقلية عند الأفراد الذين يخضعون لسلطانها . ومن ناحية أخرى نجد أن السلطة السياسية تؤدى الى تبديد القيم الأخــلاقية لدى من يشاركون فى أعمالها . فالمركز السياسى أو الادارى الذى يشغله الفرد من مراكز الدولة يخلق فى نفسيته شعورا بالسمو والعظمة لا يمت بأية صلة لطبيعته ولايقوم على أساس صحيح من حيث التمييز بين الأفراد أخلاقيا . هذا الى أن مثل هذه المشاعر التى تخلفها الوظيفة السياسية تطغى على عاطفتى التعاون والأخوة وتقيم قدرا من الامتيازات الصناعية وتوسع من الهوة التى تفصل بين طبقات الشعب وتضحى بمصالح الفرد الخاصة فى سبيل المصلحة العامة المزعومة . وعن هذا الطريق غير السوى تجعل الدولة من الأقلية مســتبدين وأنانيين ، ومن الأكثــرية خداما خاضــعين (١) .

(1) Coker: Recent political thought, p. 204.

والملكية الخاصة ، التى هى أساس وجود الدولة من ناحية ونتيجة لها من ناحية أخرى ، هى أساس الشرور المادية والأخلاقية . فهى تلقى بملايين العمال بين أحضان العوز الاقتصادى ، والعمل المضنى ،والجهل والجمود الروحى والاجتماعى وتزود القلة من الأغنياء بالنعيم المفرط ، وبالفرص الخاصة التى تتيح لهم الحصول على أوفر قسط من اللذة المادية والمتعة الفنية والعقلية .

والدين كذلك شر خطير لأنه يعمل على حماية نظم شريرة من ناحية، ويتعارض مع طبيعة الانسان الخيرة من ناحية أخرى . هذا ، الى أن الطبقة الممتازة سياسيا واقتصاديا مستغلة استغلالا دنيئا لحماية مايدعونه من سمو غير طبيعى . والدين من شأنه كذلك أن يصرف اهتمام الانسان ومجهوداته عن الشئون الهامة التى لاغنى عنها فى حياة الانسان الواقعية. وهو ينمى خيال الفرد وأوهامه وخرافاته وقابليته للاستهواء ، ويشل عقله عن التفكير الخالص ، ويفقده ميزة التبصر الحر . ولذلك ينبغى أن تحل المعرفة العلمية محل العقيدة الدينية ، وتحل العدالة الانسانية الحقة فى هذا العالم محل التصوير القائل بوجود عدالة الهية فى العالم الآخر .

ويرى « باكونين » أن أفضل الوسائل التى ينبغى الالتجاء اليها لتحقيق الأهداف الفوضوية هى التطور والثورة معا ، فللفوضوية أساليبها العلمية كما أن لها أساليبها الثورية . ويقصد باكونين «بالتطور» أن تيارات الحوادث والوقائع تنساب بشكل آلى نحو هدف الفوضوية ووظيفة الفوضويين هى أن يزيلوا مايعوق هذا التيار ، وذلك بالقضاء على جهل الناس بالقوانين الطبيعية التى يخضع لها التطور الاجتماعى، وبالقضاء كذلك على النظم الاجتماعية والسياسية التى تقف حجر عثرة فى سبيل هذا التطور . ويقصد باكونين « بالثورة الفوضوية » تقويض كل ما يفهم عادة من كلمة « النظام العام » وغنى عن البيان أن مثل هذا التقويض يتطلب كثيرا من وسائل العنف ولا يمكن تحقيقه عن طريق الاقتراع السرى (the ballot) ولا مناص من سفك الدماء نتيجة لحمق أولئك الذين سيحاولون فى تعصب مقاومة الثورة ؛ ونتيجة كذلك

لدوافع الانتقام الطبيعية التى ستدفع بالأفراد –عند بدء قيام الثورة– الى الأخذ بالثأر من الطبقة الظالمة المستبدة التى غلبتهم على أمرهم فيما سبق . وكان « باكونين » يتمنى عدم وقوع مثل هذه الحوادث الدامية ؛ غير أن الثورة الفوضوية يجب أن تنطوى على أقسى مظاهر العنف والقوة الضرورية لتسريح فرق الجيش والبوليس والغاء المحاكم وحل الجمعيات التشريعية والمصالح الادارية وهدم الكنائس وابطال جميع مظاهر الملكية الفردية .

ولكن اذا قضينا على الملكية الخاصة وعلى الدولة فما هى النظم التى تحل محلها ؟ يذهب « باكونين » الى أن الرفاهية الانسانية لا تتحقق بالصورة المنشودة بمجرد القضاء على السلطة السياسية وعلى نظام الملكية . لأن العلاقات الانسانية ومظاهر الحياة الاجتماعية فى حاجة الى تنظيم مستمر ؛ ولذلك كان يعارض من يناقشه مناقشة تفصيلية فى تنظيم مجتمع المستقبل . وكان يقول ان كل تقدم فى تطور الانسانية وكل تحرر للانسان من الخضوع لقوى بيئته الطبيعية ومن الاسترقاق لغرائزه الحيوانية سيؤدى ان آجلا أو عاجلا الى التعاون الوجدانى بين الرفقاء والى التضامن الاجتماعى بين مختلف الهيئات والجماعات .

فالحرية الانسانية اذن لا معنى لها خارج المجتمع ؛ لأن الحرية ليست مجرد تصور سلبى بمعنى أنها لا تدل فحسب على انعدام التحكم الخارجى فى امكانيات الفرد ؛ بل تدل أكثر من ذلك على قدرة الكائن العاقل على الاستجابة لدوافعه التى تميزه عن غيره من الكائنات . فحرية الفرد الحقيقية تقوم من ناحية على اعتراف الآخرين بهذه الحرية؛ وتقوم من ناحية أخرى ، على احترام مماثل من جانب الفرد لحرية الآخرين ، فالرجل الناسك وآكل لحوم البشر أو الرقيق لا يمكن اعتبارهم أحرارا من الناحية الأخلاقية « لأن الحرية ليست عزلة ولكنها تبادل ؛ وليست انفصالا ولكنها ارتباط واتحاد . وحرية كل فرد هى أن يرى صورة انسانيته ( أى صورة حقوقه الانسانية الطبيعية ) منعكسة فى شعور اخوانه »

Liberty is not a matter of isolation but of mutuality, not of separation but of Combination, for every man it is only the mirroring of his humanity in the Consciousness of his brothers.(1)

ويطلق « باكونين » على ذلك « مبدأ التضامن » وهو المبدأ الذى بفضله يشعر الانسان بكامل حريته حينما يرى الآخرين من حوله يتمتعون بنفس الحرية .

وهكذا أراد « باكونين » أن يقيم على أنقاض الدولة مجتمعا تختفى فيه جميع الطبقات وجميع مظاهر السلطة . ويسمح فيه لكل فرد بدون تمييز من حيث الجنس واللون والقومية والعقيدة أن يعمل وأن يتمتع بثمار عمله على أساس من المساواة . ويقوم هذا المجتمع الحر على أساس من التعاقد والتجمع الاختياريين ؛ على خلاف المجتمعات الموجودة القائمة على أساس من القانون والولاء الاجبارى . ويسير المجتمع الجديد على الدعائم الاقتصادية الآتية : يمتلك المجتمع نفسه الأرض وجميع مواد الانتاج وأدواته . ويسمح بامتلاكها لمن يعملون على انفراد أو يعملون فى هيئات تتألف تألفا حرا ويرغبون فى استخدام الأشياء المشار اليها بقصد الانتاج . وحينئذ يسمح لكل فرد بحرية التمتع بالمنتجات فى حدود خاصة ؛ غير خاضع لأى لزام سوى المساهمة بأعماله قدر طاقته فى جهود الانتاج . هذا ؛ ويمكن للجماعات أو الهيئات المحلية أن تندمج فى اتحادات اقليمية أوسع نطاقا على شرط ألا يكون هناك أى الزام فى أية مرحلة من المراحل . وليس من اللازم أن يقف التعاون عند الحدود القومية الراهنة اذ أن القضاء على الدولة معناه القضاء على الحدود السياسية كذلك . وفى هذا الصدد يقول « باكونين » سيكون ثمة اتحاد حر بين الأفراد لتأليف جماعات أو هيئات ؛ واتحاد حر بين الجماعات لتأليف أقاليم ؛ وبين الأقاليم لتكوين أمم ؛ وأخيرا بين الأمم لتكوين الولايات الأوربية المتحدة ؛ ثم بعد ذلك يتحقق اتحاد العالم كله » (٢) وسيكون لهذه الجماعات والهيئات

(1) Coker, Recent political thought p. 206, 207.

(1) Coker Recent political thought p. 296, 307.

الحرة نظام قانونى لا يستند الى جزاءات تأديبية ( أى لا يحتاج الى توقيع العقوبات على أفراد الجمعيات المشار اليها ) لأنه يتألف من قواعد ومبادىء يدرك الأفراد ضرورتها لدوام حياة المجتمع واستمرار نشاطه .

هذا هو النظام الأمثل الذى يضعه « باكونين » لقيام مجتمع فوضوى . وثمة نقطة يجدر الاشارة اليها وهى أن باكونين لا يرى فى هذا النظام صورة مثالية أفلاطونية لا يمكن تحقيقها فى واقع الأمر أولا يمكن تحقيقها الا فى المستقبل البعيد ؛ ولكنه يرى فى هذا النظام أهدافا واقعية يجب تحقيقها عاجلا . ويذهب به التفاؤل الى حد أنه يرى وجوب تنفيذها قبل نهاية القرن التاسع عشر . وكان يقول ان وظيفة هؤلاء الذين يتنبأون بمجرى التطور هى أن ينظموا الثورة ويعجلوا بها ؛ ومتى قامت فانها لا تبقى ولا تذر . وهذه الحالة تتيح الفرص لتنفيذ السياسة الانشائية المنشودة . ومما يعجل بحدوث الثورة نشر الأفكار التى تتضمنها مبادئنا السامية ثم التعليم والتنظيم . هذا ؛ الى أن سياسة القمع والكبت التى تسير عليها الحكومات القائمة تجعل من الضرورى تنفيذ الحركة الفوضوية عن طريق جمعيات سرية تتألف من الأتباع المخلصين . ولن يكون العمل الرئيسى لهذه الجمعيات ارتكاب أعمال الارهاب ؛ بل تحرير جمهور الشعب أولا من الأوهام الاقتصادية والسياسية والخرافات العالقة بأذهانهم بصدد هذه الأمور . والعمل على اثارة عواطفهم الطبيعية . وستؤدى هذه الجهود بصفة تلقائية الى تعاون فعال يقوم على البطولة ويؤدى الى قلب النظم القائمة التى ترتكز على دعائم واهية أساسها المخاوف التى لا يبررها العقل ؛ والعواطف التى تتنافى مع النظام الطبيعى . ومتى حققت الثورة ما تريده أمكن تحقيق النظام الفوضوى الأمثل وهو انشاء مجتمع يقوم على الترابط الحر والخير المتبادل .

* * *

## ٢ ـ كروبوتكين Kropotkin ١٨٤٢ ـ ١٩٢١

يعتبر كروبوتكين أهم دعائم النظرية الفوضوية ترك بحوثا تمتاز بروحها العلمية وأسلوبها الأخاذ وحيويتها . ولعل هذه الخصائص كانت سببا مباشرا في ذيوعها ؛ فأحدثت حركة فكرية واسعة النطاق . اذ توفر كثير من العلماء على دراستها وتحليلها وفهم مراميها البعيدة ؛ وتوفر آخرون على ترجمتها الى اللغات الحية ليسهل تداولها ونشر ما تنطوى عليه من نظريات خطيرة فى الفلسفة السياسية والاقتصادية . وأهم ما يجدر الاشارة اليه من هذه المؤلفات ما يأتى ( مترجما الى اللغة الانجليزية )

(1) Memoirs of a Revolutionist.
(2) The Conquest of Bread.
(3) The Place of Anarchy in socialist Evolution.
(4) Anarchist Communism its basis and Principles.
(5) Fields, and Factors, and Workshops.
(6) Mutual Aid, a factor of Evolution.
(7) Ethics, origin and Development.

أقام كروبوتكين مذهبة على دعائم تطورية وتاريخية . وكان شديد الايمان بأن منهج العلوم الطبيعية هو أفضل المناهج التى تؤدى بنا الى نتائج حاسمة فيما يتعلق بطبيعة الانسان وطبيعة المجتمع . ولذلك نبذ المناهج الفلسفية والميافيزيقية واستمد أفكاره من الحقائق المادية التى ينطوى عليها التطور الطبيعى للانسانية . وكان يعتقد أن قوانين التطور الطبيعى تصدق على الحيوانات وتجمعاتها وعلى الأناسى ومجتمعاتهم . لأن هذه القوانين هى التى تحدد بصفة أساسية مقدار الجهد الذى يبذله الكائن ليتكيف مع بيئته ؛ ومقدار ما يحصل عليه من تطور فى أعضائه وملكاته وعاداته حتى يتحقق الانسجام والتوافق بين الأفراد والجماعات وبين البيئات التى يعيشون فيها .

وتقوم نظرية كروبوتكين فى التطور على مبدأين أساسيين :

المبدأ الأول : ملخصه أن التطور الطبيعى الذى يخضع له الفرد والمجتمع لا يحدث عن طريق عملية من عمليات التقدم فحسب ؛ بل يتم

أحيانا عن طريق بعض التحولات الفجائية العاجلة التى تبدو لنا انقلابية أو هدمية لأن القوى الحيوية تعمل بطريقة منظمة فى المجرى الطبيعى لحياة الفرد . ولكن الارادة الانسانية حينما تتدخل فى هذه القوى تدخلا غير موفق ؛ فان نتائج هذا التدخل قد تزداد وتولد فى الفرد قوى المقاومة التى قد تبلغ بها القوة الى أن تنطلق آخر الأمر فى صورة مرض عضوى . غير أن هذا المرض ليس فى الحقيقة الا وسيلة ضرورية لاعادة العمليات الطبيعية الى مجراها الطبيعى المعتاد (Normal)

وهذا ما يحدث فى الحياة الاجتماعية . حيث نجد من ناحية تقدما بطيئا ثابتا يسير بالمجتمعات من الأشكال البسيطة الى التنظيمات العليا؛ ونجد من ناحية أخرى ؛ الحركات التقدمية الثورية السريعة . فقد تحدث معوقات مقصودة أو غير مقصودة تعترض السير الطبيعى العادى «normal» للمجتمع البشرى نحو تحقيق أهداف التطور الاجتماعى ؛ كأن يظهر قدر من الأفكار التقدمية التى لابد منها لاستمرار تقدم النوع الانسانى ؛ وكأن تحاول هذه الأفكار أن تتحقق بصورة فعلية فى حياة المجتمع . غير أن عقبات كثيرة تعترض سبيلها منها : كمون بعض الطبقات وعدم اكتراثها ؛ وكسل البعض الآخر وجهلهم بحقائق الأمور ؛ ومنها كذلك الأهداف الشريرة التى يسعى اليها من لهم مصلحة شخصية فى الابقاء على التقاليد القديمة والأوضاع القائمة . وفى مثل هذه الأحوال تصبح الحاجة ماسة الى قيام بعض الأحداث الجسيمة التى تحطم سير التاريخ العادى وتنتزع النوع البشرى من سراديبه القديمة الى طرق جديدة ولكنها مع ذلك تحتفظ للمجتمع بسيره الأساسى .

المبدأ الثانى : وهو أهم من المبدأ الأول ؛ وملخصه أن الدور الرئيسى فى أية عملية من عمليات التطور انما تقوم به صفات التعاون عند الحيوان والانسان باعتبارها صفات متمايزة عن صفات التنافس . وفى ضوء هذا الاعتبار يكون قانون التطور العضوى عند كروبوتكين هو قبل كل شىء قانون مساعدة متبادلة وليس قانون صراع .

«The law of orgnic evolution is Primarily a law of mutual aid not of conflict.

فالأفراد والأنواع التي يكتب لهـا البقـاء هي تلك الأنواع التي زودت بأقوى ملكات التعاون في صراعها ؛ فاستطاعت أن تكيف نفسها مع بيئاتها . وأما الأنواع التي تتغلب فيها صفات التنافس على صفات التعاون فانها صائرة لا محالة الى الفناء . وكلما ارتقت الأنواع كلمـا ارتقت قدراتها واستعداداتها على التعاون . وقد خصص كروبوتكـين كتابا كاملا للبرهنة على صحة هذه المبادىء عنوانه « المساعدة المتبادلة عامل من عوامل التطور » (1) والكتاب حافل بالأدلة المادية المستمدة على نطاق واسع من ملاحظة ودراسة أعضاء الحيوان وعاداته لاسـيما الحيوانات المتوحشة التي تعيش في سهول «الاستبس الروسية» حيث يحدث الصراع في بيئات شاذة ومسرفـة في العـداء . وقـد برهن « كروبوتين » على أن قانون المساعدة المتبادلة يظهر نفسه في الحياة الاجتماعية في صورة مبادىء المساواة والعدالة والتضامن الاجتماعي . وهذا القانون ليس شيئا آخر غير تلك القاعدة الذهبية التي تعتبرمطلبا جوهريا للوصول الى الغاية من التطور الاجتمـاعي ومؤداها : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به في حالة مماثلة . وعبارته هذا نصها :

«Do to others as you would have it done to you in like Gase»

ولكن ما هي العقبات التي تقف حجر عثر في سبيل تقدم المجتمع الانساني نحو أهدافه الطبيعية ؟.

يقول كروبوتكين انها الدولة والملكية الخاصة أولا ؛ ثم السـلطة الدينية التي تخدم وتحمي التحكم السياسي والامتيازات الاقتصادية .

فالدولة في نظره ليس لها أي مبرر طبيعي أو تاريخي ؛ لأنها بمـا تنطوي عليه من سلطات قاهرة تتعارض مع غرائز التعـاون التي فطر عليها الانسان . فهي تقوم على فرض خاطىء ملخصه أن دوافع التنافس وحب الذات هي الدوافع المميزة التي تسود بين الأفراد وأنه لا مناص

(1) Mutual Aid a Factor of Evolution (1902).

من الالتجاء الى القوة والقهر للابقاء على المجتمع والحرص عليه من خطر هذه الدوافع الانتهازية .

لقد عاش الناس أجيالا طويلة بدون قواعد مفروضة عليهم بشكل سياسي . والأصل التاريخي للدولة انما نشأ متأخرا نسبيا اذ أنها حلت محل الجماعات أو التجمعات الطبيعية الأكثر حرية التى قامت فى فجر الانسانية حيث كانت علاقات الأفراد تنظمها العادات والتقاليد التى يتعلمها الأفراد منذ عهد الطفولة كما يتعلمون الصيد والزراعة . ولم تكن القوانين فى أشكالها الأولى غير تلك العادات التى ساعدت على بقاء المجتمع ودواء استقراره . أما القانون الذى وضعته الدولة فانه لم يظهر الا حينما انقسم المجتمع بسبب الظروف الاقتصادية الى طبقات يناصب بعضها بعضا العداء ، ويسعى كل منها الى استغلال الأخرى . ولما تطورت السلطة السياسية وتقدمت أصبحت القوانين مجرد قواعد تؤيد العادات التى ثبت نفعها للطبقات الحاكمة ودعمت تفوقها الاقتصادي.وهكذا أصبحت القوانين فى العصر الحاضر عديمة الجدوى ولا ضرورة لوجودها من ناحية ؛ وهى تعتبر مصدر ضرر من ناحية أخرى . لأنها تشمل طائفتين . طائفة مستمدة من العادات والتقاليدالتى ثبت نفعها للمجتمع ؛ وهذه القوانين موضع الرعاية من جانب الأفراد دون حماية الدولة لها . وطائفة أخرى مستمدة من القواعد التى ثبت نفعها لأصحاب الملكيات الخاصة ؛ وهذا النوع من القوانين لا يخضع له الأفراد الا خوفا من السلطة التي تمارسها تلك الأقلية الحاكمة .

ويقول كروبوتكين ان التاريخ أثبت لنا عجز الدولة عن تحقيق أى هدف سام . فكل ما تحفظه حوليات التاريخ يدل دلالة لا يرقى اليها الشك على فساد النظام السياسى . فقد فشلت الدولة فى حماية الزارع والصانع والتاجر ؛ وجعلت من هؤلاء جميعا سلعا رخيصة تباع وتشترى فى أسواق الرأسمالية وكبار الملاك . وهى كذلك لم توفر الطعام للجائع، والكساء للفقير والمحتاج ؛ والعمل للمتعطل . هذا الى أنها لم تحافظ على حقوق الأفراد الطبيعية ، ولم ترع حرمة مساكن الأفراد وحرية

اجتماعهم وحرية النشر وما اليها . وفشلت الحكومة فوق ذلك فى تحقيق ما تدعيه من حرصها على حماية الأفراد فى الداخل والخارج . فالأفراد حينما يعملون بطريقة تلقائية يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ضد اللصوص والمعتدين . ويدلنا التاريخ على أن الجيوش المنظمة لا تقوى على مواجهة الجماهير الثائرة ؛ والحركات الشعبية أقدر على مواجهة الغزوات من أية قوة أخرى . ولم تستطع الحكومة حماية الأفراد من الأشرار فى داخل المجتمع ؛ فأثر السجون فى نشر الرذائل أكثر منه فى القضاء عليها . هذا ، وما تقوم به الحكومة من أوجه النشاط فى ميدان الأعمال الخيرية ونشر التعليم لايكون مبرر الوجودها؛ لأن الأفراد متى تحرروا من اعتمادهم على الغير من الناحيتين الاقتصادية والسياسية فان نشاطهم الاختيارى سوف يحقق لهم كل ما يحتاجون اليه فى التربية والتعليم وفى ضروب الخير والانعاش والرعاية الاجتماعية .

ويقول كروبوتكين ان هذه الحقائق تصدق كلها على جميع أشكال الحكومات . فالانتقال من الملكيات المستبدة الى الحكومات البرلمانية لم يؤد الى تغيير يذكر ؛ فى الدعائم الأساسية للدولة . والنظام النيابى الذى يقوم على الانتخاب العام ليس له من أثر يذكر فى الوقت الحاضر. لأن النواب الذين يعهد اليهم بتصريف أخطر شئون الدولة ؛ يختارون عادة من بين صفوف الشعب وهم غير مؤهلين للقيام بما يوكل اليهم من وظائف . هذا ، الى عدم المامهم بأصول المشاكل التى تعالجها الحكومات المتعاقبة . واذا كان هذا اللون من النظام السياسى قد أثار اهتمام العامة بما يثيره من مناقشات ؛ غير أنه لا يصلح أن يكون أساسا لمجتمع فوضوى ؛ لأن كل مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية تمتاز بلون سياسى خاص . فمن المستحيل أن نعدل أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة ؛ ( أى بالغاء الملكية الخاصة ) دون أن يصحب ذلك تغيير مطابق فى أساس التنظيم السياسى .

وبصدد الملكية الخاصة يقول كروبتكين انها بطبيعتها اعتداء على

العدالة . اذ فى ظلها يستولى اقلية من الناس على معظم المنافع التى تخلقها جهودا مشتركة بذلها كثير من الناس فى الأجيال الغابرة والحاضرة . ونظريته فى هذا الصدد تشبه نظرية « برودهون » . لأن منطق نظريتهما يؤدى الى القول بأن قيمة سلعة من السلع تعتبر ممثلة للجهود والأعمال التى آنجزتهاقرون سابقةبما فيها الاختراع والاكتشاف كما تمثل أوجه النشاط الحاضر التى تقوم بها جماعات مختلفة من الأفراد يدخل فى نطاقها كل من يخدم الصناعة بشكل مباشر وكل من يعد الآلات وكل من يبحث عن المواد الأولية وكل من يساهم فى عمليات الإنتاج « ان العلم والصناعة والمعرفة والتطبيق والكشف والتحقيق العملى الذى يؤدى الى اكتشافات جديدة ، كذلك الذهن والبدن وتشغيل العقل والعضل ؛ كل هذه الأمور تعمل معا وتتضافر جميعا . وكل اكتشاف وكل تقدم وكل زيادة فى الثروات الانسانية تدين بوجودها لما بذل فيها من أعمال جسيمة وعقلية فى الماضى والحاضر . فبأى حق اذن يستطيع أى فرد أن يستحوذ على أى جزء من هذا الكل الهائل ويقول هذا لى وليس لك ؟ » (١) .

وغنى عن البيان أن الظروف الاجتماعية الحاضرة هى التى تميط لنا اللثام عن فضائح الملكية الخاصة ونتائجها السيئة . فنلاحظ بين جموع الشعب فقرا وبؤسا وحاجة ؛ وملايين المتعطلين والمرضى ؛ وجيوشا جرارة من الأطفال الأبرياء الذين لم ينالوا حظهم من النمو الطبيعى والعقلى ؛ ونجد فوق ذلك ديونا طائلة للملاك فى ربقة هؤلاء المعوزين الكادحين . بينما نلاحظ بين القلة الغنية المنعمة المدللة اسرافا وصلفا وغرورا وفراغا يؤدى الى العبث والسعى وراء اللذات الدنيئة؛ واستهتار بشئون الصحافة واستغلالا لقدرتها على اشعال نيران الحروب. وكل هذه الظروف الاقتصادية ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظام السياسى الذى ليس له من وظيفة فى وقتنا الحاضر الا حماية نظام الملكية الخاصة وما تنطوى عليه من مفاسد وشرور (٢) .

(1). The Conquest of Bread. p. 9.
(2) Paroles d'un revolté p. 5, 6.

ومع أن كروبتكين كان شديد الاعتقاد فى أن التطور الاجتماعى يسير نحو هدف الفوضوية ، غير أنه لم يكن يعتقد أنه يمكن الوصول الى هذا الهدف بطريقة سلمية تدريجية ، بل يرى أنه لابد من الثورة حتى يتم التطور المنشود . وكان يعتقد أن انقلابا سيقع فى بلد من البلاد ثم ينتشر ويتسع نطاقه بحيث يصبح ثورة أوربية عامة قد تستمر من ثلاث الى خمس سنوات[1].وستكون الثورة فى مراحلها الأولى عنيفة هدامة يعزل زعماؤها الحكام الحاليين ، ويحطمون السجون والقلاع ، ومن ثم تعود روح التضامن والمساعدة المتبادلة الى الحياة . وفى هذا الصدد يقول « اننا فى حاجة ماسة الى عاصفة مروعة تكتسح هذا التعفن ، وينعش نسيمها النفوس الخاملة ، وتعيد للانسانية مبادىء انكار الذات والبطولة التى بدونها يشيخ المجتمع ويضعف ثم ينحل (٢) .

وبعد أن تتقوض دعائم السلطة السياسية يقوم الشعب بالاستيلاء على الملكيات الخاصة . فالفلاحون يطردون ملاك الأراضى ، والعمال يطردون أصحاب المصانع ، ومن لايملكون بيوتا صالحة للسكنى يحتلون الأماكن التى تتسع لسكناهم ومن ثم نبدأ فى بناء المجتمع الجديد الذى يقوم على «دعائم المذهب الفوضوى» ولا داعى فى مرحلة الانتقال هذه لقيام أية حكومة أو أية دكتاتورية . لأن هذا معناه موت الثورة فى مهدها « فاذا ما بدأ انحلال الدولة ، وأخذ جهاز القمع فى الضعف ، فان الجمعيات الحرة سوف تتألف بشكل آلى وحينما لايكون التعاون بين الأفراد مفروضا بالقوة تحت ضغط الحكومة فان الحاجات الطبيعية ستؤدى بهم الى التعاون الاختيارى .. قوض دعائم الدولة أولا ومن ثم يقوم مجتمع حر على أنقاضها » (٣) .

والصورة التى رسمها « كروبوتكين » لمجتمع المستقبل تشبه فى كثير من تفاصيلها الصورة التى رسمها باكونين . والدعامة الأساسية التى يقوم عليها هذا المجتمع هى حرية الأفرادفى الانضمام الى هيئات حرة .وتتكون

---

(1) Ibid, p. 90.
(2) Ibid, p. 342.
(3) Ibid, p. 116,117.

هذه الجماعات عن طريق التعاقد الارادي . ولا تستمد الجماعات الحرة قوتها واحترامها من قوة هذا التعاقد ولكن « من الحاجة الى التعاون الودي المتبادل » والشواذ الذين يعجزون عن الوفاء بالتزاماتهم يطردون من عضوية الجماعات . ومادام هذا النظام قائما على مبادىء الحرية والعدالة والمساواة فسيختفي الميل الى ارتكاب جرائم أو أفعال مشينة ضد المجتمع . وفي حالة وقوع مثل هذه الحوادث ، فان التأثير الخلقي وتدخل المشاركة الوجدانية قد يكفيان بطبيعة الحال للقضاء على هذه الحالات الجزئية واتخاذ مايلزم لرد الاعتبار . ومجالس التأديب أومجالس التحكيم التي تفصل في مثل هذه الأمور وفي المنازعات تؤلف على أساس ارادي كذلك حتى لاتنطوي بطبيعتها على أي مظهر من مظاهر السلطة القانونية والسياسية .

واذا ارتكب فرد جريمة خطيرة أو درج على ارتكاب جرائم كثيرة بدون أن يكون له من وازع ، فان القصاص الذي ينتظره هو الحرمان من الانضمام الى أية جماعة ، وللجمهور في مثل هذه الحالات أن يتدخل بالقوة لبتر العضو الذي ثبت فساده .

هذه هي أشهر الآراء التي نادي بها زعيما الفوضوية « باكونين وكروبوتكين » . وقد كان لها أثر كبير في الفكر المعاصر ، وأحدثت حركةفكرية واسعة النطاق في داخل أوربا وخارجها . فتتلمذ عليهما طائفة غير يسيرة من علماء العصر . غير أن رجال هذه الطائفة لم يضيفوا شيئا ذا بال على جوهر النظرية ، وكانت مهمتهم مقصورة على دراسة النظرية الفوضوية وتحليلها وشرح ماتنطوي عليه من مزايا . وأجدرهم بالذكر والتنويه : اليس ركلس وجان جراف وأميل جوتير في فرنسا ومالاتستا في ايطاليا وجولدمان في أمريكا (١) .

وكان من أثر هذه الحركة الواسعة النطاق أن انتشرت النظرية الفوضوية بين طبقات العمال في أنحاء أوربا وأمريكا . وساعد على

(1) Elisée Reclus ; Jean Grave ; Emile Gautier ; Enrico Malatesta Lmma Goldman.

انتشارها أن طائفة من رجال الصحافة انضموا الى أنصار هذه النظـرية وأخذوا يدافعون عنها وينشرون أنباء مثيرة عن مدى انضمام العمال الى صفوفها . هذا ، الى قيام اتحادات ونوادى قوية تعمل على نشر الدعوة وترسم سرا الخطط التى ترمى الى قلب نظم الحكم والقيـام بالثورات المفاجئـة (١) .

***

### ٣ ـ تلستوى Tolstoi

انحرفت طائفة من الفوضـويين عن المبـادىء التى أعلنها باكونين وكروبوتكين لما تنطوى عليه آراؤهما من استعمال العنف والقسوة فى تحقيق الأهداف المنشودة ولأنهما يفضلان القيـام بالثورة والعمـل المبـاشر .

وأشهر رجال هذه الطائفةالفيلسوف الروسى «تلستوى «Leo Tolstoi» وهو أشهر المفكرين الروسيين الذين ظهروا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأرجحهم عقلا ، وأكثرهم اتزانا ، وأرقهم عاطفة وانسانية . وهو فوق ذلك من كبار الأدباء الذين ظهروا فى العالم حديثا. ترك بحوثا كثيرة وقصصا ممتعة . وكتاباته كلها تنطوى على أسمىالمعانى وأنبلها . فقد كان يـكره الحياة المليئـة بالمتعة واللذات ، وكان يـكره السفسطة والجدل العقيم ، وكان يكره الظلم والاستعباد ، وكان دائمـا يمجد العمل الحر الشريف ويدعو الى الحياة البسيطة الهادئة .

وتعرف نظرية « تلستوى » «بالفوضوية المسيحية » وليس معنىذلك أنه أقام مذهبه على أسس مسيحية ، ولكنه شرح الفوضوية فى ضوء شرحه وتفسيره لدعائم المسيحية كما تبدو له ، لأنه لم يؤمن بصحة ماقاله رجال الدين المسيحى . فقد رفض مثلا فكرة الثالوث المقـدس وفكرة تقديس المسيح وتأليهه ، ولم يؤمن بخلود النفس ، ولكنه ظل مع ذلك مسيحيا فى تعاليمه ومبادئه الأخلاقية .

---

(١) اقرا تحليلا ونقدا مفصلا للمذهب الفوضوى فى كتابى « النظـريات والمـذاهب السياسية » الطبعة الثانية ١٩٥٨ ( مطبعة لجنة البيان العربى ) .

وقد عرف المسيحية بأنها بكل بساطة مجموعة من التعاليم والقواعد الأخلاقية التى فى ضوئها يصل الفرد الى الحل المطابق السليم للمشاكل التى يصادفها فى سلوكه مع الآخرين ، أى أنها ترسم الطريق الحق لما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين الأفراد . ويقول ان تعاليم المسيح تؤدى الى أن أفضل المبادىء وأكثرها معقولية هو مبدأ انكار الذات بما ينطوى عليه من مبدأ التضحية براحة الانسان فى سبيل راحة الآخرين، والضغط على نزعاته الحيوانية الخالصة فى سبيل منفعة الآخرين ، والنزول عن حقه فى امتيازات معينة فى سبيل رفاهية الآخرين ، والتضييق على نفسه فى وسائل العيش وعدم الاغراق فى مظاهر الترف فى سبيل أن ينال الآخرون حقهم فى أن يعيشوا ويسعدوا .

وفى ضوء هذه الاعتبارات فالدولة والملكية الخاصة لايمكن أن يتفقا فى وجودهما مع التعاليم المسيحية الحقة .لأن الدولة تقوم على القوة والسلطة وتنفذ مشيئتها عن طريق القوة المسلحة وفرق الجيش والبوليس، وهؤلاء قد دربوا على القتل والتنكيل . وهذه الأمور تخالف ما قاله السيد المسيح «لاتقاوم الشر بالقوة» . وفيما يتعلق بنظام الملكية نجد أنه يبيح للقلة أن يثروا ويتمتعوا بالنعيم والخيرات التى تعتبر ثمرة الجهود المضنية للسواد الأعظم من الشعب الكادح الفقير ونظام هذا شأنه يتنافى بطبيعته مع مادعا اليه السيد المسيح من الزهد فى الثروة والاحسان الى المحتاج والدعوة الى الأخوة الانسانية . ولم يرسم لنا « تلستوى » صورة لمجتمع المستقبل كما فعل باكونين وكروبتكين « فالمستقبل هو مايرسمه الأفراد وما تؤدى اليه الحوادث » (1) غير أنه نبه كثيرا الى عدم استعمال القوة والعنف فى تغيير مجرى الحوادث أو فى قلب النظم القائمة ، لأن النظرية المسيحية تنهى عن استعمال القوة فى أية صورة من صورها . هذا الى أن الانقلابات والثورات والدسائس لاتترك وراءها الا الحكومات المستبدة الغاشمة . ولذلك فان أفضل السبل التى ينبغى الالتجاء اليها لتحقيق مجتمع المستقبل تتلخص فى

---

(1) Tolstoi : The Kingdom of God within you p. 326.

تنوير الأذهان ، وغرس التربية الفاضلة فى قلوب النشء ، والعمل على يقظة ضمائر الأفراد لكى يعيشوا وفقا لمبادىء الحب والمساواة ،ودعوتهم الى رفض الأوامر التى تتعارض مع تعاليم المسيحية . ولابأس كذلك من دعوتهم الى مزاولة المقاومة السلبية والامتناع عن دفع الضرائب وتأدية الخدمات العامة اذا حزب الأمر .

غير أن هذه الأمور وما اليها ، تعتبر وسائل بطيئـة غير فعالة ولا تؤدى الى الغرض المنشود وليس لها من أثر عاجل فى معالجة المعتـل من الشئون . هذا فضلا عن أنها توقع بالأفراد الذين يلجأون الى المقاومة السلبية السلمية ضروب العقاب وألوان العذاب مادامت الدعائم التى تقوم عليها السلطة السياسية قوية سليمة لم تمس . ولهذا أخفقت جهود «تلستوى» السلمية . وكان النصر حليف دعاة القوة والعنف ، ومن ثم اجتاحت الثورة الحمراء روسيا القيصرية .

*** 

### ٤ ـ جاك نوفيكوف Jacques Novicow

ولد عام ١٨٤٩ وتوفى عام ١٩١٢ قدم وهو صغير الى فرنسا فأتقن الفرنسية واستعملها فى الكتابة . ولعل الفترة التى قضاها فى فرنسا جعلته يتأثر بأفكار غرب أوربا . ولذلك نجد أن كثيرا من آرائه تعكس لنا التيارات السياسية التى كانت تسـود هـذه المنطقة . ويبدو ذلك واضحا فى نظرياته ضد النزعات الحربية (antimilitarism) وهجومه على سياسة بسمارك المعروفة بسياسة الدم والحديد ، كما يبدو كذلك فى تأييده للاتجاه نحو فكرة العالمية أو الدولية أى اخضاع دول العالم لسياسة عالميةموحدة (Cosmopolitanism) ، ودعوته الى ضرورةالتمثيل والتكيف الثقافى بين الأفراد قبل تمثيلهم فى وحدة سياسية .

وكان نوفيكوف عالما مدققا تغلب عليه الصفة العلمية ولو أنه مزج بين العلم والسياسة وجعل قضاياه العلمية فى خدمة أفكاره السياسية .

ويؤثر عنه أنه كان عدوا للدكتاتورية فى كل مظاهرها وشتى صـــورها، وكان يحارب بقسوة كل شكل من أشكال الطغيان وكل ألوان الضغط أو الحجر على عقل الانسان وحرياته ، ونصب نفسه مدافعا عن العدالة والاعتدال والتعاون والأخاء . وقد شبه النقاد منزلته بين مواطنيه بصدد وصاياه وتعاليمه ، بمنزلة الزعيم والفيلسوف « جفرسون » فى أمريكا.

وينسب نوفيكوف الى المدرسة الدارونية ومدرسة الصراع والقوة ولو أنه يختلف الى حد كبير عن دعاة هذه المدارس كما سنفصل ذلك فيما بعد . وعالج فى ثنايا مؤلفاته القيمة طائفة لاحصر لها من النظـــريات الاجتماعية بطريقة تحليلية وضعية تجعلنا لانغفل مركزه الممتاز على الخط النظرى الذى يربط بين فلاسفة الاجتماع الكبار . والى القارىء أهم الموضوعات التى عالجها هذا المفكر .

أولا ــ نظريته فى علم الاجتماع وحقائقه

علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس المجتمع . والعلوم الاجتماعية الخاصة هى فروع تابعة للعلم وملحقة به . وتحت تأثره بنظريات التطور وتنازع البقاء يقرر أن هذا العلم يرتكز بصفة أساسية على قوانين علمى الحياة والنفس ، وأهم الروافد التى تغذيه بحقائق اجتماعية هى علوم الاقتصاد والسياسة والقانون .ويرى أن هذا العلم حتى عهده لايزال فى مرحلته المتيافيزيكية ، ولن يصل الى مرحلة أسمى الا اذا ارتكز عـــلى المناهج الاستقرائية التى استخدمت بنجاح فى العلوم الطبيعية وهى مناهج محسوسة ومضبوطة . وعندما يصل الى هذه الدرجة المرموقة سيصبح أهم علم يوجه الســـلوك الانسانى والنشاط السياسى توجيها ســـويا .

أما المجتمع الذى يتخذه العلم موضوعا لدراساته ، فهو حقيقة حية وضعية . وفى هذا الصدد يقول ان مجرد اتصال مجموعة من الأفراد لايكون مجتمعا ، فلا بد من وجود علاقات وآثار متبادلة بين الوحدات الاجتماعية المختلفة . وتبدأ هذه الآثار والعلاقات المتبادلة بين العناصر

الكيميائية فى العالم غير العضوى ، وتمر بدرجات من القوى بين الخلايا الحية فى العالم العضوى ، ثم تتطور الى علاقات محسوسة فى عالم الحيوان والانسان ، وتبدو أكثر تطورا فى ظواهر تقسيم العمل فى عالم الانسان أى فى المجتمع .

ومن وجهة النظر المورفولوجية يمكن تعريف المجتمع « بأنه جماعة من الكائنات الحية ، يبدو الواحد منها مميزا فى ذاته ومنفصلا عن الآخرين » ومن وجهة النظر الوظيفية يمكن تعريفه « بأنه جماعة من من الأفراد مرتبطون فيما بينهم بعلاقات حيوية قائمة ومستمرة » . ومن جهة النظر الفزيولوجية يمكن القول بأن كل مجموعة من الأفراد يمكن أن تتحول الى مجتمع منذ اللحظة التى تشعر فيها تلقائيا بقيام التضامن بينها ووجود علاقات قوية تربطها ببنى جنسها . أى أن قيام المجتمع يرتكز بصفة أساسية على الشعور بوجود النوع «Consciousness of Kind» وهى الفكرة التى أيدها المفكر الأمريكى «جدنجز Giddings».

ويميز «نوفيكوف» بين المجتمع والدولة والأمة . ويقول ان الدولة هى مظهر خاص من المجتمع تنطوى على تنظيمات معينة هدفها حماية المواطنين والرعايا وصون ممتلكاتهم والحرص على حقوقهم . وتختلف الأمة عن الدولة بصفة أساسية اذ أنها ترتكز على مقومات ودوافع نفسية وتراث ثقافى ورواسب اجتماعية أكثر من قيامها على المصالح المادية والحرص على الثروات الخاصة. ولذلك فان الأمة ثمرة راقية للتطور الاجتماعى وهى أسمى شأنا من الدولة وليست فى حاجة الى أن تصبح ذاتية مع الدولة بينما يوجد ميل فى تاريخ أوربا السياسى لمحاولة جعل الدولة ذاتية مع الدولة «One State; one Nation» اى ان الدولة بوصفها مركبا سياسيا لاتتكون الا من قومية واحدة ، لأن الملاحظ فى الماضى والحاضر ، أن الأمة الواحدة تكون موزعة على عدد كبير من الدول ، وأن دولة واحدة قد تنتظم قوميات كثيرة مختلفة فى مقوماتها وخصائصها

ودرس « نوفيكوف » القومية وناقش المقاييس المختلفة التى يمكن أن تكون امتحانا للقومية وابراز شخصيتها . وعرض فى هذا الصدد

للوحدة الاقليمية والتجانس العنصري واللغة المشتركة ، وتشابه النظم الدينية والطقوسية ، وتماثل النظم التشريعية ، وذاتية التاريخ المشترك، والتكيف والتطابق فى العادات والتقاليد والشعبيات . وبعد أن حـلل هذه العوامل وامتحنها وضرب أمثلة لها ، قرر أن ليس واحد منها أو كلها تعتبر مقومات لجوهر القومية ، انها جميعا عوامل هامة ومطالب أساسية لاغنى عنها لتطور القومية ولكن ينبغى أن نضيف اليهـا التضـامن والمشاركات الوجدانية والروابط السيكلوجية .

والقومية فى نظره ليست «كسبا مفاجئا» أو «حدثا سريع التكوين» انها ثمرة لتاريخ شاق ، ونتيجة لتطور طويل بعيد الغوص يستمد جذوره من روابط الاتحاد السياسى وتماثل الرغبات المادية والروحية والتضامن النفسى . وهى ظواهر لاتتحقق بالقدر الكافى الا بعد فترة طويلة من التكيف والتطابق والتمثيل . وهذه الحقيقة تبرهن على فشل المحـاولات الحمقاء التى يبذلها بعض رجال السياسة لارغام شعوب مختلفة عـلى الانضواء فى قومية أعم والخضوع لحكم سياسى معين مستخدمين فى ذلك وسائل الضغط والالزام والارهاب . فلاشك أن هذه المحـاولات اليائسة لاتتفق مع طبائع الأشياء .

وانتهى من تحليله لفكرة الأمة الى القول بأنها أهم عامل فى التقدم الاجتماعى وهى أسمى شأنا فى تاريخ الحضارة من الدولة التى تنتهى فى آخر تحليلها الى « جمع مسرف من حفظة الأمن » .

وفى تحليله لفكرة « الدولة » درس مقوماتها الأساسية من حيث : الاقليم والسكان والسـيادة والتنظيم الحـكومى . وقارن بينها وبين الحكومة من حيث الشخصية القانونية والوضع الاجتمـاعى والناحية الوظيفية . وتكلم عن تطور الدولة من دولة المدينة ، فالدولة القومية ، ثم الدولة الاقليمية ، ودرس علاقة الدولة بما عداها وجاءت دراسـاته فى هذا الصدد قريبة الى حـد كبير من مبادىء القـانون الدستورى والقانون الدولى العام .

ثانيا ـ أشـهر مؤلفاته :

١ ـ الكتاب الأول : السياسة الدولية ونشره عام ١٨٨٦

La Politique Internationale

وهو أول كتاب يعرض بصـورة منظمة الأفـكار المتصلة بالتنظيم السياسى الدولى ، ومحاولات تحقيق « الاتجاه نحو العالمية » وقيـام عصبة أمم منذ عصر دانتى الى زمانه . وخصص الجزء الأول من كتـابه لتحليل طبيعة الحياة الاجتماعية ومقوماتها العضوية ، وتحليل طبيعـة العلاقات المتبادلة . وخصص الجزء الثانى لدراسة مظاهر الصراع بين المجتمعات الانسانية وجاء هذا الجزء تمهيدا لمؤلفه الكبير « الصـراع بين المجتمعات الانسانية » . وعالج فى الجزء الأخير مشكلات التنظيـم السياسى الدولى . ويرتكز هذا التنظيم على نظريته فى الصراع العقلى الذى هو نهاية المطاف من مختلف مظاهر الصراع . فحيث تتحقق فكرة قيام «اتحاد دولى فدرالى» تختفى مظاهر الصراع الطبيعى (أى الحروب) وتحل محلها مظـاهر الصراع العقلى التى تعبر عن أسمى انطـلاقات الجنس الانسـانى .

٢ ـ الكتاب الثانى : مظاهر الصراع بين المجتمعـات الانسـانية وأدوارها المتعاقبة ( نشرة عام ١٨٩٣ ) .

Les Luttes entre sociétés humaines et leurs phases successives.

يعتبر هذا الكتاب عمدة مؤلفاته وأكثرها تركيزا وتصويرا لمذهبه . وأهم فكرة يرتكز عليها الكتاب هى أن التطور البشرى يتميز بمظـاهر « للصراع والوفاق «struggles and Alliances» تسير فى سـلسـلة متتـابعة الحلقات ومرت بمراحـل رتيبة هى على التعـاقب : المرحلة الفزيولوجية فالاقتصادية ثم السياسية وأخيرا المرحلة العقلية ، وتعتبر المرحلة الأخيرة أكثرها رقيا وسموا . ولخص « نوفيكوف » فى الجزء الأول من الكتـاب القضايا الرئيسية التى تنطوى عليها نظريته وأهمها:

١ ــ العالم ميدان صراع ومد وجزر بين شقاق ووفاق .

٢ ــ ان التنازع على البقاء ظاهرة كلية وعالميــة وقد مرت بأدوار متعاقبة : كيميائية وجرمية وبيولوجية واجتماعية .

٣ ــ يأخذ التنازع على البقاء بين النبات والحيوان مظهرين أساسيين هما : الامتصاص والافناء .

٤ ــ يمكننا أن نميز في عالم الحيــوان مظاهر للصراع الاقتصادى والعقلى .

٥ ــ ان النتيجة النهائية للتنازع على البقاء هو التكيف بالبيئة .

٦ ــ ان التقدم بكل بساطة هو التعجيل بعملية التكيف والتطابق.

هذه هى القضايا الأساسية التى في ضوئها يحلل مظاهر الصراع البشرى الأربعة : الفزيولوجى ، والاقتصادى ، والسياسى ، والعقلى .

ويقول « نوفيكوف » أن كل نوع منها يبدو فى مظهرين مختلفين: مظهر تلقائى بطىء ، ومظهر أكثر تقدما وتغيرا وسرعة . وبمعنى آخــر تمر كل مرحلة صراع تحت صــورتين : صــورة غير عقلية ، وصورة عقلية .

ففى مجال الصراع الفزيولوجى يمكننا أن نميز بين المظهر البطىء غير العقلى كما فى حالة قتل الأفراد للحصول على طعام ، وبين المظهــر السريع العقلى كما فى حالة استخدام الأنواع الدنيا من الكائنــات فى الحصول على الغذاء وابتكار وسائل صناعية لزيادة موارد انتــاجية للغذاء . والغاية من هذا الصراع الفزيولوجى فى مظهريه هى الحصول على مزيد من الغذاء .

وفى مجال الصراع الاقتصادى والمظاهر البدائية للصراع السياسى نجد أن صورته التلقائية البطيئة تتمثل فى تهديد أو قتل الغير للاستئثار بثروته ، وفى القيام بهجمات خاطفة للسرقة والحصــول على الثروات والارقاء ، وفى اغتصاب الأراضى والمساكن ، وفى استرقاق المواطنين

المغلوبين على أمرهم واستبعادهم فى خـدمة أغراض اقتصـادية . أما الصورة العقلية لهذا الصراع فتتمثل فى زيادة ينابيـع الثروة وتدعيم عناصر الانتاج والعمل زيادة وفتح أسواق جديدة والدخول فى تنافس مشروع وقيام حكومة مستنيرة تعتبر نمـوا ارتقائيا للحيـاة المدنية . والغرض الذى يهدف اليه الصراع الاقتصادى بمظهريه هو الحصـول على الثروات .

وفى مجال الصراع السياسى تتمثل صورته التلقائية البطيئة فى تهديد المواطنين للحصول على امتيازات وحقوق سياسية سامية ، وفى اخضاعهم للغزاة وفى تحقيق مطالب هؤلاء الغزاة من حيث السيطرة السـياسية والاستعلاء على الآخرين . أما صورته العاقلة فتتمثـل فى نشر المثـل السياسية بين الشعوب المختلفة المتجاورة ، والدعاية للمذاهب السياسية والتصورات والمبادىء السياسية ، ورسم الخطط لتحقيق تبعية بعض الوحدات السياسية أو توسيع مناطق النفـوذ ، وتشكيل الاتحـادات والمنظمات السياسية وما اليها . ويهدف الصراع السياسى بصورتيه الى حماية المواطنين فى الداخل ومن أخطار الغزو الخارجى ، وتأمين الثروات القومية والخاصة ، وحماية حقـوق المواطنين من العـابثين والعصاة ، وتحقيق المطالب والنزعات القومية .

وفى مجال الصراع العقلى ، وهو نهاية المطاف من مختلف مظـاهر الصراع البشرى ، فنجد أن مظهره البطىء غير العقلى يتمثل فى تعذيب الأفراد والتنكيل بهم ومحاولة فرض مجمـوعة من الآراء والأفـكار والمعتقدات على عقولهم كما يحـدث فى عصـور الاضطهاد الفكرى والمذهبى والدينى ، وكما يحدث فى الحروب الدينية وصراع اللغـات والحضارات ، ومحاولة فرض أساليب خاصة فى التفـكير والعمل على الدول المغلوبة على أمرها ، واتخاذ أساليب شـاذة لاذابة القـوميات وتحليل مقوماتها والعمل على افنائها فى قوميات أخرى . أما النـاحية السوية لهذا الصراع فتبدو فى نشر حرية الفكر والعلم والدين ، وحرية النشر والكتابة والقول والاجتماع ، والعمل على التقـارب الفـكرى

والثقافي والحضارى بين شعوب العالم ، وتوهين الفواصل اللغــوية والدينية والمذهبية للوصول بالانسانية الى قيم متماثلة ورأى عام عالمى متحرر . والغرض الفذ الذى يرمى اليه هــذا الصراع بمظهرية هــو تحقيق المطــالب العقلية والمذهبية بمختلف مظاهرها تحقيقــا متحررا ومتــكاملا .

٣ ــ الكتاب الثالث : مظاهر الفوضى فى المجتمعات الحديثة
Les Gaspillages des Sociétés modernes

خصص هذا الكتاب للكلام عن مظاهر الفوضى والانحلال فىالمجتمع الحديث . وردها الى الاسراف فى نفقات ومطالب التســلح والدعاية الحربية ، والرغبة فى تحقيق الزعامة العسكرية ، وتدخل الحكومة فى المسائل الاقتصادية تدخلا ارتجاليا ، وقيامها بمشروعات مسرفة طفرية .

٤ ــ الكتاب الرابع : الحرب وفوائدها المزعومة ونشره عام ١٨٩٤
La Guerre et ses Prétendus Bienfaits.

وتكلم فى هذا الكتاب عن الحروب وعرض وجهات نظر المؤيدين لها والمعارضين وفند ادعاءات وأحاجى هؤلاء وأولئك . وحلل ظاهرة الحرب ونتائجها من النواحى الفزيولوجية والاقتصادية والأخلاقية وختم كتابه بنقد الدارونية من الوجهــة الاجتماعية واعتبــرها تطبيقا خاطئا للدارونية البيولوجية على العمليات والعلاقات الاجتماعية . وحمل حملة بليغة على أنصار الدارونية وخاصة ( جمبلوفتش وارتزنهوفر ) بوصفهما أبلغ المؤيدين لهذه النظرية الاجتماعية .

٥ ــ الكتاب الخامس : اتحاد أوروبا اتحــادا فدراليا ونشره عام ١٩٠١ .

La Fédération de l'Europe.

خصص هذا الكتاب للدعوة التى طالما رددها فى كل كتبه وهى تحقيق الاتحاد الفدرالى بين دول أوربا . والكتاب أجزاء : درس فى الجزء الأول الاتحاد ومميزاته الاقتصــادية والســياسية . ودرس فى الجزء الثانى الصعوبات الأساسية التى تعترض طريق فكرة الاتحــاد

وأثار فى هذا الصدد اعتبارات كثيرة منها : الطمع فى التوسع الاقليمى والتفوق الحربى ، وأخطاء العسكريين ، والرغبة فى التوسع القـومى، واحتقار مبادىء العدالة الدولية ، والعداء العنصرى ، والنعرة القومية، والغرور القومى ، وقصور الجهاز الادارى ، والدور الذى تلعبه العناصر المحافظة ودعاة الرجعية . ودرس فى الجزء الثالث العوامل التى تساعد على تحقيق الاتحاد وناقش الاعتبارات الآتية : التنظيم الفنى للمسائل الاقتصادية والسياسية ، والحربية ، واتساع الأفق الثقافى والعقلى ، والدعاية لفكرة القومية الأوربية العامة ، والاتجاه نحو العالمية أوالدولية وفى الجزء الأخير درس الوسائل التى بفضلها يمـكن تحقيق الاتحاد المنشود ، ودرس مستقبل النظم الاتحادية ، ورأى ضرورة تماثل مواقف الدول بصددها .

٦ ــ الكتاب السادس : نقد الداروينية من الناحية الاجتماعية ونشره عام ١٩١١ .

La Critique du Darwinisme Social.

ناقش فى هذا الكتاب نظريات داروين الاجتماعية . نقد المـذهب الفردى والمذهب الحيوى وحلل أخطاء بعض علماء الاجتماع المتأثرين بالمدرسة العضوية فى المماثلة التى يعقدونها بين المركب الحيوى وجسم المجتمع ، وفى التطبيق المباشر للقضايا والقوانين البيولوجية على العمليات والعلاقات والوظائف الاجتماعية . والكتاب فى جملته تفنيد ونقد لنظريات داروين الاجتماعية ومناهج بحثه فى حقائق المجتمع البشرى وظواهره

٧ ــ الكتاب السابع : آلية وحدود الاجتماع الانسانى ( نشرة عام ١٩١٢ )

Mecanisme et Limites de l'Association Hamaine.

وهذا الكتاب هو آخر مؤلفاته وخاتمة نشاطه العلمى . وعاد فيه الى معالجة فكرة اتحاد العالم الغربى وبرهن على فساد الاعتراضات التى تثار ضد فكرة الوحدة . وقرر أن التقدم الاجتماعى فى كل المجـالات وتقدم العلاقات الدولية انما يرتكزان على فهم واضح لميكانيكية الاجتماع الانسانى . وأتى فى هذا الكتـاب بفكرة جديدة هى « التبادل »

ان التبادل هو الدعامة الجوهرية التى ترتكز عليها الحياةالاجتماعية وهو منبع هذه الحياة وطريقها الى التقدم . أما السلب والنهب فهـو ظاهرة تؤدى الى الجمود والموت . ويتضمن التبادل مظاهر كثيرة منها: تبادل سلع بسلع ، وتبادل سلع بخدمات ، وتبادل خدمات بخدمات ، وكل تبادل ينطوى على زيادة رفاهية الانسان وملذاته . وليس الاجتماع الانسانى هو وحده الذى يرتكز على التبادل ، فالحضارة ذاتها انما ترتكز عليه كذلك . وقد ساعدت وسائل المواصلات والنقل الآلى الى زيادة أسباب التبادل بين مختلف الحضارات . حتى اضحى من المستحيل وضع حدود لتقدم الاجتماع الانسانى . وبفضل التبادل استقرت الحياة الاجتماعية وقامت الدولة . اذ أصبح قيامها ضرورة يقتضيها « التبادل» وذلك للحرص على الملكية القائمة على أساس التبادل ، وتنفيذ وحماية العقود القائمة كذلك على التبادل ، وتحسين آلية وفنية وسائل النقل والمواصلات التى تتيح التبادل على أوسع نطاق . فالتبادل على هـذا النحو أكثر القوى الديناميكية فاعلية فى تكوين الدولة ، والدور الذى يلعبه فى حياة الدولة أهم وأخطر من الحروب .

ولايخلق التبادل الدولة ونظمها فحسب ، ولكنه أكثر من ذلك يمهد الطريق لاتحاد الدول . وليس أبلغ فى الدلالة على ذلكمن أن جميع الاتفاقات والمعاهدات الدولية ترجع الى ظروف التبادل . كما يبدو ذلك فى معاهدات تقسيم الحدود الاقليمية والمائية والجوية ، والاتفاق على تعريفة التلغراف والتليفون ووسائل البريد وماشابهها ، والاتفاقات التجارية والثقافية وتبادل المعونة والخبرة الفنية وما اليها .

### ٥ ــ دى روبرتى De Roberty

ولد عام ١٨٤٣ فى روسيا وتربى فيها وتلقى ثقافته على خيرةأساتذتها وتخصص فى الدراسات الاجتماعية النظرية وتعمق فيها حتى أصبح من علماء الرعيل الأول الذين حملوا لواء علم الاجتماع وأرسوا قواعده ومناهجه . تأثر فى شبابه بفلسفة أوجست كونت الوضعية وأصبح من دعائم المدرسة . ولذلك عندما نشر فى روسيا عام ١٨٧٦ كتابه « علم

الاجتماع » ذاع صيته وتوفر عالمان من أتباع « كونت »على ترجمته الى الفرنسية وهما « لتريه Littré » المفكر الفرنسي و «فيروبوف Viroubotf » المفكر الروسي المشهور . وكان هذان العالمان قد اشتركا كذلك في اصدار مجلة خاصة للدفاع عن فلسفة كونت الوضعية اسمها « مجلة الفلسفة الوضعية » .

غير أن « دى روبرتى » لم يستمر أمينا على مذهب كونت . فقد نقده وخرج على بعض تعاليم الأستاذ . وانتهى به الى وضع نظرية جديدة سماها « الوضعية الجديدة Neo Positivisme » وكتب بحثا خاصا شرح فيه أوجه الخلاف بينه وبين أوجست كونت عنوانه :

«لماذا لم أكن وضعيا ؟ Pourquoi je ne suis pas positiviste ?»

ولما أصبح مذكورا فى الأوساط العلمية ؛ سافر الى الخارج يدرس ويلقى المحاضرات فى كثير من الجامعات الأجنبية . ثم عاد الى روسيا عام ١٩٠٩ حيث عين أستاذا فى معهد الأمراض العصبية والنفسية بمدينة بطرسبرج واستمر كذلك الى أن أغتيل فى منزله بولاية Tverskaia عام ١٩١٥ .

وترك « دى روبرتى » ثروة علمية وافرة أجدرها بالذكر :

(ا) فى ميدان الدراسات الفلسفية .

١ ــ الفلسفة القديمة والحديثة
L'Ancienne et la Nouvelle philosophie

٢ ــ اللا معلوم L'Inconnaisable

٣ ــ فلسفة العصر La Philosophie de siécle

٤ ــ نظرية المعرفة Agnosticisme

٥ ــ البحث عن الوحدة La Recherche de l'Unité

٦ ــ أوجست كونت وهربرت سبنسر A. Comte et H. Spencer

٧ ــ فردريك نيتشة F. Nietzsche

٨ ــ مبادىء العقل وقوانين الكون
Les Concepts de la Raison et les Lois de l'Univers

(ب) فى ميدان الدراسات الاجتماعية :

| | |
|---|---|
| ١ ـ علم الاجتماع | La Sociologie |
| ٢ ـ علم الأخلاق | L'Ethique |
| ٣ ـ الروح الجمعية | Le Psychisme Social |
| ٤ ـ منهج جديد فى الاجتماع | Nouveau Programme de Sociologie |
| ٥ ـ علم اجتماع الفعل | Sociologie de l'action |
| ٦ ـ دستور الأخلاق | Constitutions de l'Ethique. |

وكان دى روبرتى عميقا فى تفكيره ، شاقا ومجهدا فى تحليله وعرضه للمسائل ، جافا فى أسلوبه . ولعل هذه الاعتبارات كانت سببا فى عدم ذيوع أفكاره وانتشارها وعدم شهرته بين علماء الاجتماع الذين ترددت أسماؤهم على ألسنة الباحثين وفى مؤلفاتهم .

ويمكننا أن نلخص القضايا العامة التى تنطوى عليها فلسفة « دى روبرتى » والتى انتهى اليها فيما يأتى (١) :

١ ـ يتكون العالم من مظاهر أساسية للطاقة . الطاقة الطبيعية الكيميائية ( اللاعضوية inorganic ) ، والطاقة الحيوية ( العضوية organic ) ، والطاقة الاجتماعية ( فوق العضوية Super organic )

٢ ـ الظواهر الطبيعية الكيمائية هى نتيجة أو مظهر لتداخل الخلايا وتفاعلها وتعقد آثارها المتبادلة ، والظواهر الاجتماعية نتيجة لتداخل وترابط الأعصاب المخية وتفاعل الخلايا العقلية وتعقد آثارها المتبادلة . وكل طائفة لاحقة من الظواهر تبدو فى صورة «تعقد نوعى» للطائفة السابقة .

٣ ـ ان الانتقال من طائفة الى أخرى كان تدريجيا ونسبيا . وهذه الحقيقية واضحة اذا درسنا تجريبيا الخط الذى يفصل بين المملكتين

---

(1) Sorokin ; Les Theories Contemporaines.

« اللاعضوية والعضوية » والحدود التى تفصل بين المملكتين « الحيوية والاجتماعية » .

٤ ــ تتميز ظواهر الحياة بظهور ما يمكن تسميته مبدئيا بالعمليات النفسية مثل : سرعة الانفعال ، والاحساس ، والمشاعر ، والعواطف ، والتخيل .

٥ ــ أما جوهر الظواهر فوق العضوية فهو « التفكير » والمعرفة المجردة . فان أسمى خواص هذه الظواهر هى الادراك والمقولات وقوانين العلم والمبادىء الكلية فى الفلسفة والدين والرمزية فى التصورات والفنون ؛ فهذه كلها مظاهر مختلفة للتفكير الاجتماعى أو المعرفة الاجتماعية . ولما كانت هذه المظاهر العقلية لا توجد الا بين الكائنات البشرية ، أصبحت هى الدعائم الجوهرية للحضارة الانسانية.

ان المظاهر العقلية التى أشرنا اليها انما تتجسد فى أسمى مظاهر الحضارة : فى العلم وفى الفن والجمال وفى التفكير التطبيقى وفى المعرفة القائمة على أساس القضايا والقوانين العلمية . انها تكون مملكة مختلفة تماما عن مملكة الظواهر الحيوية العضوية التى تتميز فقط بالظواهر النفسية المجردة . وان الشقة بينهما لا تقل شأنا عن الهوة التى تفصل بين الظواهر اللاعضوية والعضوية ؛ وبين هذه الأخيرة والظواهر فوق العضوية .

٧ ــ وما دامت الظواهر العقلية على هذا النحو ؛ فما هو اذن وجه أصالتها ؛ وأصل وجودها ونشأتها ؟ ولماذا كانت مقصورة على مملكة الانسان فحسب ؟؟.

٨ ــ انتهى « دى روبرتى » من تحليل الأسئلة التى أثارها الى وضع طائفة من « الفروض الحيوية الاجتماعية Bio-Social hypothesis فقرر أن العامل الأساسى فى ظهور ونمو التفكير فوق العضوى انما يرجع الى التفاعل الناتج من تداخل العلاقات والعمليات العقلية بين المركبات العضوية . وقرر أيضا أن أصل التفكير مزدوج : فيه جانب

بيولوجي خالص يبدو فى صورة العوامل الحيوية التى خلقت المركبات الحية الراقية المزودة بجهاز عصبى راق ومتطور ويستطيع أن يستقبل التفاعلات العقلية المتبادلة بين هذه الكائنات المتطورة . وفيه جانب اجتماعى خالص يبدو فى عملية التفاعل ذاتها ومبلغ انطباعاتها فى كل عقل فردى . وبدون هذا العامل لا يمكن لظاهرة التفكير أو المعرفة فى مختلف صورها أن تظهر وترسب فى الكائنات فوق العضوية مهما بلغت من السمو والتطور فى تكوينها البيولوجى .

٩ ــ ويسوق ( دى روبرتى ) طائفة من البراهين لتوضيح نظريته وتأييدها وذلك فى ضوء الاعتبارات الآتية :

( ا ) ان التفكير يختلف عن الظواهر والانفعالات النفسية المجردة فى أنه لا يمكن أن يوجد بدون لغة ؛ واللغة بدورها لا يمكن أن تظهر بدون مؤثرات عقلية دائمة ومستمرة . واذن فلا يمكن للتفكير أن يقوم بدون وجود هذه المؤثرات والتفاعلات المتبادلة بين هيئة المركب فوق العضوى . وهذه القضية تعزز ما نذهب اليه من أن اللغة مقصورة على الكائنات البشرية ؛ وكذلك ظواهر التفكير فانها مقصورة عليها .

(ب) ان ظواهر التفكير والمعرفة تختلف فى طبيعتها عن الاحساسات والصورة الفردية الخاطئة . وذلك لأنها ترتكز على الحق والصواب والدقة . فهى لا تنطوى على مجرد تصورات وتجارب فردية ومعلومات مشتتة ؛ انها ثمرة التجارب الاجتماعية فى أجيال عديدة ؛ وهى ثروة الانسانية خضعت فى تاريخها الطويل الشاق لامتحان مرير وتحقيق شاق . فكمل ما فيها من نقص ؛ وصحح ما شابها من خطأ .

فكل مظهر من مظاهر التفكير والمعرفة لا يمكن أن يكون دقيقا الا بعد خضوعه لتجارب الجماعة وامتحان الأجيال . والمجتمع هو الذى يصدر حكمه بالاستحسان أو الاستهجان ؛ بالقبول أو الرفض. أما أحكام الفرد فليس لها من الاعتبار والتقدير . وهذا يعنى من الوجهة المنطقية والواقعية أن الأفكار والظواهر فوق العضوية لا يمكن أن تقوم

وتتأصل الا بفضل تفاعل عقول الأفراد وتداخل آرائهم وتبادل وجهات النظر بينهم . وبدون ذلك لا يمكن أن تظهر . فكأن عامل « التفاعل والتداخل والآثار المتبادلة هو شرطها الضرورى والواقعى » .

(حـ) ان التقدم العقلى وتقدم التفكير والمعرفة أو بمعنى آخر تقدم الحضارة لا يمكن أن يكون ممكنا بدون « عامل التفاعل التداخل » وتبادل الآثار والآراء لأجيال عديدة . لأن التجربة الفردية مهما كانت صحيحة فى ذاتها ، اذا ظلت مغلقة بدون تداخل وتفاعل ، فانها سرعان ما تذوى وتنقرض . اذ كيف يتاح لها أن تنتقل الى فرد أو بضعة أفراد آخرين أو الى أجيال متعاقبة مالم يحملها عامل « التفاعل وتبادل الآثار » الى هذه الآفاق البعيدة ؟ وفى ضوء هذا التحليل فان نمو التفكير وتزايد المعرفة واستمرار جريان روافد الثقافة متوقف تماما على هذه الظاهرة الخطيرة .

( د ) من أهم مقومات وشروط العمليات النفسية الشعورية وجود مؤثرات عديدة مختلفة ومتغيرة . فاذا لم تكن هذه المؤثرات على هذا النحو ( كأن تكون على وتيرة واحدة مثلا ) تحولت من عمليات شعورية الى عمليات آلية لا شعورية . لأن الكائنات البشرية ، مثلها كمثل الكائنات الحيوانية الأخرى ؛ يمكن أن يصبحوا أو يعودوا الى كائنات غريزية بدون تفكير أو حياة عقلية . ولما كانت هذه الظاهرة لم تحدث فى تاريخ الحياة الانسانية ؛ فان ذلك يرجع الى الحياة الاجتماعية التى عاشها أسلافنا من البشر ؛ والى ظواهر التفاعل العقلى ؛ والآثار العقلية المتبادلة فيما بينهم ؛ والى تداخل المؤثرات وتنوعها وتغيرها على الدوام . هذا ؛ الى ظروف البيئة الاجتماعية التى تمتاز بطبيعتها الحركية والتطورية . فهى التيار المستمر والمعين الذى لا ينضب لخلق مؤثرات متنوعة وجديدة والعمل على زيادة تداخلها وتفاعلها . ومن ثم كانت هذه العوامل حائلا دون تحول العادات الاجتماعية الى غرائز ونكوص مظاهر التفكير الى مجرد ظواهر نفسية حيوية . بيد أن عمل البيئة الاجتماعية لم يكن مقصورا على أنها وقفت حائلا دون هذا

النكوص بل أكثر من ذلك حاربت الغرائز وأجبرت الكائنات البشرية على أن تبذل مزيدا من الجهد للتكيف بالمؤثرات التى تخلقها باستمرار، والتى تثيرها وتوقظها فيهم نظرا لتجدد وتنوع الظروف البيئية .

وينتهى « دى روبرتى » الى القول بأن البراهين التى ساقها تكفى للتدليل على أنه بجانب العوامل البيولوجية ؛ فان المؤثرات الاجتماعية وظروف البيئة شرطان ضروريان لظهور ونمو التفكير واطراد العمليات العقلية .

١٠ ــ ويستخلص (دى روبرتى) من هذا التحليل نتائج هامة وهى: أن الظواهر النفسية تعتبر نتيجة للمؤثرات الاجتماعية وليست سببا قائما بذاته . ولذلك فانه من الخطأ أن نحاول تفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق الظواهر النفسية . فان هذا الخطأ يشبه تماما الخطأ البالغ الذى نقع فيه عندما نفسر العلة عن طريق معلولاتها .

١١ ــ ويقول ( دى روبرتى ) فى ضوء الاعتبارات التى ذكرناها ؛ أنه يتفق مع أوجست كونت فى ضرورة الغاء علم النفس والحاقه بعلمى الاجتماع والبيولوجيا . فقد كان أوجست كونت فى تصنيفه للعلوم على حق فى أنه وضع علم الاجتماع بعد علم الحياة مباشرة وألغى علم النفس . وقسم ظواهره قسمين : ألحق بعضها بالدراسات البيولوجية وألحق البعض الآخر بالدراسات الاجتماعية . فالظواهر النفسية اذن يمكن بكل سهولة تفسيرها فى ضوء العوامل البيولوجية الاجتماعية ؛ أما ظواهر المجتمع فلا يمكن بحال أن تفسر فى ضوء العوامل النفسية لأن هذه الأخيرة ترد بكل بساطة الى البيولوجيا والفزيولوجيا وطبيعة الاجتماع الانسانى .

١٢ ــ يقول ( دى روبرتى ) ان علم النفس فى نظرى على فرض قيامه ؛ ليس علما مجردا عاما ؛ كعلمى الحياة والاجتماع ؛ ولكنه علم وصفى مادى يصف ويشرح عمليات نفسية مادية فى الانسان مستخدما فى ذلك حقائق علمى البيولوجيا والاجتماع . وهو فى طبيعته ووضعه العلمى

« علم الجيولوجيا » فانه كذلك علم وصفى مادى لا يتنــاول الا وصف الخواص الجيولوجية والنوعية لطبقات الأرض مستخدما حقائق علمى الطبيعة والكيمياء ؛ ومطبقا القوانين العامة لعلوم الميكانيــكا الطبيعية والحياة والكيمياء والطبيعة وما اليها .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ؛ ندرك الخط الواضح الذى رسمه ( دى روبرتى ) فاصلا بين علم النفس وعلم الاجتماع . وندرك أيضا اصراره على ضرورة تفسير الظواهر النفسية عن طريق القوانين والعوامل البيولوجية والاجتماعية . وتعتبــر هذه النقطــة مبــدأ جوهريا فى النظرية الاجتماعية . أما الظواهر الاجتماعية فلا تفسر الا فى ضــوء عوامل اجتماعية من طبيعتها ونوعيتها . أى أنه من الممكن تفســيرها فى ضوء تحليل عوامل « التفاعل والترابط وتبادل الآثار الاجتماعية» وهذه يمكن أن ترد الى انطباعات وانعكاسات وتجســدات ترمز الى المجتمع ذاته .

***

### ٦ ـ ماكسيم كوفالوسكى Maksim Kovalevsky

يعتبر العلامة «كوفالوسكى» أهم عالم اجتماع فى روســيا فى الفترة التى سبقت الثورة البلشفية . ولد فى ٢٧ أغسطس عام ١٨٥١ فى مدينة « خاركوف Kharkov » فى جنوب روسيا . وكان أبوه غنيا من أصحاب الاقطاعيات . درس فى مدارس بلدته وتخرج من كلية الحقوق بجامعة خاركوف عام ١٨٨٣ . وســافر بعــد ذلك الى غرب أوربا وقضى ثلاث سنوات فى برلين حيث تتلمذ على مشــاهير فلاسفة الألمان وقام فى هذه المدة بأسفار كثيرة تعرف فى أثنائهــا على أعلام الفلاسفة فى ذلك الوقت أمثال هنرى مين وهربرت سبنسر وســيمل وكارل ماركس . وعند عودته الى روسيا حصل على درجة الاســتاذية ( الماجستير ) عام ١٨٧٧ وعين بعدها مباشرة أستاذا بجامعة موسكو . وبعد ذلك بثلاثة أعوام حصل على درجة الدكتوراه . ونشر فى هــذه الفترة مؤلفات كثيرة أهمها :

١ ــ انحلال المجتمعات الزراعية فى اقليم فود بسويسرا ونشره عام ١٨٧٦ .

٢ ــ الادارة والتنظيم القضائى فى انجلترا ونشره عام ١٨٧٧ .

٣ ــ المجتمعات الزراعية ونشره عام ١٨٧٩ .

٤ ــ التنظيم الاجتماعى فى انجلترا فى أواخر القرون الوسطى ونشره عام ١٨٨٠ .

٥ ــ المنهج التاريخى المقارن فى دراسة الفقه ( وشئون القضاء ) .

ومنذ عام ١٨٨٦ كان يقضى فصل الصيف فى أودية القوقاز متوفرا على دراسة البيئة من الناحية الاتنلوجية والاجتماعية . وقضى فى هذه الدراسة ثلاث سنوات نشر فى أثنائها ثلاث مؤلفات وهى :

٦ ــ العادات الحديثة والقانون القديم ونشرة عام ١٨٨٦ .

٧ ــ القانون البدائى ونشره عام ١٨٨٧ .

٨ ــ القانون والعادات فى بلاد القوقاز ونشره عام ١٨٩٠ .

وبالرغم من أنه كان حر التفكير ومتحررا فى آرائه غير أنه لم يكن ثوريا . وركز محاضراته بجامعة موسكو فى القانون الدستورى وكان ينادى بأن الاصلاح الدستورى فى روسيا أمر لامناص منه وتقتضيه مطالب الوعى السياسى فى البلاد . بيد أن هذه الدعوة لم تقابل بارتياح من جانب المسئولين فى زمانه ولذلك فصل فجأة من الجامعة .

ولما كان ( كوفالوسكى ) على جانب كبير من الغنى واليسار ويعيش مستقلا وأعزب ، فقد آثر أن يترك البلاد وقصد الأوساط العلمية الحرة فى العالم الخارجى . وكانت هذه التجربة بالنسبة اليه سهلة لأنه يتقن طائفة من اللغات الأوربية كالانجلبزية والفرنسية والايطالية والألمانية. قصد أولا استوكهلم وألقى فيها محاضراته ثم استقر فى باريس وقضى فى فرنسا قرابة خمس عشرة سنة ولم يتركها الا لزيارة بعض

الجامعات أو للقيام بدراسات فى بعض المجتمعات المتخلفة. فكان أستاذا زائرا فى بروكسل واكسفورد وبعض جهـات أوربا ؛ وزار الولايات المتحدة مرتين . وعين فى عام ١٨٩٥ وكيلا للمعهد الاجتمـاعى الدولى وأصبح عميده عام ١٩٠٧ .

وكانت المدة التى قضاها فى باريس هى أزهى فترة فى حياته العلمية وأكثرها انتاجا حيث توفر على البحث والدرس . وقد أتيح له أن ينشر فى هذه الفترة ثلاثة من أهم كتبه وأكثرها تركيزا وهى :

١ ـ النمو الاقتصادى لأوربا حتى قيام الرأسمالية ونشره فى ثلاثة أجزاء عام ١٨٩٨ ـ ١٩٠٣ .

The Economic Growth of Europe up to the rice of Capitlaism

٢ ـ أصل الديمقراطية الحديثة . وجاء فى أربعة أجـزاء نشرت عام ١٨٩٥ ـ ١٨٩٧ .

The Origin of Modern Democracy

٣ ـ من الديمقراطية المباشرة الى الديمقراطية النيابية . وهو ثلاثة أجزاء ونشره عام ١٩٠٦ .

From Immediate to Representative Democracy

ونشر فى هذه الفترة كذلك مقالات كثيرة . ووضع كتابين فى النظم الروسية الغرض منهما أن يصف ويشرح هذه النظم للعلماء غير الروس وهمـا :

النظام الاقتصادى فى روسيا ونشره عام ١٨٩٨ .

النظم السياسية الروسية ونشره عام ١٩٠٢ .

ويبدو أن الأحداث السياسية التى عصفت ببلاده بين عامى ١٩٠٤ و ١٩٠٦ أتاحت له أن يعود الى أرض الوطن ويتابع نشاطه الجـامعى ودراسته الأكاديمية هناك . فعين أستاذا فى جامعة بطرسبرج ؛ ومحاضرا فى الاقتصاد بالمعهد الهندسى فى المدينة . ثم شغل كرسى الأستاذية فى

علم الاجتماع بمعهد الأمراض النفسية والعصبية الذى أنشأه العلامة «Bekhtereff» فى بطرسبرج .

وفى عام ١٩٠٦ أنتخب نائبـــا فى أول مجلس نيـابى عن دائرة « خاركوف » وهى مسقط رأسه ؛ بيد أنه لم يفز فى انتخابات الدورة الثانية . ولكن الحكومة كافأته بأن اختارته أحد الممثلين الستة الذين يمثلون الجامعات الروسية فى مجلس الدولة ( وهو المجـلس الروسى الأعلى ) وقد بذل فى هذه الفترة جهدا شاقا فى النشاط التشريعى هذا بالاضافة الى رئاسته لكثير من الهيئات العلمية والمؤسسات الخيرية .

بيد أن هذه المسئوليات والمهام على خطورتها لم تجعـله يعتـزل نشاطه العلمى . فظل دائب الدرس والبحث والانتاج . وركز اهتمامه فى أخريات حياته فى علم الاجتماع . وكان هذا الاهتمام تتويجا لحياته العلمية الطويلة التى كرسها لدراسة مختلف مظاهر النشاط الاجتماعى. وفى عام ١٩٠٥ نشر كتابا عنوانه «علماء الاجتماع المعاصرون» والكتاب فى مجموعه عبارة عن شرح وتحليل ونقد النظريات الاجتماعيـة حتى عهده . وابتدأ منذ عام ١٩١٠ فى نشر كتابه « علم الاجتماع » وجاء فى أربعة أجزاء . وأخذ منذ عام ١٩١٣ ينشر بالاشـتراك مع العـلامة « سروكن » وآخرين سلسلة من المقالات العـلمية عنوانهـا « أفكار جديدة فى علم الاجتماع «New Ideas in Sociology» »

ومنذ عام ١٩١٤ اعتلت صحته وزاد عليه مرض القلب فقصـد كارلسبارد ومدن النمسا للعلاج ولما قامت الحرب العالمية الأولى اعتبر أسيرا مدنيا وقد تم اطلاق سراحه بفضل تدخل بعض أصدقائه البارزين أصحاب النفوذ السياسى . وقد أسهم الرئيس ولسن فى تخليصـه من براثن الأسر . غير أن موته كان متوقعا لاشتداد وطأة المرض عليـه . وسرعان ما لقى حتفه فى ٢٣ مارس عام ١٩١٦ . وكان تشييع جنازته حدثا قوميا فقد خسرت روسيا بوفاته عالما ضالعا من أفلاذ أكبـادها المخلصين للعلم . وقد خلدت الهيئات العلمية ذكراه . فنشرت فى العام

التالى لوفاته كتابا يعرض تاريخ حياته ومؤلفاته ونظرياته مع مقدمات وشروح وتحليل لبعض مواقفه العلمية عنوانه (١)

A symposium In Memorian of M. M. Kovalevesky

## أشهر نظرياته

### أولا — رأيه فى علم الاجتماع

عرف علم الاجتماع تعريفات كثيرة واستقر أخيرا على تعريفه « بأنه علم التنظيم والتغير الاجتماعى » وأهم ما يعنى به العلم هو دراسة العقلية الجمعية فى علاقتها الوثيقة بالتنظيمات والتطورات الاجتماعية . ومنهجه فى هذه الدراسة هو تجريد الحقائق الكلية من الجزئيات المحسوسة وابراز القوانين العامة والقضايا الجوهرية التى يرتكز عليها الاستقرار والتغير الاجتماعى .

وهو بصدد دراسة موضوع العلم ؛ يقارن بين التطور والتقدم ؛ وبين التنظيم والنظام . فيقول انه من المستحيل أن نقرر أن التطور يهدف دائما الى علاج الأمراض الاجتماعية وتحقيق الاصلاح المنشود وزيادة الرفاهية والانعاش الاجتماعى . فليس ثمة تلازم بين التطور والتقدم . وكذلك من الخطأ أن نقرر أن كل تنظيم هو نظام ؛ فليس ثمة نظام فى روسيا القيصرية .

ويحدد ( كوفالوسكى ) ميدان علم الاجتماع بالنسبة للعلوم الاجتماعية الخاصة فهو العلم الكلى العام وهى فروعه . وهو بهذه الصفة لا يستعير مبادئه وقضاياه من هذه العلوم الجزئية ؛ بل بالعكس هو الذى يعينها على الاستقلال وبدعم مباحثها بما ينتهى اليه من قوانين أكثر عمومية . غير أنه يعود اليها من حين لآخر وذلك بقصد الانتفاع بآخر مظاهر التغير والتطور فى أهم القطاعات الاجتماعية مثل الدين والقانون والاقتصاد والسياسة والفن والجمال . أى أن العلوم

---

(1) Barnes, Introduction to the history of Sociology p 444.

الاجتماعية الخاصة بالرغم من أنها تمد علم الاجتماع العام بمادة زاخرة تخدم غرضه التركيبي العام ؛ فهي في الوقت نفسه ترتكز على القوانين الاجتماعية العامة وترسي حقائقها على المبادىء والتجارب والتعميمات التي يصل اليها علم الاجتماع من دراسة ظروف الحياة الاجتماعية ومبلغ تقدمها (١) .

ويرى أن علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي يستطيع كشف قوانين التقدم الاجتماعي ومظاهر هذا التقدم ؛ ويستطيع كشف العلاقات المتبادلة بين مختلف هذه المظاهر سواء في مجتمع واحد أو بين مجموعة من المجتمعات المتباينة في مقوماتها وخصائصها . وهو العلم الذي يرشدنا الى أن النظام غير ممكن بدون تقدم ، وأن التقدم هو عبارة عن تغيرات تاريخية ايجابية في البنيان الاجتماعي والاقتصادي . وهو العلم الذي يصور لنا نمو الشعوب ومبلغ ما تخطوه من وثبات.

وأخيرا ان علم الاجتماع هو وحده العلم الذي يستطيع أن يضع لنا المعايير الموضوعية لتقييم القانون الوضعي وتقدير أهميته (٢) .

ثانيا ــ التطور الاجتماعي :

درس ( كوفالوسكي ) موضوع التطور وحدد مراحل التطور الاجتماعي وحاول الوصول الى القوانين الذي تنتظمه ووضع قواعد المنهج الذي يجب أن تتبع بصدد هذه الدراسة . وقرر أن الدراسة التاريخية المقارنة ضرورية للوصول الى هذه القوانين . اذ بفضل مقارنة تطورات متشابهة وتحليلها يمكن كشف التعميمات والمبادىء التي تنطوي عليها . أما مجرد الاقتصار على دراسة أبسط أشكال الظاهرة فلا يؤدي الى كشف علمي محقق . وينصح بالسير وفق الاعتبارات الآتية :

(1) Kovalevsy : Contemporary Sociologists, p. 285.

(2) M. Kovalevsky: Sociology p. 68.

١ ــ دراسة النظم دراسة تاريخية مقارنة مع الاستعانة بالدراسات الاتنلوجية .

٢ ــ دراسة الحقائق فى طبيعتها وتطورها وفى بنيانها الاجتماعى القائم .

٣ ــ الكشف عن الماضى لأنه هو الذى يحمل جراثيم التطور فى الحاضر والمستقبل .

٤ ــ الكشف عن وجوه التشابه والتباين وتحليلها .

٥ ــ تصنيف المتشابهات وترتيب الحقائق المتماثلة فى مقولات (categories) تبعا لدرجات تطورها .

٦ ــ تقريب الأشكال الحاضرة من أصولها البدائية لأننا نقرأ فى هذه الصور الحاضرة ( بشكل أو بآخر ) صورة لأصول النظم البدائية. وبفضل هذا التقريب ؛ نستطيع تحديد « درجة النسبية » فى الحالة الماثلة أمامنا بين صورتها البدائية ومبلغ ماقطعته من تطور .

ثالثا ــ دراساته الاتنجرافية والانتروبولوجية وعلاقتها بالتطور

أمضى مدة طويلة فى بلاد القوقاز . ودرس أثناءها العشائر التى تعيش بين هضابها ومرتفعاتها . وهى عشائر عاشت بمنأى عن تيارات الحضارة الروسية وتمثل فى حياتها الاجتماعية البدائية الأولى الى حد كبير . وقد أفادته هذه الدراسة فى الوصول الى أصل الأسرةالانسانية وكشف كثير من أصول النظم الاجتماعية . هذا ، الى كشف قوانين عامة تتعلق بالتطور والتغير الاجتماعى فى ذاته .

ووصل العلامة ( كوفالوسكى ) من تحليله لأصول النظم الى أن نظام « المعشر «Hord» » هو أقدم تنظيم اجتماعى . وعن طريق التزاوج من الخارج نما هذا الشكل واتسع نطاقه ووصل الى النظام الذى كان معروفا عند اليونان والرومان القدامى بنظام «Clan» وفى نطاق هذا النظام ، ظهر نظام العشائر «Gens» وعندما نمت

واتسع نطاقها ؛ انشعبت الى عائلات مستقلة Matrileaneal family وبطون . وقد كان هــذا الانشعاب فى أول مظاهره على أساس الانتماء الى الأم ويســميه (Cognatic) ، ثم أصبح على أساس القرابة الى العصب ويسميه (Agnatic) . وفى نطاق هذه النظم الأسرية تطورت أشكال الزواج والطلاق وطبقات المحارم والتابو وما الى ذلك من الظــواهر الأسرية التى لا تزال راسبة حتى الآن فى نظمنا الحاضرة .

وعاشت هذه الجماعات فى أول أمرها على الصيد والرعى. وسرعان ما انتقلت من الحالة الرعوية الى حالة الاستقرار بعد اكتشاف الزراعة ثم مزاولة الصناعة البدائية .

وبعــد أن تحــلل نظــام ( الجنس Gens ) حل محــله نظــام اقطاعى (feudal order) وكان هذا النظام منتشرا بين شعوب كثيرة وفى عصــور مختلفة . فقــد وجد فى غرب أوربا وفى الامبــراطورية البيزنطية وفى روسيا وفى العالم الاسلامى وفى بلاد اليــابان . غير أن تطورات تاريخية اجتماعية أدت الى انتقــال المجتمعــات الى المرحلــة القومية ؛ ومن ثم قامت الديمقراطية وهو آخر ما نعــرفه من تطور . وكانت هناك مظاهر قوية ملازمة لهذا التطور . فقــد كان مصــحوبا بالانتقال من اللامساواة الى المساواة ؛ ومن الخضوع لسيطرة الحكومة وتدخلها الى التحرر والسعى وراء تحقيق المصالح الجماعية المشتركة. وهذا التطور لم يكن عملية مفروضة على الأجزاء تحت ضــغط عامل واحد ؛ فهناك عوامل كثيرة تتضافر وتتكامل فى خلق عملية التطور . فقد كان كوفالوسكى من أشد أعداء النظريات الفردية فى علم الاجتماع التى كان زمانه حافلا بها ــ وهى نظريات ترد التطور الى عامل منفرد. فالتطور فى نظره يرجع الى عدة عوامل متضافرة ؛ ونظريته على هــذا النحو ليست نظرية فردية ولكنها تجمع بين اتجاهات كثيرة (Pluralistic)

وهو بصدد دراسة عوامل التطــور ضــغط على نمــو العــامل الديموجرافى وزيادة السكان وأثر ذلك فى النواحى الاقتصادية .وقرر أن هذا العامل هام جدا فى التطور الاجتماعى ؛ بيد أن أثره لا يبــدو

واضحا الا فى ارتباطه بعوامل اجتماعية أخرى مثل تحسين النسل وضبطه والتقدم الصحى وارتقاء المعايير الأخلاقية والدينية ؛ ولا ينكر كذلك أثر العوامل السياسية والاقتصادية . فكل هذه العوامل تتضافر فيما بينها وتتبادل آثارها وتتجه وفق اتجاه جمعى غائى لاحداث التطور .

وبعد أن ينتهى من مناقشة عوامل كثيرة تتفاعل فى عملية التطور ؛ يقرر أن هذه العملية ترتكز فى آخر تحليلها على مبدأين أو دعامتين

أولا : تعتبر هذه العملية نتيجة لمظاهر التجديد والاختراع والمحاكاة والتكيف . وهذه الفكرة تقربه الى حد كبير من العلامة الفرنسى تارد صاحب الاتجاه النفسى فى دراسة الظواهر الاجتماعية .

ثانيا . وتعتبر هذه العملية نموا تدريجيا متزايدا وتحسنا ارتقائيا فى قواعد السلوك . وهذه الفكرة تقربه الى حد كبير من «السلوكيين» وعلماء التربية والأخلاق . ويقرر ( كوفالوسكى ) أن هاتين الدعامتين مرتبطتان ويعملان بالتناسق فى عملية التغير والتطور الاجتماعى .

هذه هى مجمل الآراء التى انتهى اليها ( كوفالوسكى ) . وهى تدلنا على أنه كان خصب الانتاج ، بيد أنه لم يكن أصيلا فى معظم ما انتهى اليه ؛ ولم يدرس بعمق مسائل لها شأنها . وجاءت بحوثه فى بعض أجزائها شيئا معادا . فقد عالج بعض الموضوعات بالطرق المألوفة والأسلوب المتواتر . ولكن يمكننا أن نخرج من دراسته بشىء جديد وهو أنه خرج على التقليد الروسى فى الدراسة ؛ وهو الخلط بين العلم والسياسة ووضع القضايا العلمية فى خدمة المطالب السياسية . فقد كسر هذه التقاليد وخرج عليها وبنى منهجه العلمى على الاعتبارات العلمية ودراسة أصول وتاريخ النظم الاجتماعية والتشريعية والاقتصادية . ولم يقم للاعتبارات السياسية كبير وزن . وقد أشرت فيما سبق الى أن هذا الاتجاه العلمى الواضح سبب له متاعب كثيرة؛ فقد أدى الى فصله من الجامعة فى مستهل حياته العلمية .

# الفصل السادس

## علم الاجتماع الحربى

شعبة حديثة من شعب الدراسات الاجتماعية استأثرت بعناية بعض علماء الاجتماع لاسيما فى الظروف الحاضرة التى تنذر بين الحين والحين بوقوع اشتباكات وحروب عالمية خطيرة تضع مصائر الشعوب أمام مواقف وصعوبات اجتماعية تنوء المجتمعات بتبعاتها ومسئولياتها الجسام كما حدث بصدد المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية التى تخلفت بصفة خاصة بين الحربين العالميتين الكبيرتين . وقد تقدمت سوسيولوجيا الحرب فى البلاد المتقدمة مثل أمريكا وروسيا وانجلترا وأصبحت تتناول ظاهرة الحرب ذاتها بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة فى طبيعة المجتمع الانسانى ولها أسبابها العميقة التى لاتخرج عن كونها أسبابا اجتماعية . ولذلك لايقتصر أصحاب هذه الدراسات على دراسة الحرب فى ذاته ووضع النظريات المفسرة لنشأته وتطوره ودوافعه ولكنهم أدركوا فضلا عن ذلك أن قوة الدفاع لاتتوقف فحسب على اعداد الجيوش وتدريبها فنيا وتزويدها بأحسن الأسلحة وأحدث العتاد ، بل ينبغى أن تدخل فى تقدير المشرفين على شئون الدفاع ، الاعتبارات الاجتماعية لأن الجيش قوة جمعية وطاقة يمكن استغلالها الى أقصى درجات الشدة اذا أحسن توجيهها اجتماعيا وسيكولوجيا ، وأمكن القضاء على مايراود أفرادها من مشكلات أو علاقات سيئة . ونحن نعرف أن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بين مد وجزر وأخذ وعطاء وتجاذب وتنافر . هذا الى المشكلات التى تربط هؤلاء بأسرهم وبالمجتمع الخارجى . ثم الترفية والخدمات الاجتماعية ووسائل الدعاية والاعلام والترشيد الاجتماعى وربط القوة الحربية بالغايات الاجتماعية.

هذه كلها دراسات هامة تدخل فى نطاق سسيولوجيا الحرب . فلاينبغى اذن الاقتصار على ماتقدمه العلوم الطبيعية والفنون التكنولوجية من خدمات لاستغلال الطاقة المادية فى الجيوش ، بل ينبغى الاهتمام كذلك بما تقدمه العلوم الانسانية وخاصة علماء النفس والاجتماع من دراسات وبحوث لها فائدتها المحققة فى هذا الصدد .

وتستمد معظم الدراسات الحربية الحديثة ركائزها من فلسفة داروِن وسبنسر وأتباعهما ( فكارو ونوفيكوف وجملوفتش وراتزنهوفر ) فى الأصول الحيوية للكيان الاجتماعى ومبادىء تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح وما الى ذلك ، وتطبيق هذه المبادىء على دراسة ظاهرة الحرب .

ولكن الدراسة التاريخية التحليلية تسوقنا الى زمن بعيد .فالمبادىء والتصورات التى تنطوى عليها فلسفة القوة ليست وليدة الفكر المعاصر ولكنها قديمة قدم ظاهرة الحرب وعالجها المفكرون القدامى الذين شاهدوا الحروب والانقلابات وانهيار المدنيات والحضارات القديمة على أثرها ، ولمسوا مبلغ ماقاسته الشعوب القديمة من ويلات وآثار الخراب والدمار ، بالرغم من أن الحروب القديمة كانت محدودة النطاق الى حد ما ولم تكن على مستوى التدمير الشامل مثل الحروب الحديثة.

واذا رجعنا الى أغوار التاريخ ، نجد أن معظم الكتب والتعاليم الشرقية القديمة تردد أن التاريخ العام لحياة البشر هو تاريخ صراع بين قوتى الخير والشر . فهناك حرب فى الطبيعة تنعكس آثاره على العلاقات بين الجماعات الانسانية وبين الأفراد لأن فى الطبيعة قوى تعمل للخير وأخرى تعمل للشر .. الأولى تعمل للسلام والثانية تثير الحروب والثورات . ومادام الخير والشر متأصلين بصفة طبيعية فان الحروب لن تخبو لها أوار .

ونجد أن طائفة من المفكرين والفلاسفة الأول فى مختلف البلاد فلسفوا هذه التعاليم وربطوها بأصول طبيعية وذاتية واجتماعية وبذلك

وضعوا أولى اللبنات فى فلسفة الصراع والقوة وما ينتج عنها من قيام الحروب والثورات والانقلابات .

ولعل أقدم أثر يعالج هذه الظاهرة بشيء من التفصيل ماجاء فى كتابات السياسى الهندى القديم « كوتيلا نشاناكيا » . كان براهميا وأدرك القيمة السياسية للدين ولكنه فصل بينه وبين السياسة فكأنه سبق بتعاليمه ووصاياه ماجاء به «ميكيافيللى» المفكر الايطالى فى القرن السادس عشر . أراد أن يدون للأجيال القادمة آراءه السياسية والعسكرية فوضع كتابا اسمه « ارذا شانسترا » يعتبر من أقدم تراث الأدب السنسكريتى . بدأ بتحليل طبيعة الانسان ووصفه بأنه جشع أنانى يميل بطبيعته الى اذلال أخيه الضعيف وتسخيره لخدماته . وكأنه سبق أيضا بهذه التعاليم الفيلسوف الانجليزى «هوبز» واعتبر الحرب طبيعية بين قوى البشر كما أن القوة طبيعية فى علاقات الأفراد . والحرب ضرورة ولازمة لتأييد الحكم المطلق واتساع نطاق الامبراطوريات . والقوة العسكرية مطلوبة لذاتها لتقرير الهيبة وتأكيد السيطرة والسلطان ولذلك كان ينادى بتقرير أقسى العقوبات والاسراف فى الجزاءات صونا لمقدرات النظام السياسى .

وفى التراث الصينى القديم نجد اهتماما بدراسة ظاهرة الحروب نظرا لما كانت تقاسيه الشعوب القديمة من جراء حملات الابادة وموجات الغزو العمرانى وتيارات الكر والفر أمام هذه الموجات . فقد ورد فى « دستور جو » وهو من أقدم التراث الصينى ضرورة اسناد شئون الحرب الى وزير مسئول ليقوم على اعداد الجيوش والاشراف على التربية العسكرية والتعبئة القومية لأن الحروب ظاهرة طبيعية تهدد السلام شأن كوارث الطبيعة التى تهدد الأمن الاجتماعى . ودرس كونفوشيوس هذه الظاهرة فى كتابه التاريخ « Chou King » وكشف عن أسبابها الطبيعية والسياسية والقانونية . وبحث فى أفضل الوسائل للقضاء على الحروب التى تهدد دول العالم فى عصره لاسيما انه كان

ينشد السلام ويسعى لتحقيق جمهورية عالمية واحدة ترتكز سياستها على المبادىء الاشتراكية .

وكان اليونان القدامى يعبدون « اله الحرب » كما يعبدون الآلهة الأخرى ويقدمون له الضحايا والقرابين اتقاء لشروره وارضاء لشهواته . واهتم بعض فلاسفتهم بدراسة ظاهرة الحرب دراسةتحليلية. ويعتبر « هراقليطس » من أوائل المهتمين بهذه الدراسات ، يقول : ان الخير والشر والكون والفساد أمور تتلازم فى النظام الطبيعى العام . والأشياء فى تغير دائم مستمر ، والحرب والصراع هما أب الأشياء اذ لولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الحرب لما كان السلام ، ولولا الشر لما كان الخير .

وتكلم أفلاطون فى هذه الظاهرة وندد بما تنطوى عليه من مظالم . ونادى بأنه لا ينبغى على الدولة أن تجعل من الحرب غرضا ذاتيا تسعى اليه ؛ كما كانت تعمل بعض المدن فى عهده للحصول على الشهرة الحربية والعسكرية ، بل يجب أن تعمل على استقرار السلام باتقاء الخصومات مع الخارج بقدر ما تتقى الثورات الداخلية . وينبغى الا ترتكب المظالم مع غيرها من الدول ولا تغالى فى حمل السلاح بل تقتصر فى هذا الصدد على ما يعينها على الدفاع عن كيانها اذا هاجمها منافسون ظالمون بالرغم مما لها من الفضائل .

وتكلم أرسطو فى الحرب وعالج قيام الثورات وكشف عن أسبابها العميقة الكامنة فى طبيعة الاجتماع السياسى . وفى كتابه السياسة عرض مفصل لكل ما يتصل بهذه الظاهرة .

وتناول كثير من مفكرى الرومان هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل. وكان يؤثر عن « سنكا » قوله « الحياة هى الحرب «Vivre militare est» « والحرب هى حياة الانسانية « Milita est vita homonis » وتكلم عنها شيشرون فى كتابة « فى الواجبات « De officius »

وشرح مبادىء الحرب والسلم وعقد المعاهدات ، وتعى على الظلامات الصارخة التى تسببها الحروب . ولذلك نراه يدعو الى قيام جمهورية ، عالمية تنتفى فيها قيام الحروب ، ويدعو الى تحقيق الحريات وحقوق الشعب وضرورة احترامها . ويعتبر كتابه المشار اليه أول كتاب فى العالم القديم يدافع عن فكرة العدالة حتى بالنسبة للأعداء .

ومن بين مفكرى المسيحية يهتم « أوغسطين » بالكلام عن الحرب . يقول : العدالة قاعدة الاجتماع السياسى ؛ ولا يمكن تأييدها الا بالقوة . فالحرب اذن مشروعة . بيد أنها لا تكون كذلك الا اذا كانت الوسيلة الوحيدة لرد العدوان أو المحافظة على حقوق مهددة بالضياع . أما اذا كانت وسيلة للفتح والقهر والاستيلاء فما أبشعها من أداه . وأوصى بالاستبسال فى الحرب والاذعان للقادة حتى ولو كانت الحرب ظالمة لأن المسئولية والاثم فى ذلك انما يقعان على صاحب السلطة التى شنها وأمر بها . ومادامت الحرب ضرورية ولا غنى عنها فى الحياة الاجتماعية فينبغى الاستعداد لها حتى لا يؤخذ الشعب على غرة ؛ بالرغم من انه كان يكره الحرب ويدعو الى السلام . وكان يفضل الدول صغيرة الحجم القانعة بوسائلها المحدودة والتى لا تثير الحروب وتلجأ الى الغزو . وكم كان يسره أن يرى الانسانية جمعاء تعيش فى صورة مجتمعات صغيرة أو دويلات ضيقة النطاق يرفرف عليها السلام وتستظل بفىء من المحبة والاخاء كما تعيش العائلات ذوى القربى .

وردد هذه الآراء ( سان توماس الأكوينى ) عندما تكلم عن نظرية الدولة وحدد وظائفها فى الداخل والخارج . فمن الناحية الخارجية يجب عليها أن تستعد ضد أخطار الغزو . ومن ثم فالاستعداد للحرب وظيفة جوهرية لتأمين سلامتها فى الخارج ؛ كما أن التشريع وظيفة جوهرية لتأمين سلامتها فى الداخل . وقرر مشروعية الحرب فى الحالات الآتية :

( ا ) اذا أعلنتها سلطة شرعية وباشرتها بنفسها .

(ب) اذا كانت لدفع ظلم أو استرجاع حقوق مهضومة أو لأسباب عادلة .

(حـ) متى كانت مقصورة على تحقيق أهدافها وليست لغرض الفتح والغزو وحب التسلط .

وناقش فى ثنايا حديثه عن هذه الظاهرة أمورا جزئية تتعلق بجواز النفاق والتغرير بالعدو حبا فى النصر ، وجواز استمرارها فى الأيام الحرم وأيام الأعياد وما اليها . وناقش مسألة اشتراك رجال الدين فى أعمال الميدان . وقال أنه لا ضير من الانتفاع برجال الدين فى اعمال تتفق مع طبيعتهم الروحية . وهى استخدام الأسلحة الروحية لتأييد الحرب وتشجيع القائمين بها . وتتمثل هذه الأسلحة فى الوعظ والارشاد والتعبئة الروحية واعلان الجهاد واقامة الشعائر فى الميدان .

واهتم المسلمون بظاهرة الحروب . وتكلم الكثيرون منهم فى مشروعيتها ولاسيما حروب الجهاد وساقوا من الآيات والأحاديث ما يعزز وجهة نظرهم . وكانوا فى غزواتهم يحملون كتاب الله فى يمينهم وسيفه المسلول فى شمالهم . وقدم ابن خلدون فى مقدمته دراسه وصفية تحليلية لهذه الظاهرة .

اعتبر الحرب أمرا طبيعيا فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض . وسبب هذا الانتقام فى الأكثر اما غيرة ومنافسة ، واما عدوان ، واما غضب لله ولدينه ، واما غضب للملك وسعى فى تمهيده .

فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المجاورة والعشائر المتناظرة . والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون فى الأمم الوحشية والقبائل التى جعلت أرزاقها فى رماحها ومعاشها فيما بأيدى غيرها . والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد . والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمنافقين لطاعتها .

ويستطرد ابن خلدون وهو بصدد دراسة هذه الظاهرة الى وصف تكتيكات الحروب من الزحف والكر والفر والمباغتة . وما ينبغى أن يكون عليه تشكيل الجيش في الميدان وطريقة اعداده وتجهيزه مستشهدا بكثير من التجارب التى وقعت لجيوش المسلمين وغيرهم من الغزاة والفاتحين . ويقدم طائفة من الوصايا والحكم للقادة والجند مستشهدا كذلك بالآيات والأحاديث والأقوال المأثورة مما كان يجرى على الألسنة حتى عهده . كما يستشهد بطائفة من الوصايا التى كتبها الخلفاء الراشدون لقوادهم مثل وصية الامام على رضى الله عنه لأصحابه يوم « صفين » وخطاب عمر لأبى عبيد ابن مسعود لما ولاه حرب فارس والعراق ؛ وقصيدة الشاعر الأندلسى أبى بكر الصيرفى فى مدح القائد المظفر تاشفين بن على بن يوسف . وهذه الوصايا والحكم فى مجموعها تشكل ثمرة التجارب التاريخية فى ميدان الحروب وهى أعز ذخيرة تقدم للحاكم أو الامير الذى يريد أن يتمتع بالسيادة والسلطة ويحرص عليهما بقوة وحزم بعيدا عن ثورات الداخل واعتداءات الخارج . وهى تشبه فى كثير من الوجوه ما قدمه المفكر الايطالى « مكيافيللى » فى كتابه « الأمير » . فليس ثمة شك أن ابن خلدون سبق مكيافيللى فى تقريره هذه الاعتبارات وكان أستاذا غير مباشر له . وتكلم ابن خلدون فى موضوع هام وهو مدى استغلال السياسة فى سير الحرب واستعجال النصر والاجهاز على العدو ، كما تكلم فيما نسمية الآن بالحرب الباردة والدعاية وتعبئة الرأى العام . وهذه الدراسات وما اليها تدلنا على سعة أفق ابن خلدون وعمقه والمامه بالشئون الحربية والعسكرية .

وفى صدر العصور الحديثة ومنذ نشأة القوميات المعاصرة اهتم مفكرون كثيرون بدراسة « ظاهرة الحرب » . تكلم فيها مكيافيللى وترك بحثا فى فن الحرب يدور معظمه حول الوسائل التى يلجأ اليها الأمير لتحقيق الوحدة القومية . وكان « مكيافيللى » فى هذا البحث أستاذا غير مباشر لرسول الوحدة الايطالية « مازينى » . وتكلم فيها

« هوبز » فى كتـابه (Leviathan) واعتبرها حالة طبيعية بين البشر فالانسـان بفطرته ذئب لأخيه الانسـان . ودرسـها « منتسيكو » فى كتـابه « روح القـوانين » وناقش الظـروف الاجتمـاعية والسياسية التى تدفع اليهـا . وقرر أن حالة الحـرب حالة طبيعيـة تنشأ بين الأمم بعد استقرارها واستكمال خصائصـها . وهى فى نظره ظاهرة غير سوية . فاذا كان الاسترقاق اهدارا لكرامة الفرد وحريته ؛ فكذلك الحروب استنكار لحرية الشعوب واهدار لكرامتها وهو لايقر الا نوعين منها . ما كان بقصد الدفاع عن حق مسلوب وما كان بقصد تنفيذ معاهدة دولية . ويحمل حملة شعواء على ما دون ذلك من أنواع الحروب الأخرى التى يقوم بها الملوك والطغاة لنيل المجـد وتوسيع نطاق ممالكهم واستعمار الغير ووصفها بأنها حروب زائفة غير عادلة .

ومنذ منتصف القرن التاسـع عشر حتى الربع الأول من القـرن العشرين اتخذ معظم المفكرين مما أذاعه دارون وسبنسر فى تنـازع البقاء والصراع من أجل الحياة والبقاء للأصلح ؛ مادة للدراسة والبحث وخاصة فى فلسفة الحرب . نذكر من بين هؤلاء جمبلوفتش وراتزنهوفر وفكارو وفيرى ونوفكوف وفيرورو ونيقـولاى ومن اليهم . ولو أن هؤلاء خرجوا بالمفاهيم المشار اليها عما كان يقصد اليه دارون .

وذلك لانه فى كتابه ( أصل الأنواع ) استعمل مفهوم « الصراع من أجل الحياة » فى معان متعددة : معنى واسع كل السـعة يتضمن ظواهر التعاون المتبادل والحماية وبقاء النوع وردود الفعل من جانب الكائنات للدفاع وصيانة مقوماتها ؛ ومعنى ضيق ويتضـمن الصراع والعنف والابادة . فكأن دارون لم يحدد مفاهيمه وتركها مرنة . وهو نفسه يقول انه نظرا لتعدد المعانى المقصـودة فانه يرى من السـهل وبكل بسـاطة ان يسـتعمل عبـارة « الصراع من أجل الوجود Struggle for existente » (١) .

---

(1) Sorokin — Contemporary Sociological theories p. 311 Sqq.

وهذا يدلنا على أن هذه المفاهيم استعملت في تعميمات غير دقيقة بدون أن تنطوى على تحليل منهجى للحقائق : فمثلا يقـول ماركس « ان تاريخ المجتمعات الموجودة هو تاريخ الصراع الطبقى » ويقول نوفيكوف « ان قانون الصراع هو القانون الكلى الأكثر عمومية » ، ويقول فيرى « ان الصراع من أجل الوجود قانون موروث فى الانسانية كما أن مظاهره مرئية فى كل الـكائنات الحية » وهكذا حاول هؤلاء وغيرهم من أتباع دارون وسبنسر أن يجعلوا من « الصراع » مبـدأ أوليا a priori وعاملا وحيدا للتطور الاجتماعى وذلك لتبرير العنف والقوة وتأييد نوازع الحرب . (١)

وقد استهوت فلسفة الحرب طائفة كبيرة من فلاسفة الألمان الذين راحوا يمجدون القوة ويطبقون نظرية الصراع وبقـاء الأصـلح على ظواهر الحياة الاجتماعية فى ميدان السياسة والاقتصـاد والاخلاق . فالسياسة هى سيادة الأقوى والدولة لا تقوم الا على القوة وبفضـل القوة ؛ والاقتصاد هو صراع الأقوى ؛ والاخلاق الحقـة هى أخلاق العنف وارادة الأقوى والأقدر . وجعـل هؤلاء من الحـرب وظيفـة اجتماعية وانها يجب أن تشن بلا رحمة ولا هوادة لان العنصر الاقوى هو الذى يجب أن يسود . وقد سبق أن أشرنا عند حديثنا عن المدرسة الألمانية أن هيجل وفخت ونيشه كانوا من أوائل المؤيدين لهذه الأفكار وأيضا المفكر السياسى « جيللنك Jellineck » الذى كان يرى أن الحرب هى مصدر النظام القـانونى وأهم وسـيلة للتقـدم . وكان « شبنجلر » من أقوى دعائمها فقد ذهب الى أن الحرب ضرورية ولازمة أما السلم فهو حلم من أحلام اليوتوبيا السياسـية . ولذلك يجب أن يستبعد هذا اللفظ من معجم المعاملات الدولية كما تستبعد مفـاهيم العدالة والمساواة والأمن . لأن القهر والقوة همـا أسـاس الحق والعدل .

وقد أثرت هذه الأفكار تأثيرا كبيرا فى تفكير الشعب الألمانى وفى اتجاهاته العملية . ولاشك أن انصار هذا الاتجاه هم الذين رسـموا

(1) Scrokin (Ibid.)

وحددوا الخطوط الرئيسية للسياسة الألمانية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الثانية . وهم الذين نفخوا فى الشعب الألمانى فحولوه من أقصاه لأقصاه الى قلعة عسكرية وأصبح يدين بالعنصرية وبفكرة شعب الله المختار ويطأطىء الرأس لمجد القوة والعظمة وحب السيادة والسلطان .

واستهوت فلسفة القوة أيضا بعض كبار فلاسفة روسيا مثل باكونين وكروبتكين ونوفيكوف ولكنها لم تقع فيهم كما وقعت فى فلاسفة المانيا ، ولم تؤثر فى روسيا ذلك التأثير الواضح الذى تركته فى عقلية الشعب الألمانى وروحه وأيديولوجيته وخاصة فى الفترة ما بين الحربين العالميتين . ولذلك نجد ان هؤلاء الفلاسفة بالرغم من دراستهم لظاهرة الحرب غير انهم نقدوا الدارونية وفلسفة الصراع وقارنوا بين تطبيقاتها فى عالمى الحيوان والانسان . فذهب « باكونين » الى أن الحرب ضرورية والثورات لازمة ووسائل القمع والارهاب لا مندوحة عنها لازالة المعوقات التى تقف فى طريق التطور . ذلك التطور الذى ينساب آليا نحو اهداف محددة غايتها البعيدة تحقيق مبادىء الحرية والتحرر ، ومثل هذه المبادىء لا يمكن أن تتحقق فى عالم تسوده عوامل الصراع وتحكمه مبادىء البقاء الأصلح . وعرض زميله « كروبتكين » نقدا للدارونية فى كتابه « المساعدة المتبادلة عامل من عوامل التطور » وأوضح أن فلسفة الصراع وتحكم القوة وحتمية البقاء للاصلح ، ليس لها وجود لا فى عالم الحيوان ولا فى عالم الانسان . وأثبت بالأدلة والحقائق الموجودة والأمثلة المستمدة من ممالك النبات والحيوان والانسان ، أن الدور الرئيسى فى تاريخ التطور انما تقوم به صفات وعوامل التعاون باعتبارها مميزة فى ذاتها عن صفات الصراع وعوامله ، والأفراد والأنواع التى كتب لها البقاء هى التى زودت تلقائيا بأقوى ملكات التعاون ، أما التى تتغلب فيها عوامل الصراع فانها صائرة لا محالة الى الفناء . وبرهن « كروبتكين » على أن قانون المساعدة المتبادلة الذى يحكم مجرى التطور ينعكس فى

الحياة الاجتماعية فى صورة مبادىء الحــرية والعدالة والمســاواة والتضامن الاجتماعى . وقد شرحنا هذا بالتفصيل فيما ســبق . ونقد ( نوفيكوف ) مبادىء داروين وعرض فى كتابه ( مظــاهر الصراع بين المجتمعات الانسانية وأدوارها المتعاقبة ) أربعة مظاهر للصراع البشرى « الفزيولوجى ، والاقتصادى ، والسياسى ، والعقلى » وهذه المظاهر هى المؤدية الى الحروب فى مختلف أشكالها . ويصورها العلامة سوروكن فى الجدول الآتى (1) :

| مظاهر الصراع من أجل الحياة | الأغراض التى تحققها | الاشكال التى تظهر فيها |
| --- | --- | --- |
| ١ ـ الصــــراع الفسيولوجى | الابادة والاستئصال والحصول على الطعام | أكل لحوم البشر، القتل وسفك الدماء . الحرب للحصــول على الطعام وابادة العدو |
| ٢ ـ الصــــراع الاقتصــادى | تحقيق مطالب ووسائل البقاء وجمع الثروة وتنميتها والملكية وزيادتها والحروب الاقتصادية | النهب والسلب وقطع الطرق والقــرصنة والمنــافسة الاقتصادية والمظــاهر المختلفة للاكراه والضغط على العــدو لسلبه ونهبه . |
| ٣ ـ الصــــراع السـيــاسى | الحصــول على امتيــازات اقتصــادية بوســائل سياسة التسلط السياسى للانتفاع به فى كل القطاعات ، التهديد ، توقيع الجزاءات وتنفيذها ـ الحروب السياسية . | اغتصاب السلطة ـ الاسترقاق والعبودية ـ التخريب والغزو والضم |
| ٤ ـ الصــــراع العقــــلى | الصراع للسيطرة والتســلط العقلى ـ أو لسيطرة دين ، وفكرة، مبدأ، عقيدةأو حضارة أو ثقافة ووسائل ذلك : الدعاية النقد ، التدريب ، وســائل التمثيل والتذويب المختلفة ، الاضطهاد الفكرى والعقائدى | الحروب الدينية والثــورات والانقــلابات وكبت الحــريات والصراع الثقافى والعقلى وما اليهــا . |

(1) Sorokin ; Contemporary Socio'ogical theories p. 315.

وبعد تحليل المظاهر المشار اليها يقول أن المؤيدين لنظرية الحرب على حق لأن الحرب هى الحيــاة والصراع من أجل البقاء يؤكد هذه الحياة . وبدون مظاهر الصراع والكفاح تتردى المجتمعات فى سبات عميق وتستنيم لسكون مطلق وموت محقق . ولكن الخطأ كل الخطأ هو اعتبـــار الحروب ومظاهر الصراعات المختلفــة هى كل ما ينبغى أن تلجأ اليه البشرية لتأكيد وجودها وبقــائها . فانه بجانب الصراع البيولوجى ، توجد الأشكال الأخرى التى أشرنا اليها وهى وقفا على عالم الانسان ولا توجد فى مملكة الحيوان . هذا الى أن مظاهر الصراع الفزيولوجى ( الدموى ) اخــذة فى الانقــراض ليس فقط فى مملكه الانسان بل وبين معظم فصائل الحيوانات الراقية . ولذلك يحمل على نظريات دارون وراتزنهوفر وجمبلوفتش قائلا ان القانون الداروني ، فى غير ما حكمه ، يمنع الانسانية ككل من أن تتحد فى وحدة فيدرالية ينعم البشر فى ظلها بالسلام والمحبة والتعــاون المتبــادل . ومهما كان الصراع عاملا أساسيا فى مناشط الحياة فان مظاهره الدموية قد خفت حدتها ، وحلت محلها مظاهر أكثر انسانية ، وأكثر تهذيبا ووداعة . وفى طريق الانسانية الطويل سوف تختفى كل المظاهر الفزيولوجية للحروب التى تنطوى على اراقة الدماء وافناء البشر وتحل محلها مظاهر الصراعات الثقافية والعقلية ويعتبر كتابه ( الحرب وفوائدها المزيفة المنشورة عام ١٨٩٤ ) صدى لهذا الاتجاه السلمى فى تقييم الداروينية . فقد تكلم عن الحروب وعرض وجهات نظر المؤيدين لها والمعــارضين وفند ادعاءات وأحاجى هؤلاء وأولئك .

وفضلا عن ألمانيا وروسيا ، سيطرت نظريات الحرب والصراع والقوة على مفكرين كثيرين فى النمســا وســويسرا وايطاليا ( جمبلوفتش ، وراتزنهوفر ، وفيرى ، وفيريرو ، ونيقولاى ، وفكارو ) وكان الأخير من أقوى المدافعين عنها . يقول ( فكارو ) ان البشرية فى ســبيل حب البقاء والصراع من أجل الوجود شاهدت وعاصرت نطاقات متــداخلة من صراعات متعددة . فأولا صراعها مع البيئة الكونية واللاعضــوية

(1) Novicoff — La Guerre et ses Prétendus Bienfaits.

مشتركة فى ذلك مع مملكتى النبات والحيوان ( وذلك للانتصار على القوى الكونية والطبيعية التى تتربص بها ) . وثانيا صراعها مع البيئة العضوية منفردة فى ذلك ضد الممالك الأخرى ( وذلك لترويض الحيوان واستئناسه والحماية من الضوارى وتهذيب النباتات البرية والقضاء على الضارة منها ) . وثالثا صراعات ضد البيئة فوق العضوية أى الانسان وجها لوجه مع زميله الانسان . اذ لابد للبيئة البشرية أى تكيف نفسها مع بعضها البعض : الجماعات الخارجة ضد بعضها البعض ، والأفراد فى نطاق الجماعات الداخلية ضد بعضهم البعض . وكان هذا يستلزم الحرب والعنف الذى لاهوادة فيه . وكم من جماعات مستضعفة أبيدت وأخرى أجهز عليها ، وبعضها قاوم تحت ضغط عوامل القهر والارهاب والقوة السليطة . ويتكلم (فكارو) بالتفصيل عما يحدث أثر كل حرب أو غزو عمرانى فى قيام صراعات بين المنتصرين والمهزومين ثم بين المنتصرين أنفسهم على السلطة والامتيازات ، وأخيرا بين المهزومين وانشقاقهم الى فئات بعضها يناصر القوى المنتصرة ، والبعض الآخر يناصبها العداء .

وبعد ذلك يتماثل الجميع فى وحدة المجتمع . وسرعان ما تقوم عوامل الصراع من جديد لأسباب ورواسب تركتها الصراعات الأولى وهكذا دواليك لا ينضب لهذه الصراعات معين . ويربط ( فكارو ) بين مظاهر الصراع ونطاقاته وبين مختلف أشكال الحكم ( التيوقراطية والدكتاتورية ، والارستقراطية والديموقراطية ) كما يربط بينها وبين مبلغ قسوة التشريعات الجنائية والقوانين الوضيعة المحلية . ويربط بينها كذلك وبين مختلف الظواهر الاجتماعية كالتقسيم الطبقى والأمتيازات الطائفية والتغير الاجتماعى والتكنولوجى والاقتصادى . وكان دائما يؤيد وجهات نظره بأمثلة مستمرة من الانثروبولوجيا الاجتماعية ووصف حالة الشعوب ومن التاريخ قديمه وحديثه ومن الشواهد الملحوظة والعلاقات السياسية والاقتصادية لدرجة أن آراءه صادفت قدرا من النجاح ، واقتنع بها بعض المعارضين للداروينية .

واذا تركنا الناحية النظرية لفلسفة الحرب ، نجد من الناحيةالعملية والتطبيقية اهتمامات على جانب من الاهميةبالنواحى العسكرية وتكوين الجيوش والاستعداد للحرب حتى أصبح حديث الحرب هو الحديث الذى يلوك الألسنة فى كافة الشعوب ضعيفها وقويها . ولجأت الأمم العسكرية القوية الى الاستعانة بعلماء النفس والاجتماع فى دراسة أحوال القوات المحاربة والقيام بالتجارب التى تحقق أقصى قدر من الكفاية واستغلال الطاقة فى القوة البشرية العاملة فى الميدان . والانتفاع بوسائل الدعاية والاعلام والتعبئة القومية والعقائدية وتحقيق السيطرة على أفكار الشعب وتوجيهه الى التضحية والفداء والفناء فى تمجيد القوة وتحقيق النصر . وقد زادت هذه الاهتمامات فى فترة ما بين الحربين وبعد الحرب العالمية الثانية . وذلك لدراسة أسباب الهزيمة وأسباب النصر والبحث فى العوامل الذاتية والاجتماعية التى أدت الى ما انتهت اليه الحرب . ومن ثم دخلت الدراسات والأبحاث الاجتماعية بعمق فى مجال القوى العسكرية وذلك للانتفاع بنتائجها فى استغلال الطاقة المحاربة واحكام توجيهها ضمانا للنصر وللقضاء على الأفكار الاتكالية والانهزامية والرجعية التى تقلمن قوة الجيش . ومن أهم الدراسات التى تجرى فى هذا المجال : دراسة الميول والرغبات والاتجاهات والمشكلات الاجتماعية والخدمات اللازمة والتى ينبغى أن تؤدى للانعاش والترفية الاجتماعى . والضغوط الاجتماعية التى يئن منها المجندين ، وتحليل الوظائف المطلوبة فى مختلف الدرجات والرتب العسكرية . وقياس الرأى العام بين الفرق وموقف الجيش من المدنيين وقياس العلاقات الاجتماعية بين الفرق العسكرية ومبلغ تعاونها أو تنافسها . ودراسة أفضل الوسائل لتقوية الروح المعنوية والتعبئة الكلية والدعاية والاعلام ووسائل الحرب الباردة ومبلغ أثرها ثم توجيه الجنود الى الحياة المدنية بعد الحرب . كل هذه الموضوعات وما اليها أصبحت مادة غنية للدراسة والبحث الاجتماعى .

وبعد هذا العرض والتحليل لا يفوتنا أن نشير الى آثار الحروب فى حياة المجتمع وفى نظمه وظواهره ومدى ما تحدثه من تغيرات وتحولات وتحولات فى الحياةالاجتماعية . وغنى عن البيان أن هذه الآثار والتغيرات والتحولات متعددة ومتشعبة وعميقة وجذرية فى كثير من الأحوال فضلا عن ارتباطها بكل قطاعات الحياة الاجتماعية . والكلام فيها بالتفصيل تضيق عنههذه الفقرة من الكتاب . ولكنىسأشير الى رءوس الموضوعات والنقط البارزة التى ينبغى على الباحثين أن يصلطوا عليها أضـواء الدراسة والبحث وتتلخص هذه الاعتبارات الاساسية فيما يأتى :

١ ـ لما كانت الحرب ضرورية ولها أسبابها العميقة فى طبيعة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كان الاستعداد لها أمرا ضروريا ولازما . ومن ثم لابد من التعبئة القومية والتربية العسكرية وتخصيص قدر يذكر من ميزانية الدولة للوفاء بكل ما تتطلبه الاستعدادات الحربية ولعلنا نذكر المثل اللاتينى المأثور « اذا أردت السلام فاستعد للحرب »
«Sivis pacem para bellum»

٢ ـ الى أى مدى تعتبر الحرب وسيلة للاصطفاء الاجتماعى ؟ وقد أثيرت هذه القضية من جوانب وزوايا متعددة . فالمعروف أن الجيش يتكون دائما من أفضل عناصر المجتمع : تكوينا وصحة ، وأخـلاقا وسـلوكا وقدرات لأن العناصر الضعيفة والمشلولة وفاسدى الأخلاق والادنى فى القدرات والاستعدادات تستبعد عادة من الجيش . ولمـا كان العبء الاكبر من الخسارة تقع على كاهله فى أثناء الحرب سواء خرج منتصرا أو مهزوما . فانه سيخسر جزء غير يسير من أفضـل العناصر بالنسبة لباقى الأقل شأنا . وهذا معناه « ان الحرب يتيح بقاء غير الأصلح ويقضى على الأصلح » وقديما كان الرومان يقولون « ان الحرب تترك المستضعفين وتقضى على الأقوياء والطموحين «Parcere subjects et debellare Superbos» وهذه القضية كانت موضـع جـدل وامتحـان شاق بين كثير من المفكرين سواء المؤيدين أو المعارضين لظاهرة الحرب.

ومهما يكن من شأن تفسير هذه القضايا فمن المسلم به أن الحرب وسيلة أو جهاز للاصطفاء الجمعى .

٣ ــ لا ننكر أثر الحرب على الظواهر الحيوية والصحية مثل ارتفاع أو انخفاض معدلات الزواج والطلاق ، ومعدلات المواليد والوفيات ، ومعدلات المصابين بالأمراض ، وانتشار الأمراض المعدية سريعة العدوى ، والمصابين بحوادث الحرب ، ومعدلات الأمراض العصبية والهزات العقلية .

٤ ــ أثر الحرب فى الظواهر الاقتصادية مثل الرواج التجارى وزيادة حجم التبادل ومعدلات الاستيراد والتصدير ، والانتاج ومبلغ انعكاس ضعف الصحة العامة وفناء الطاقة المنتجة فى الدخل القومى . وظواهر التهريب والسوق السوداء ، وظهور طبقات من المنتفعين والوسطاء وأغنياء الحرب ، ومعدلات الاجور والمرتبات ومكافآت الحرب وظهور صناعات تخدم أعراض الحرب وأخرى وسيطة وبديلة ، واتجاه التصنيع لخدمة أعراض الحرب وتحويل جزء كبير من ميزانية الدولة لتغطية نفقاته وماينجم عنه من أعمال التدمير والتخريب الشامل وما الى ذلك من الظواهر الاقتصادية التى تتصل بالحرب بصفة مباشرة أو غير مباشرة .

٥ ــ أثر الحرب فى القيم الاخلاقية ومعايير السلوك الاجتماعى والعادات والعرف والتقاليد ومايتصل بها من المتواضعات الاجتماعية ويدخل فى نطاق هذه الدراسة صلة الحرب بظواهر التسول والتشرد والنسل والسرقة والسطو والنهب والسلب وانحراف الأحداث وارتكاب الجنح والجرائم وموجات الانتحار والقتل والاعتداء وما اليها من الظواهر غير السوية التى تتصل بصفة مباشرة أو غير مباشرة بقيم المجتمع ومثله الأخلاقية ومعايير السلوك الاجتماعى .

٦ ــ أثر الحرب على النظم السياسية وما يتصل بها . ويدخل فى نطاق هذه الدراسة أثر الحرب على الحريات العامة والخاصة ومظاهر

الحكم واتجاهاته والاتجاهات الاستعمارية والتكتلات والاحلاف والمعسكرات السياسية والنزعات القومية والمنظمات الاقليمية والدولية وكل مايتصل بالظواهر السياسية .

٧ ــ أثر الحرب فى الحراك الاجتماعى والتقسيم الطبقى والتنظيم الاجتماعى . واعادة تنظيم الهرم الطبقى والامتيازات الطائفية وتشمل هذه الآثار الحراك بمظهريه الأفقى والرأسى واعادة بناء الفئات والطبقات والروابط الاجتماعية .

٨ ــ أثر الحرب فى المعتقدات والأفكار والأيديولوجيات والنواحى العقلية والمذهبية والأذواق العامة والنقابات .

٩ ــ أثر الحرب فى التربية والتعليم وفى العلوم والفنون التى تعتبر أقدس ذخيرة فى الانسانية ورأسمالها التى أسهمت فى تكوينه عبر الأجيال . ويدخل فى ذلك أثره فى تكوين المواطن علميا وثقافيا .

١٠ ــ أثر الحرب فى النظم القانونية والقضائية والتشريعات المدنية والجنائية وما اليها . ويدخل فى هذا النطاق أثره فى الأجهزة الادارية.

١١ ــ أثر الحرب فى الغزو العمرانى وظواهر الهجرة الداخلية والخارجية والعزلة الاجتماعية . ويدخل فى نطاق هذه الدراسة أثره فى الاقليات العنصرية والمذهبية والطائفية ومبلغ ما يؤديه الحرب من حجر أو سيولة اجتماعية فى هذا الصدد .

وعلى هذا النحو لانجد منشطا من مناشط المجتمع أو أية ظاهرة أو نظام الا ويتأثر ان قليلا أو كثيرا ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالحروب ، فى أثنائها وبعد انتهائها . وما أشرت اليه يعتبر ضربا من الأمثلة التى تدل على قوة الآثار وسعة انتشارها وعمقها .

# الفصـــل السـابع

## علم الاجتماع فى مصر

شهد العصر الحاضر وصول علم الاجتماع الى مرتبة علم منظم له قوانين دقيقة كغيره من العلوم ؛ وطرق دراسة علمية صحيحة قائمـة على الملاحظة والاستنتاج واستقراء الحقائق . واستطاع علماءالاجتماع المحدثون صوغ نتائجهم العلمية فى صور كمية ورسوم بيانية وقوانين احصائية ووصلوا فى بحوثهم ودراساتهم الى نتائج لها أهميتها ومبلغ خطرها فى حياة الشعوب والجماعات . وقد تشعب العلم فى السنوات الأخيرة الى فروع كثيرة بعضها نظرى والبعض الآخر فنون تطبيقيـة ترمى الى الانتفاع بحقائق العلم فى ميدان الاصلاح الاجتماعىوأهمها الاجتماع التطبيقى وفن خدمة الفرد وفن خدمة الجماعة والتخطيـط الاجتماعى . وقد تقدمت هذه الفنون وأخذت سبيلها الى الاســتقلال النسبى . وأضحت فى اطارها الخاص دراسات علمية وعملية ؛ وأصبح علم الاجتماع بالنسبة لها جميعا علما تحليليا يمدها بالأسس النظـرية والقوانين العلمية . ومن ثم يعتبر علم الاجتماع الآن نبراسا تستضىء الشعوب بنوره فى حل مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ وهاديا يرشدها سواء السبيل وأداة بفضلها تسد مايبـدو فى نظمها وتشريعاتها من وجوه النقص ومواطن الضعف والقصور .

فكان من الطبيعى أن يدخل علم الاجتماع مصر وتنشأ فيهامدرسة فكرية تحقق ما حققه هذا العلم فى معظم بلاد العالم . ويمكن أن نقول انه دخل مصر منذ أوائل القرن العشرين مع انشــاء الجـامعة المصرية القديمة . ثم استقر بوصفه علما مستقلا عام ١٩٢٥ عنـدما تحـولت الجامعة المصرية القديمة الى جامعة حكومية وأنشىء فيها قسمللاجتماع بكلية الآداب . بيد أن الدراسات الاجتمـاعية كانت فى ذلك الوقت

مختلطة بالفلسفة والاخلاق حينا وبعلوم الانسان والجغرافيــة حينـا آخر . وكان يسيطر على علم الاجتماع فى هـذه المرحلة مدرسـتان أجنبيتان هما المدرسة الفرنسية لعلم الاجتمـاع ( اوجست كونت ــ دوركايم واتباعهما ) ثم مدرسة الانثروبولوجيا الاجتماعية فى لندن . فقد اصطبغت الدراسة فى القسم الناشىء بهذين اللونين مدة طويلة . ثم استأثرت به الفلسفة ووضعت الدراسات الاجتماعية تحت وصايتها. فانتقل من قسم مستقل الى مجرد مادة تدرس فى نطاق قسم الفلسفة . ومن ثم كان على رواد العلم والمعجبين بموضوعاته أن يعاودوا الكفاح لكى يستقل عن الفلسفة كما كافح الرواد والبـاحثون فى بلاد كثـيرة سبقتنا الى انشائه وارساء قواعده بعيدا عن الدراسـات الفلسـفية الخالصة . أى ان علم الاجتماع قطع فى سبيل استقلاله ذلك الشوط البعيد بين المعارضة والتأييد الذى سبق أن قطعه فى سبيل الاستقلال عن الفلسفة والمعارف الانسانية الأخرى فى معظم جامعات العالم .

وقد تم لعلم الاجتماع فى مصر بعض ما أراده من نصر . فأصـبح منذ عام ١٩٤٩ فرعا فى نطاق الدراسات الاجتماعية ثم قسما مسـتقلا منذ ١٩٥٦ وعندما أنشئت جامعتا الاسكندرية وعين شمس قام فى كل منهما فرع للدراسات الاجتماعية نجده فى الاسـكندرية فى نطـاق الدراسات الفلسفية ، وهو فى عين شمس فى نطاق الدراسات النفسية. وأنشىء معهد عال للدراسات الاجتماعية ملحق بجامعة الاسكندرية . ثم أنشىء فرعان لهذه الدراسات أحدهما ملحق بكلية البنات التابعـة لجامعة عين شمس ، والآخر بكلية البنات التابعة لجامعة الأزهر . هذا، الى اقتحام علم الاجتماع لمناهج دراسية أخرى فى كليات كثيرة مثـل كليات الزراعة وكليات المعلمين وكليات جامعة الازهر ومعاهد الخدمة الاجتمـاعية العـالية والمتوسطة ، وكان من الطبيعى أن تظهر حركة تأليفيــة فى علم الاجتمـاع تغذى هذه الأقسـام الناشـئة . ولذلك تكونت فى أوائل الخمسينيات جمعية تسمى ( الجمعية المصرية لعـلم الاجتماع ) كان رئيسها الاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى الذى

يرجع اليه دعائم الفضل فى انشاء أول فرع للدراسات الاجتماعية ؛ ويرجع اليه الفضل كل الفضل كذلك فى تعهد علم الاجتماع بالعناية حتى استطاعت الأقسام الجامعية أن تقوم مكتملة المقومات . وكان لى شرف السكرتيرية العامة لجمعية علم الاجتماع وأنضم اليها جميع أساتذة الاجتماع المشتغلين بعلم الاجتماع وأخذت الجمعية تغذى السوق العلمية بمختلف المؤلفات التى تعالج موضوعات اجتماعية . وأخذ الاساتذة ينشرون بحوث تخصصية فى علم الاجتماع . وكان اقبال طلبة الجامعات على الالتحاق بهذه الأقسام عاملا مشجعا فى النهوض بالدراسات الاجتماعية وفى نشر طائفة من الكتب فى هذا القطاع . ولو أن التأليف أخذ يتجه بسبب هذه الظاهرة وجهة مدرسية.

هذا ، وينبغى أن نشير الى أن مصر عرفت الدراسات الاجتماعية الميدانية والتطبيقات الاجتماعية قبل انشاء أقسام الاجتماع الأكاديمية . ويرجع الفضل فى ذلك الى قيام الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية عام ١٩٣٦ وكان غرضها الأساسى هو النهوض بالخدمات الميدانية ودراسة مشكلات المجتمع المحلى والاسهام فى علاج آفاته . وقد ركزت هذه الجمعية جهودها فى بداية الأمر على دراسة مشكلات المجتمع الريفى كما اهتمت بدراسة بعض أحياء القاهرة دراسة حقلية ميدانية. وأنشأت مدرستى الخدمة الاجتماعية الليلية بالقاهرة والاسكندرية لتخريج اخصائيين اجتماعيين يحملون رسالة الاصلاح وينزلون الى الحقل الاجتماعى لدراسة المشكلات على الطبيعة ويعملون على نشر الوعى واثارة امكانيات البيئة . ثم أنشأت وزارة التربية والتعليم معهدا نظاميا عاليا للخدمات الاجتماعية ظل وقفا على البنات مدة طويلة ثم أصبح معهدا مختلطا منذ بضعة سنوات . وقد نجحت هذه المعاهد فى تخريج أفواج من الشباب المثقف ثقافة اجتماعية وأمكن بذلك سد حاجة الدولة من الاخصائيين الاجتماعيين فى وقت لم تكن الجامعات المصرية قد هيأت نفسها لتخريج فنيين واخصائيين يعملون فى هذا الميدان . أما الآن وقد استكملت أقسام الاجتماع فى جامعات الجمهورية

أجهزتها ، فانها أصبحت تخرج باحثين اجتماعيين يجمعون فى اعدادهم الفنى بين الدراسات النظرية والميدانية ويتدربون فى مرحلة الاعـداد على النزول الى الحقل الاجتماعى ودراسة مشكلاته ويمكنهم بشكل جدارة أن يسهموا فى تحمل مسئوليات رسالة الاصلاح الاجتماعى فى مختلف القطاعات .

وكان انشاء وزارة الشئون الاجتماعية منذ عام ١٩٣٩ عاملا بالغ الأهمية فى خلق جيل جديد من الباحثين الاجتماعيين وتدعيم الدراسات التى كانت آخذة فى النمو فى ذلك الوقت ، وفتح آفاق جديدة فى البحث الاجتماعى لم تطرق من قبل ، وتشـجيع الهيئات العـاملة فى الحقل الاجتماعى . وقد أنشئت هذه الوزارة نظرا لزيادة الوعى الجمعى فى مصر وقيام هيئات كثيرة تطالب بالاصـلاح الاجتماعى لاسـيما فى الريف ، وظهور القوة العمالية وهى قوة جديدة كانت آخذة فى النمو والازدياد منذ الحرب العالمية الأولى وأصبحت تمارس ضغوطا ملموسة فى مختلف القطاعات الاجتماعية . فكان الغرض الفذ من انشاء وزارة الشئون الاجتماعية هو رسم سياسة انشائية ايجابية لاصلاح المعتل من أنظمة المجتمع والاسهام فى حل مشكلاته ووضع التشريعات الاجتماعية المحققة للرعاية الاجتماعية وتقديم المساعدات والخـدمات الاجتماعية بطريقة انسانية ، وقيادة هذه السياسة فى طريقها المرسوم وفق مخططات علمية مدروسة صوب تحقيق الأهداف المنشودة . وكان من الطبيعى أن ترتكز هذه المخططات على الدراسات الاجتماعية النظرية والميدانية .

وكان قيام جامعة الدول العربية عاملا عميق الأثر فى زيادة حجم الدراسات الاجتماعية وتطويرها والاتجاه بها وجهة قومية فى الاطـار العام للمجتمع العربى . وغنى عن البيان أن حلقات الدراسات الاجتماعية التى تعقدها دول الجامعة العربية تعتبر زخيرة غنية كل الغنى بالبحوث والدراسات الاجتماعية وتنطوى على ثروة علمية جديرة بالاعتبار .فقد أسهم فيها خيرة الباحثين فى الوطن العربى .

ومما هو جدير بالذكر والتقدير ، أثر ثورتنا العارمة (١٩٥٢) فى تطوير الدراسات الاجتماعية تطويرا جذريا والاتجاه بها وجهة قوميه بناءة فى الناحيتين النظرية والتطبيقية وفى القطاعات السياسية والاقتصادية والعمرانية . فقد عزف معظم الباحثين عن الدراسات النظرية التطبيقية واتجهوا الى الدراسات التى يتطلبها واقع الثورة وتقتضيها ضرورة اعادة بناء المجتمع وتنسيق أجهزة الدولة . وأخذ علماء الاجتماع والمتصلون بالدراسات الاجتماعية يناقشون نظرية الدولة وأصولها وفلسفتها ووظائفها وأتيحت لهم الحرية على نطاق واسع وماكنت أخالها متوفرة على هذا القدر فيما قبل الثورة ، وذلك بصدد مناقشة كافة المذاهب السياسية المعاصرة وتحليل الهيكل السياسى والاقتصادى للمجتمع المعاصر وأبعاده ومبلغ انعكاس النظام السياسى والاقتصادى فى مختلف المناشط الاجتماعية . وقد كان الكلام فى مثل هذه الموضوعات قبيل الثورة جرما لايغتفر . ومن ثم ظهرت مؤلفات كثيرة فى الشيوعية والاشتراكية والديموقراطية وخاصة الموجهة منها . ودارت مؤلفات حول اعادة التنظيم الطبقى والنقابات والحركات العمالية والثورية وذلك بجانب دراسات نظرية أكاديمية فى ميدان علم الاجتماع . بحيث أصبحت هذه الدراسات فى مجموعها تشكل انسكلوبيديا فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية المتصلة به .

وكان للاتجاه القومى الذى تتردد أصداؤه فى كل جوانب المجتمع العربى والدعوة الى القومية العربية ووحدة الصف العربى التى حملت لواءها جمهوريتنا ، آثار واضحة فى دفع عجلة البحث الاجتماعى والاتجاه به نحو الاهتمام بفلسفة القوميات ومقومات الوحدة القومية ومقدرات التراث القومى . ومن ثم ظهرت مؤلفات كثيرة تعالج هذه الموضوعات بعمق وكان لها أكبر الاثر فى تعميق المفاهيم القومية والثورية وفى التربية والتعبئة الفكرية القومية وتنبيه الأذهان الى أصالة التراث القومى وعظيم فضله على الثقافة الانسانية عامة .

وقد أسهمت الثورة فى تطوير الدراسات الاجتماعية بفضل ماأنشأته

فى مستهل قيامها من هيئات للبحوث الاجتماعية . لأن دولة الثـورة أدركت أن مقياس الرفاهية الاجتماعية مرتبط أشد الارتباط بمبـلغ الخدمات العامة التى يمكن توفيرها للشعب ، وأدركت كذلك أن مستوى الخدمات مرتبط أشد الارتباط بمستوى الانتاج . وربطت بين التنمية الاقتصادية والانعاش الاجتماعى . وعملت على أن تفى بالمطلبين معا . ولذلك أنشأت فى عام ١٩٥٣ المجلس الدائم لتنمية الانتاج القـومى للعمل على رفع مستوى الانتاج ورسم السياسة العامة التى يقوم عليها صرح الاقتصاد القومى ، وأنشـأت المجلس الدائم للخدمات العـامة لرسم السياسة التى تسير عليها الدولة لتحقيق الرفاهية الاجتمـاعية والانعاش الاجتمـاعى وكل مايتصل بالخـدمات التعليميـة والصحية والشئون الاجتماعية وذلك وفق المخططات المدروسة الهادفة المرتكزة على البحث العلمى والاسـتقصاء والخبـرات المسـتقاه من الحقـل الاجتماعى . وأنشأت الدولة عام ١٩٥٥ لجنـة التخطيط القومى التى كانت المقدمة المنطقية لانشاء وزارة التخطيط . وفى عام ١٩٥٧ أدمج المجلس الأعلى للخدمات فى اللجنة العليا للتخطيط القومى .

هذا ، ويرجع الفضل الى زيادة حجم الدراسات الاجتمـاعية الى اتساع نطاق أجهزة الدولة التى تحتاج الى مزيد من هذه الدراسات مثل هيئات برامج التنمية لمضاعفة الدخل القومى ومشروعات السنوات الخمس والهيئة العليا للاسكان وهيئات رعاية الشباب والادارة العـامة للتخطيط الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية التى اطلعت بأفر نصيب من الدراسات الاجتماعية . فقد كانت مكونة من اثنتى عشرة لجنـة وهى : لجنة الأسرة ، رعاية الشباب ، شغل أوقات الفراغ ، الصـناعات الريفية ، العادات والتقاليد ، الزى ، الاسكان ، النشـاط الاجتماعى لجنة المساعدات ، لجنة البحوث المشـتركة ، لجنة الاحصاء ، لجنـة العمران . وقد كان المشرفون على هذه اللجان هم أساتذة الاجتمـاع والخبراء المختصون فى الدراسات الاجتماعية بالاسهام مع جيش مدرب من المثقفين ثقافة اجتماعية سواء من خريجى الجامعات والمعاهد أو من

المؤهلين ميدانيا للعمل فى القطاعات المشار اليها . وقد قامت هذه اللجان بدراسات مكتبية وأخرى ميدانية . وقدمت نتائج لها أهميتها فيما ينبغى أن يكون عليه اصلاح بعض النظم والمتواضعات الاجتماعية .

وكان انشاء المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية من الروافد الأساسية التى غذت ميدان الدراسات الاجتماعية بطائفة من البحوث التى تمتاز بالأصالة والجدة والطرافة . فقد نص قانون ٢٢١ لسنة ١٩٥٩ على أهم أغراضه وهو النهوض بالبحوث العلمية التى تتناول المسائل الاجتماعية المتصلة بسائر مقومات المجتمع العربى والمشاكل التى يعانيها لوضع الأسس اللازمة لسياسة اجتماعية تتفق وأحوال البلاد . ويشترك فى أعمال المركز متخصصون وفنيون وخبراء فى مختلف فروع الدراسات الاجتماعية . هذا فضلا عن استعانته بأساتذة الاجتماع فى جامعات الجمهورية للاشراف على بحوثه المكتبية والميدانية ويدعو المركز من آن لآخر أساتذة أجانب لتطوير الدراسة التى يقوم بها الباحثون فى نطاقه ودفع عجلة البحث وفق أحدث النظريات الاجتماعية . كما يقوم بعقد حلقات دراسية تخصصية فى البحوث الجنائية والاجتماعية يسهم فى اعدادها والاشراف عليها والاشتراك فيها أجدر المشتغلين بهذه الدراسات . وقد عقد أولى حلقاته فى عام ١٩٦١ وكانت مقصورة على بحوث جنائية ونوقشت فيها الموضوعات الآتية : البغاء ، الأخذ بالثأر ، الأسرة وجناح الأحداث ، توحيد العقوبات السالبة للحرية ، دور الشرطة فى مكافحة الجريمة . وعقد الحلقة الثانية عام ١٩٦٢ وكانت مهرجانا علميا لابن خلدون منشىء علم الاجتماع . وعقد الحلقة الثالثة عام ١٩٦٣ ، وكانت مقصورة على بحوث جنائية ونوقشت فيها موضوعات أربعة هى : تعاطى الحشيش وشرطة الأحداث والقضاء الجنائى والاختبار القضائى . وقد سدت الدراسات والبحوث التى قدمت فى هذه الحلقات فراغا كبيرا فى المكتبة الاجتماعية وأنشأ المركز مجلتين أحدهما المجلة الجنائية القومية عام ١٩٥٨ ، وثانيهما المجلة الاجتماعية القومية عام ١٩٦٤ .

ولا يفوتنى أن أشير الى ماقدمه مركز تنمية المجتمع والتربية الأساسية بسرس الليان ( التابع لهيئة اليونسكو ) من دراسات اجتماعية هامة ( وخاصة مانشره الاستاذ الدكتور حامد عمار ).

هذا ، وكان صدور ميثاق العمل الوطنى محددا أبعاد مرحلتى التحول الاشتراكى والانطلاق ، عاملا أسبر غورا وأرسب تأثيرا من العوامل التى سبق الاشارة اليها فى تطوير الدراسات الاجتماعية ودفع عجلتها وتوجيهها وجهة اشتراكية . ومن ثم ظهرت دراسات جديدة لتأصيل الاشتراكية العربية وايديولوجيتها . هذا الى دراسات وبحوث فى مشكلات التطبيق الاشتراكى وتحليل المفاهيم الجديدة التى وردت فى الميثاق وهى كلها تدور حول الهيكل الاقتصادى والتغير الاجتماعى وتطوير بناء ونظم المجتمع تطويرا جذريا لاسيما وقد أصبحت الاشتراكية هى علم تغيير المجتمع . وبجانب هذه الدراسات نجد مجموعة من الدراسات النظرية والميدانية تدور حول التصنيع ومشكلاته الاجتماعية والعمالية وانعكاس آثاره فى التربية والأسرة ومجتمعى القرية والمدينة. وقد اهتم المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بهذا الموضوع اهتماما بالغا لدرجة أنه أنشأ له وحدة خاصة ( فى نطاق شعبة البحوث الاجتماعية ) وهى وحدة التصنيع والتحضر .

ويجدر بى أن أشير فى ختام هذه الفقرة الى جهود الباحثين الناشئين الذين يتقدمون برسائل الماجستير والدكتوراه فى علم الاجتماع بكافة كليات الجامعات العربية . فكلها تدور حول موضوعات لها أصالتها وأهميتها فى البحث العلمى الاجتماعى وفى دراسة البناء الاجتماعى والكشف عن طبيعة مشكلاته .

# اهم المراجع

## أولا ـ مراجع عامة :


| | |
|---|---|
| Barnes; Becker | ; Social thought from Lore to Science. |
| Barnes | ; An Introduction to the History of Sociology. |
| Bogardus | ; Contemporary Sociology. |
| » | ; Development of Social thought. |
| Cuvillier | ; Manuel de Sociologie. |
| Gurvitch; Moore | ; La Sociologie de 20 Siecle. |
| » | ; Essai de Sociologie. |
| Odum | ; Masters of Social Science. |
| Park; Burgess | ; An Introduction to the Science of Sociology. |
| SoroKin | ; Les theories Sociologiques Contemporaines. |


## ثانيا ـ مراجع خاصة ( ا ) بالمدرسة الفرنسية :


| | |
|---|---|
| Bouglé | ; Française Contemporaine. |
| Cuvillier | ; Op. Cit. |
| Davy | ; Durheim; Sa Sociologie. |
| Durkheim | ; Les Règles de la Méthode Scciologique. |
| » | ; De la Division du Travail. |
| » | ; Les Formes elementaires de la Vie Religieuse |
| Fouillée | ; La Science Sociale Contemporaine. |
| La Combe | ; La Méthode Sociologique de DurKheim. |
| » | ; L'Histoire Considérée Comme science. |
| René. Worms | ; Organisme et Société. |
| Espinas | ; Origines de la Technologie. |
| Le Play | ; La Réforme Sociale en France. |
| Trade | ; Les Lois de l'Imitation—La Logique Sociale. |
| » | ; Les Lois Sociales — L'Opinion et La foule. |


## (ب) مراجع خاصة بالمدرسة الالمانية


| | |
|---|---|
| Aron Raymond | ; Essai Sur la theorie de l'Histoire dans l'Allemagne Contemporaine. |
| » | ; La Sociologie allemande Contemporaine. |
| Bougle | ; Les Sc. Sociales en Allemagne. |
| Durkheim | ; La Science Positive et la morale en Allemagne. |
| Gurvitch | ; Les Tendences actuelles de la Philosophie Allemande. |

Salomon ; Max Weber Sociology. (Social Research Feb. 1935).
Spykman ; The Social theory of G. Simmel.

## (ج) مراجع خاصة بالمدرسة الانجليزية

Barker (Ernest) ; Political thought in England From H. Spencer to the Present day.
Barnes. (H.E.) ; The Fate of Sociology in England. (American Soc. Society, 1927).
Bartlett ; Morris Ginsberg and Others.
Caradog Jones ; Evolution of the Social Surveyin England Since Booth.
Ginsberg ; The Life and Work of Westermark,
» ; The Psychology of Society.
» ; Sociology.
» ; L. T. Hobhouse.
Harper ; Sociology in England.
Hobhouse ; Social Development.
Palmer ; Impressions of Sociology in Great Britain (Amer, Jour of Soc. 1927).
Rumney (Jay) ; Herbert Spencer's Sociology.
; The Science of Society.
Spencer (H.) ; Principles of Sociology.
; The Study of Sociology.

## ( د ) مراجع خاصة بالمدرسة الأمريكية

Bernard ; Origins of American Sociology.
» ; Fields and Methods of Sociology
Eubank ; The Concepts of Sociology.
Lester Ward ; Pure Sociology — Applied Sociology.
Lundberg ; Trends in American Sociology.
Ogburn ; Social Change.
Maciver; Page ; Society ; An Intro., Analysis
» ; Social Causation.
Small ; Origins of Sociology — 50 Years of Sociology in U.S.A.
Summer ; Folkways.
Ellwood ; Recent American Sociology, (in Sc.)

## ( هـ ) مراجع خاصة بالمدرسة الروسية

| | |
|---|---|
| **Bucharin** | ; Historical Materialism; A System of ; Sociology. |
| **Chang** | ; The Marxian Theory of the state |
| **Coker** | ; Recent Political thought. |
| **De Roberty** | ; Nouveau Programme de Sociologie. |
| | ; Sociologie de l'Action. |
| **Hecker (Julius)** | ; Russian Sociology. |
| | ; Religion and Communism. |
| **Kovalevsky** | ; Morale Sociale. |
| | ; Russian Political Institutions. |
| **Kropotkin** | ; Mutual Aid : a Factor of Evolution |
| **Novicow** | : La Critique du Darwinisme. |
| **»** | : Les Luttes entre Sociétés Humaines. |
| **Sorokin** | : The Russian Sociology in the 20 Siècle, |

## ( و ) مراجع خاصة بعلم الاجتماع الحربي

| | |
|---|---|
| **Bodart** | : Losses of Life in Modern wars. |
| **Gaston Bouthoul** | : Traités de Paix — Les guerres. |
| **Sorokin** | The Sociology of Evolution |
| **»** | The Effects of war on social life. |
| **Summer** | : War and other Essays. |
| **Vaccaro** | ; La Lutte pour l'Existence dans Woods. |
| **Woods (F.A.)** | : Is War Diminishing ? |

# الفهرس

صفحة

الدار القومية للطباعة والنشر


Bibliotheca Alexandrina
0683195